##PAGE=3##

[المجلد الرابع]

[هوية الكتاب]

عارف تامر

تاريخ الاسماعيليه

٤ الدولة النزاريه

##PAGE=5##

تاريخ الإسماعيليه - ٤ - الدولة النزاريه

##PAGE=7##

عارف تامر

تاريخ الإسماعيليه ٤ الدولة النزاريه

##PAGE=8##

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١

##PAGE=9##

محتويات الكتاب

الحسن بن الصباح ١١

الآمر بأحكام الله ٣١

الوصي الثاني: الظافر ٤٢

الوصي الثالث: الفائز ٥٠

الوصي الرابع: العاضد ٥٦

الاسماعيلية المستعلية أو البهرة ٦٧

من مصر الى اليمن ٦٩

دولة الموت الاسماعيلية النزارية ٧٥

الحسن بن الصباح: شيخ الجبل ٧٧

عرش الامامة في الموت ٩٢

القاسم شاهية ١٠٢

المؤمن شاهية ١٢٥

الاسماعيليون و الحركة الثقافية ١٤١

الأدب الاسماعيلي عبر العصور ١٤٣

الاسماعيلية و التصوف ١٥٨

العادات و التقاليد الفاطمية ١٨٩

فهرس الأعلام ٢٠٣

فهرس الأماكن ٢٠٩

فهرس القبائل و العائلات و الفرق ٢١١

المراجع ٢١٣

##PAGE=11##

[الحسن بن الصباح](#)

ذكرنا القليل عن «الحسن بن الصباح» الذي يرجع إليه الفضل في إقامة الدولة الإسماعيلية «النزارية» في «الموت» بفارس، و قد تمّ هذا قبل وفاة الخليفة الفاطمي الثامن الإمام المستنصر بالله، و وقوع الفتنة الكبرى في مصر التي أسفرت عن مقتل ولي العهد الشرعي الإمام «نزار بن المستنصر بالله» و أخوته، و أولادهم، و تنصيب «المستعلي» بن المستنصر بالله ابنه الأصغر من زوجته شقيقة الأفضل ابن بدر الجمالي أمير الجيوش، و قد تمّ ذلك بقوة السلاح كما ذكرنا.

ولد الحسن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميري اليمنى فى مدينة الرى سنة ٤٤٧ هـ. و هو من أصل عربى، يتصل نسبه بملوك حمير اليمنيين.

و بعد أن أكمل دراسته شاءت الظروف أن يقوم برحلة فى أنحاء إيران، فالتقى بأحد دعاة الفاطميين المسمّى «أبو النجم السراج» فتمكن بعد محادثات عديدة، و مقابلات متتابعة من التأثير عليه، و تصنيفه فى عداد أبناء دعوته، و بعد مدة التقى بالداعى الفاطمى الأكبر «عبد الملك بن عطّاش» فباركه و شجعه على زيارة القاهرة «المعزّية»، و التشرّف بمقابلة الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله، فاستجاب لطلبه، و تسلّم منه كتابا إلى الداعى «أبى داؤد المصرى» يطلب فيه منه تسهيل مهمته.

فى القاهرة «المعزّية» أقام الحسن بن الصباح مدة ثمانية عشر شهرا تمكن فى نهايتها من مقابلة الخليفة الإمام المستنصر بالله الذى منحه رتبة «داعى». و تذكر بعض المصادر الإسماعيلية:

##PAGE=12##

قيل أنه خلال هذه المدة كان يتلقى الدروس، و التدريب من «المؤيد فى الدين - هبة الله الشيرازى» «داعى الدعاء» و قد قام بمهمة الدعوة للإمام نزار لأن الإمام المستنصر بالله كان قد أعلن إمامته أكثر من مرة، كما طلب إليه قبل عودته إذاعة ذلك على الأتباع و المستجيبين فى كل مكان. هذا، و عند ما أخذ يؤلّب الناس على الأفضل، اعتقل، و زجّ به فى السجن، و لكنه تمكن من الإفلات، فعاد إلى بلاد فارس، و أقام فى منطقة «قزوين» يخطط، و يعمل على إقامة دعائم الدولة الإسماعيلية النزارية، و كانت باكورة أعماله احتلال قلعة «الموت» الواقعة فى جبال «البرز» إلى الشمال الغربى من «قزوين» و هذه القلعة بناها «حسن الداعى المحق» و هو أحد القواد البويهيين المعروفين . و من الموت امتدّ الحسن بن الصباح إلى القلاع المجاورة الواقعة فى تلك السلسلة من الجبال و هى : شاهدوز، و ليمون درة، و كردكوه، و كمشير، و ميمون دز، و تون، و خوان ...

و بعد أن تمّ له ذلك أعلن قيام الدولة النزارية الإسماعيلية، و كان قد تمكن من استحضار «على الهادى» بن الإمام نزار بن المستنصر بالله من مصر، فبايعه الناس بالإمامة، ثمّ أخذت هذه الدولة تنمو، و تتوسع، و تزدهر حتى فرضت هيبتها على الدول المجاورة، و أصبحت تحتل مكانة مرموقة، و ذلك بفضل التنظيمات الجديدة، و الأساليب الإدارية التى اتبعها «الحسن بن الصباح»، و التى اعتبرها المراقبون و المؤرخون جديدة و متطورة.

اشتهر «الحسن بن الصباح» بدهائه، و مرونته، و بعد نظره . وصفه المؤرخون بالشجاعة و الإقّدام، و المغامرة، فإليه يعود الفضل بتنظيم فرق «الفدائية» التى أدخلت الرعب فى قلوب الدول المجاورة، و قامت بنشاطات كبرى إبان الحروب التى خاضتها، و كان قد انتقل نشاطها أخيرا إلى مدينة «مصيف» الشامية فى عهد راشد الدين سنان، هذا فضلا عن تعجيلها بإنهاء دور الدولة الفاطمية المستعّلية الجمالية من الديار المصرية.

حكم «الحسن بن الصباح» دولة «الموت» النزارية مدة خمسة و ثلاثين عاما إلى جانب «على الهادى بن نزار بن المستنصر بالله» الذى أقام فى قلعة «المسر»، و بعد الصباح تسلّم شؤون الحكم و الدولة خليفته، و نائبه «كيا نيزك أميد».

##PAGE=13##

هذا بالنسبة لإقليم فارس . أما في بلاد الشام فقد أعلن الإسماعيليون فيها استجابتهم للحسن بن الصباح، وانضمامهم، و خضوعهم لدولة الموت، وكانوا قد رفضوا الإستجابة لدولة المستعلي منذ البدء، وهذا ما جعل الأفضل الجمالي يقابلهم بضغط شديد، ولكنه لم ينتهمهم عن عزمهم، وظلوا على معارضتهم لإمامة المستعلي، وقد نتج عن ذلك انقطاع الدعاء عن الوعظ والإرشاد، وإصابة الدعوة في بلاد الشام بما يشبه الشلل، ولكن كل هذا لم يزعجهم عن موقفهم، وظلوا على ولائهم لنزار ولولده من بعده، وللداعية الكبير الحسن بن الصباح الذي وقف آتذ موقف العاجز عن مساعدتهم بسبب انشغاله بأحداث بلاد فارس.

و توالى النكبات على الإسماعيليين في ديار الشام، وكان أكثرهم يعيش في مدن حلب، و حمص، و حماه، و دمشق، ممّا اضطرهم أخيرا إلى التسلل و الاعتصام في القلاع الواقعة في جبال «الهرّة» و هى سلسلة الجبال المعروفة الآن بجبال العلويين، و كانت في تلك الفترة تسمى «جبال قلاع الدعوة»، و كانت رقعتها تمتد من شرقي مدينة طرطوس جنوبا حتى صهيون شمالا، و من البحر غربا حتى حدود مدينة حماه شرقا، و يدخل في نطاق هذه الرقعة قلاع : مصيف، و الرصافة، و القدموس، و العليقة، و المينقة، و المرقب و الخوابي، و الكهف، و صهيون ... و غيرها. و من المؤكد أن قلاعا أخرى خارج هذا المحيط كقلعة شيزر، و بانياس الشام، و طرابلس، و غيرها حتى قلعة «الشقيف» كانت داخله تحت سيطرتهم.

و أخيرا:

قيّض الله لإسماعيلية بلاد الشام شيخ الجبل «سنان راشد الدين» فنظّمهم، و سهر عليهم.

و مهما يكن من أمر ... فلا بد من الاشادة بمآثر «سنان راشد الدين» و أعماله، و اهتمامه بمحاربة الصليبيين الذين وضعوا في برنامجهم مخطط احتلال الثغور، و المدن السورية الواقعة على شاطئ المتوسط ... و قصة سنان مع «صلاح الدين الأيوبي» معروفة تاريخيا.

فهى من القصص المثيرة فى التاريخ التى تعطى انطباعات جيدة،

##PAGE=14##

و تظهر عظمة سنان، و قيادته الحكيمة، و إيمانه بوطنه و أمته، و كيف استطاع إخضاع صلاح الدين، بعد أن أعطاه درسا فى أساليب الحرب و القتال مع المستعمرين فى سبيل مصلحة الوطن و الأمة.

أجل ... كان سنان راشد الدين من الرجال القلائل الذين لا وجود بهم الدهر إلّا حينما تعصف الأزمات، و تتوالى النكبات.

تربّى فى مدرسة الدعوة النزارية الإسماعيلية فى «الموت». و فى سنة ٥٥٨ هـ. جاء إلى بلاد الشام فظلّ شاغلا هذا المركز حتى وفاته فى سن مبكرة سنة ٥٥٨ هـ. و قد دفن فى بلدة مصيف السورية.

كان له أثره البعيد فى السياستين السورية و المصرية، و كان حاملا مسؤوليّة شعبه بنجاح و حاميا له من الضغوط العنيفة التى كان يتعرض لها و خاصة من «صلاح الدين الأيوبي» و الصليبيين، و قد استطاع أن يرد الغارات، و أن يتفوق على كل من ناصبه العداء، حتى أن صلاح الدين الأيوبي أعلن أخيرا عن رغبته بمصالحته، و التعاون معه لمحاربة الصليبيين و القضاء

على مخططاتهم، و بالفعل تمّ ذلك في معركتي القدس و حطين، حيث ساهم جيش سنان و فدائيته مساهمة فعّالة في قتال الأعداء و الكشف عن مخططاتهم و أساليبهم.

كان سنان قائداً عبقرياً، و شجاعاً مقداماً، و على جانب كبير من الذكاء و المعرفة و بعد النظر ... و كان مثلاً أعلى للفضيلة، و الأخلاق، و الوطنية، و امتاز بالإضافة إلى كل ما ذكرناه، بتبحره في الفلسفة، و الرياضيات، و علم الفلك، و الأدب، و الشعر ... و سنأتى على كل هذا.

من الموت إلى مصيف

زعم المؤرخون، و مزاعم المؤرخين أكثر من أن تحصى - بأن الإسماعيلية النزارية كانت في العصور التي مضت كافة تشكل خطراً على الكيان الإسلامي، و ذلك لأنها أوجدت الجمعيات السرية، و المنظمات الإرهابية، و ابتدعت التعاليم «الباطنية» التي تهدف إلى التخريب و الإفساد و هي تهم درج على تليفها بعض المؤرخين.

و قد يكون من العسير على المنصف محاسبة المؤرخين و المستشرقين على ما ارتكبوه من أخطاء و تكذيب أقوالهم في فصولها و أبوابها. و لكن

##PAGE=15##

أحسن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد ... هو أن الأمم الناهضة لا تخلق نهضةً قوميةً أو فكريةً إلّا على ضوء الماضي . و الأمة الناشئة لا تقيم حاضرها إلّا على عمد ماضيها، و كم هو حري بنا، و نحن نعيش في عصر نهضةً حديثة، و في ظل الاكتشافات و الانتصارات العلمية أن نتجرد عن الأهواء و عصبية القرون و روا سب التاريخ. فننصرف إلى إعادة النظر بما دوّن و كتب، و إبراز الحقائق خالية من الأدران و الشوائب خدمةً للعلم و للأجيال الصاعدة.

أجل ... لقد قام في هذه الدنيا العربية و الإسلامية علماء منصفون تفرغوا لدراسة هذه النواحي الحيوية الهامة، و كشفوا الستار عن بعض الحقائق المغمورة. فمتى نرى لهؤلاء طلاباً في مجتمعنا يسرون على غرارهم متخذين من العقل دليلاً و هادياً، متجردين للحقيقة و حدها، عاملين على خدمة التاريخ ليأتى متفقا و الحقيقة، و ليتخذ صفة العلاج الناجع لمتاعب الإنسانية المعذبة، و منهاجاً للإصلاح الكامل ... و عندئذ يرى الطالب في تاريخنا كل ما ينشده من حقائق.

لقد سبق لى أن ذكرت : بأن الدولة الإسماعيلية النزارية قد أدّت للأمة العربية، و للبلاد الإسلامية أعظم الخدمات و أجلها . فهذه المنظمة العسكرية «السرية» كانت مجموعة بأس، و شجاعة، و قوة، و ذكاء، و إرادة خارقة . و إن الأعمال التي اضطلعت بها كانت عاملاً أساسياً في صد العدوان الصليبي، و الوقوف بوجه الاستعمار، و العناصر الدخيلة المستعمرة.

و الملاحظ أن أصعب فترة مرّت على الإسماعيلية هي الفترة التي تبدأ في أوائل القرن الخامس للهجرة المعروفة لدى الباحثين بعنفها و تقلباتها، و بأنها الفترة الغامضة، أو قل فترة التجارب و المحن البعيدة عن الهدوء و الاستقرار، و الزاخرة بالمفاجآت الغريبة و الانقلابات العنيفة، كهجمات الصليبيين على ديار الشام بعد ظهور الدولة السلجوقية في فارس لمناوأة العباسيين في بغداد، و قيام إمارات الأيوبيين الزنكيين في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية، و ظهور الأيوبيين في حلب و دمشق، و بروز النزارية الإسماعيلية في فارس، و بلاد الشام تخططان للقضاء على بقايا الدولة «المستعلية» الفاطمية في

مصر، وقد كان من أثر هذا الواقع تأثير النزارية، وخاصة في بلاد الشام بهذه الأحداث الخطيرة، و تعرضها للأزمات و للهزات.

##PAGE=16##

فبعد إقامة الدولة النزارية الإسماعيلية في «الموت» بفارس على يد «الحسن بن الصباح» ظهر نشاط إسماعيلي نزارى في ديار الشام تقلب على قيادته كل من الدعاء «رضوان» و «بهرام» و «محمد العراقي - أبو محمد» فوزعوا أعمالهم في جهات حلب، و ديار الشام حتى بانياس، و في حمص و حماه و طرابلس الشام، ثم انتقل نشاطهم إلى جبال «البحرة» كما ذكرنا، و عند ما قدم «سنان راشد الدين» تسلّم الشؤون العامة و القيادة . فاتخذ من «مصيف» قاعدة له بالنظر لموقعها الجغرافى المهم و لوجودها في أول السهل المؤدى إلى داخل البلاد، و على أبواب الجبل الكبير، و لأن «مصيف» بلد صغير جميل هادىء، و هبه الله من الجمال و البهاء قسطا و افرا، و خصّه بالينابيع الغزيرة، و البساتين الوافرة، و الضواحي الساهرة، و من الجدير بالذكر أن النزارية الإسماعيلية شادت فيها الدور الباذخة، و الصروح العالية حتى أصبح ذلك البلد الصغير فى فترة قصيرة خصيبا بالثروة، غنيا بالآثار . و كان يزيد فى منعة البلدة الصغيرة سورها العظيم ذو الأبواب الأربعة، و قلعتها الكبرى الواقعة فى الجهة الشرقية، و القائمة على صخرة كبرى ذات جوانب عمودية يصعب تسلقها، أو الدخول إليها إلا من باب واحد ... إذا دخل منه أى زائر كان عليه أن يسير فى دهليز معقود يتصل من قمة القلعة و ما وراءها، و فوقها من الغرف و الحجرات، و كلها مبنية من الحجر الصلد، و على السور أبراج متلاصقة مخصصة للحامية التى كان يوكل إليها أمر رمى المهاجمين بالسهم بحيث يستحيل أخذها بالهجوم إلا بعد قتل المئات أو الألوف.

و كآنى بهؤلاء المقاتلين المقيمين فيها، قد أمنوا على أنفسهم من هجمات الغزاة و الفاتحين و المستعمرين، و هزأوا بأساليبهم و خططهم.

و فى هذه القلعة كانت تعقد المؤتمرات السياسية و مجالس الحرب، و عند ما فكّ «صلاح الدين الأيوبي» بغزوها و احتلال القلاع «النزارية الإسماعيلية» التابعة لها، و الواقعة فى جبال «البحرة»، عاد إلى رشده، و كربما سيتعرض له جيشه من أخطار، ثم عزز ذلك بزوغ الأخطار الصليبية التى راحت تهدد العرب و الإسلام.

فذهب إلى القلعة، و عقد راية الصلح مع «سنان» و تعاونا، و اشتركا فى التصدى للعدو الصليبي الدخيل . و هكذا اشترك صلاح الدين

##PAGE=17##

الأيوبي، و سنان راشد الدين جنبا إلى جنب فى معركة حطين، و معركة «القدس» من بعدها و حققا الانتصارات الرائعة التى كتبت بأحرف من ذهب على صفحات التاريخ.

و قد ذكرت المصادر التاريخية: أن صلاح الدين الأيوبي رأى بعد أن اجتاز سهول «بانياس» و وصل إلى أغوار فلسطين، أن لا يقدم على فتح مدينة، أو الدخول فى معركة إلا فى ضوء المعلومات الصحيحة، و بعد الوثوق من النصر، و كان على قناعة تامة بأن سقوط «بيت المقدس» بأيدى جيوشه لن يتم إلا بعد معارك طاحنة ضدّ الصليبيين، يقضى فيها على معنويات هذا الجيش الكبير الذى كان يخيم فى طبريا، و الكرك و عكاء، و حيفا، و نابلس، و عسقلان، و بعد أن يفرض

على القدس حصارا عنيفا ضيقا يقطع فيه المدد، كما رأى من الضرورة أيضا عزل الحاميات المتفرقة في الحصون والمعقل عن بعضها البعض، و تطويقها تطويقا محكما ... وهكذا حوّل وجهه عن «بيت المقدس» وتركها وشأنها، وقسّم جيشه إلى فرق مستقلة عهد بقيادتها إلى قواد مجربين وجّههم إلى النقاط المرسومة، والمعروفة بموقعها.

و في هذه الفترة وصلت إلى المكان الذي يخيم على أرضه الفرقة النزارية الإسماعيلية التي سلكت طريق الساحل من قلاع الدعوة الشامية، فرأى صلاح الدين أن يوجه أفرادها في مهمات صعبة كصد حركات العدو ومعرفة عدده وعدته وسلاحه، ثم محاولة بذر بذور الشقاق بين أفرادهم وقواده. و تنكّر هؤلاء كعادتهم في الحروب و تغلغلوا في الجيش الصليبي يفسدون على القواد خططهم، و يزرعون بذور التفرقة بين الجماعات الصليبية المتنافرة، وكانوا في الوقت نفسه على اتصال بقيادة صلاح الدين يطلعونه على كل شاردة واردة.

أما صلاح الدين فكان لا يتقدم من مكان إلى آخر، ولا يقدم على احتلال موقع أو مدينة إلّا في ضوء التقارير التي تردده من هؤلاء «الفدائية» ... و كل هذا مكّنه من تحقيق انتصارات سريعة، وكسب معارك حاسمة، وتحويل جيش العدو إلى جماعات متفككة منهوكة القوى تتصارع في سبيل كسب المغانم، والنفوذ، والسيادة. و علم

18 ##PAGE=##

قواد الصليبيين بأن «الفدائية» الإسماعيلية اليد الطولى بإفساد خططهم وعرقلة أعمالهم . فكانوا يوعزون إلى جيوشهم بالاحتراز منهم، وبمضاعفة الرقابة على تحركاتهم، ولكن أتى لهم ذلك، وهم مزيج من أمم وشعوب مختلفة اللغات، والعادات يتنازعون، ويتقاتلون، فيهم الإفرنسي، والجرمانى، والإسباني والسكسونى وغيرهم، وكل هذا أوجد بينهم الحسد، والنزاع، والتنافس، فأصبح القائد فى الميدان لا يستطيع أن يلقى أوامره إلّا على أبناء جنسه وطائفته، وهكذا ضعفت ثقة الجيش بقواده، والقواد بالأفراد ... ممّا مهد للعرب خوض المعارك بنجاح، والانتصار السريع الحاسم.

أما الجيش العربى، فكان كتلة مجتمعة تحت قيادة واحدة، و راية واحدة ... يحبّ الكبير منه الصغير، والصغير الكبير، و يضحى القائد بمصلحته الخاصة فى سبيل جندى واحد بالإضافة إلى أنهم كانوا متساوين فى الحظوظ والواجبات ... تقسّم عليهم الغنائم بلعدل، وكانوا أيضا يعتقدون بأنهم يحاربون فى سبيل واجب أمرهم الله به، فلا غرابة بعد ذلك إذا ما قدموا أنفسهم عن عقيدة وإيمان فى سبيل هذه الفكرة المثلى، وهذا الهدف الأسمى.

و بعد أن تمّ لصلاح الدين إحراز النصر فى معركة «حطين» وغيرها تقدم باتجاه «القدس» فطوّق المدينة، و بعد عشرة أيام من المعارك التي كان يخوضها جيش العرب مع الصليبيين بالنبال . وجّه صلاح الدين أمرا عاجلا إلى قواته باقتحام الباب الشمالى المسمّى «باب العمود» أو «كنيسة صهيون»، فترجع الصليبيون عن الأسوار أمام وابل من نبال «الفدائية»، واقتحم العرب الحواجز و وصلوا إلى الخندق، ثم جاوزه، و التصقوا بالسور، و بدأوا بنقبة تحت وابل من السهام، والقذائف المشتعلة، و لم يطل الوقت فالمنجنقات تمكّنت من إحداث ثغرة أدّت إلى فتح الباب . فاندفعت الجيوش المجاهدة إلى المدينة المقدسة، واختلط الحابل بالنابل أمام الأسوار، و سالت الدماء كالأنهار، و تساقط الرجال كتساقط أوراق الأشجار بفعل العاصفة الهوجاء.

عند ذلك أقدم الصليبيون على إشعال النار فى المباني، و كان قصدهم إحراق المدينة بأكملها و اتهام العرب بذلك، و لكن صلاح الدين فطن

##PAGE=19##

لهذه الحيلة، فأمر قواده بتأليف فرق للعمل على إطفاء النار ...، و عند الغروب خيم الهدوء على المدينة المقدسة، و هدأت النفوس النائرة التى تعبت من القتال، فرفعت الأعلام العربية على الشرفات و المباني و الأسوار، و فى تلك الساعات الحاسمة وجه «باليان» الصليبي إلى صلاح الدين نداء يقول فى:

«أيها السلطان، اعلم أننا فى هذه المدينة، فى خلق كثير، لا يعلمهم إلا الله تعالى، و إنما يفترون عن القتال رجاء الامان، ظننا منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، و هم يكرهون الموت، و يرغبون فى الحياة . فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا و نساءنا، و نحرق أموالنا و امتعتنا، و لا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً و لا درهماً، و لا تسبون و تأسرون رجلاً و لا امرأة، و إذا فرغنا من ذلك، أخبرنا الصخرة و المسجد الأقصى و غيرهما من المواضع، ثم تقتل من عندنا من أسرى المسلمين و هم خمسة آلاف أسير، و لا نترك لنا دابةً و لا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا (و) قاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه و نفسه، و حينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، و نموت أعزاً أو نظفر كراما».

فكر صلاح الدين طويلاً ثم أجاب الصليبيين إلى طلبهم على أن يخرج منهم من يريد الخ روح سالماً فى مدة أربعين يوماً، و أن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، و المرأة خمسة، و الطفل اثنين . و هكذا ظل صلاح الدين فى فسطاطه على جبل «الزيتون» يصدر الأوامر الملكية للجيش المنتصر طالبا إليه عدم الاعتداء على الآمنين من السكان، أو قتل أحد من الصليبيين الذين استسلموا، كما طلب إلى السكان المدنيين فتح متاجرهم، و الانصراف إلى صناعتهم و زراعتهم، و رتب على أبواب المدينة أمناء ليأخذوا من الصليبيين الراحلين الجزية المفروضة عليهم، و كانت أوامر صلاح الدين شديدة تقضى بمعاملة النساء معاملة حسنة، و عدم التعرض لرجال الدين الذين يمارسون طقوسهم الدينية كما أمر القواد أن يكرموا ملك القدس الصليبي الذى استسلم.

و مهما يكن من أمر ... فإن الصليبيين كانوا يتحدثون عن صلاح الدين و مواقفه البطولية و مثاليته، عند ما بادر إلى توزيع الأموال و الهبات، و تسخير الدواب لنقل المرضى و الشيوخ و عن رأفته بالأطفال، و عطفه على الضعفاء، و الفقراء ... و كانوا يتحدثون فى مجالسهم عن

##PAGE=20##

عدله و إخلاصه، و عن جنوده الذين كانوا يسبغون على خطاه فى مجال المروءة و الشهامة.

¹ تامر، عارف، تاريخ الاسماعيلية، 4 جلد، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

هذا الفصل عن صلاح الدين قد يبدو خارجا عن الموضوع، ولكنه يتعلق مباشرةً بالبحث عن «النزاريّة الإسماعيلية» الذي نحن بصدده، وفيه كافة المصادر التاريخية، والأدلة على مساهمة هذه المجموعة مساهمة فعّالة في الحروب الصليبية، التي لم يستطع المؤرخون إغماض العيون عنها.

وعلى العموم ... فإن الدولة الإسماعيلية النزاريّة في فارس، المعروفة بدولة «ألموت» و الدولة الأخرى في «مصيف» السورية، و بقايا «المستعيلة» الفاطمية وقفت عاجزة عن استعادة الأمجاد العظيمة التي كانت في عهد الخلفاء الفاطميين في الديار المصرية، و المغرب، و الشام، و فلسطين، و اليمن، و الحجاز، و صقلية.

لقد كان لتلك الدولة الكبيرة صفحات بيضاء في سجل الحضارة، و سطور من ذهب في تاريخ العلم، و عند ما عصفت رياح الأنانية، و الحسد، و حب السيطرة، و الاستهتار، و الجنون، و تولّى أشباه الرجال مقاليد الحكم و المسؤوليات فيها، و عند ما أفسح المجال للعناصر الغريبة الدخيلة للدخول إلى حرم الدولة و التحكم بمقدراتها ... زالت هذه الدولة، و لم يبق لها أى أثر، إلّا دويلات صغيرة انبثقت منها، و لكنها لم تستمر طويلا ... و إن أبلغ ما قيل عن الفاطميين ما ذكرته دائرة المعارف الإسلامية بقولها:

كانت مملكة الفاطميين تمتد من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى داخلية تركستان، و هي عبارة عن كل القسم الغربي من آسيا ... أى من حدود خراسان إلى جبال بلاد الشام، و من بحر قزوين إلى الشواطىء الجنوبية من البحر المتوسط ... ناهيك عن الأجزاء الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

النشاط الثقافي في العهد الأخير

تتأثر الحركة الأدبية، و النشاط الفكرى عادة، و فى أية دولة بالأوضاع السياسية العامة التي تحياها هذه الدولة، و فى العهد الأخير للدولة الفاطمية طرأ على النشاط الأدبى ما طرأ على الأوضاع السياسية من ضعف و انهيار، و ذلك نتيجة للحالة الشاذة التي سادت البلاد

##PAGE=21##

المصرية خاصة بعد وفاة الخليفة الفاطمى الثامن الإمام المستنصر بالله . فكانت الأحداث، و الفتن، و الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد الفاطمية فى الداخل و الخارج، و ما رافقها من وهن، و يأس، و انسلاخ الأقطار القريبة و البعيدة عن جسم الدولة، عاملا أساسيا فى إصابة الحركة الأدبية بالشلل . فالأدب لا يزدهر إلّا عند ما توجد الحرية، و الأمن، و الاستقرار، و السلام.

إن مكتبة القصر الخلافي، و هى أعظم مكتبة فى ذلك العصر، تعرضت أكثر من مرة للسرقة و العبث، و التخريب، و تأكد أن الوزير «محمد بن جعفر المغربي» أخذ من هذه المكتبة ما حمولته خمسة و عشرون جملا من الكتب النادرة النفيسة ... و يجب أن لا يغرب عن البال بأن «بدرا الجمالي الأرمنى» عند ما أعاد للبلاد الفاطمية استقرارها، عادت الحياة الفكرية تأخذ دورا جديدا فيه بعض التقدم.

ففى عهد بدر الجمالى الأرمنى و ابنه الأفضلى، اخذت البلاد المصرىة تستعيد بعض نشاطاتها الفكرىة، فجدبت إليها بعض المفكرين العلماء و الشعراء و الأدباء الذين أخذوا يبعثون النشاط الفكرى بمؤلفاتهم، و بحوثهم، و قصائدهم، و كل هذا أوجد لدى أصحاب السلطة فى الدولة، و المسؤولين بعض الاطمئنان ... و اتجهت الأنظار إلى رؤىة بعض العلماء الذين برزوا فى هذا المجال ... أمثال: «محمد ابن بركات السعيدى المصرى» تلميذ «القضاعى» الذى تناول موضوع الخطط من بعده فى كتابه «خطط مصر»، كما آلف فى علم اللغة كتابا أهده للأفضل الجمالى و اسمه: «كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من منسوخ و ناسخ» و لهذا العالم تصانيف أخرى فى النحو، و قد كانوا يطلقون عليه اسم «بحر العلوم» و ذلك لما اتصف به من اطلاع و تبخر فى العلوم.

و هناك «على بن جعفر بن على السعدى» المعروف «بابن القطاع» و هذا العالم رحل عن جزيرة صقلية سنة ٥٥٠ هـ. عند ما أوشكت على الوقوع فى أيدي الروم، و عند ما جاء إلى مصر وجد الرعاية و العطف من قبل المسؤولين، حتى أن الأفضلى كلفه بتأديب أولاده، و له عدد من المصنفات.

و فى تلك الفترة ... انتقل الشعراء من مدح الخلفاء إلى مدح الوزراء،

##PAGE=22##

حتى فرض على الشعراء المادحين أن يقرنوا اسم الوزير إلى جانب الممدوح و إلاً حلت عليهم نقمة الوزير و غضبه، و الويل للشاعر الذى يتجه بمدائحه إلى غير الوزراء . إذ أنه بذلك يتعرض للإهمال، و للضغط مهما بلغ شعره من الروعة و الجودة، و على سبيل المثال نذكر الشاعر «إسماعيل بن محمد» المعروف «بابن مكنسة» الذى وصفه «أمية بن أبى الصلت الأندلسى» بأنه الشاعر المتصوف القليل التكلف، المتفتن فى وشى جد القريض و هزله، و الضارب بسهم فى رقيقه و جزله .

و هذا الشاعر بالرغم من تفوقه لم ينل الحظوة لدى الأفضلى، لأنه لم يمدحه، و لم يطر أعماله، فحكم عليه بالموت الأدبى، إذ وضعه تحت المراقبة، و منع عنه الرزق، و سجنه فى منزله، و جمّد نشاطه، و طارده حتى ساءت أحواله، كان ذلك عند ما مدح أحد عمّال النصارى المسمى «أبو مليح» ... و هذا الرجل كان يعطف عليه و يبره.

و كتب الأدب تذكر على صفحاتها بأن أكثرية هؤلاء الوزراء كانوا يتذوقون الشعر، و يميلون إلى الأدب، و بعضهم كان يقرض الشعر، من هنا كانوا يكرمون رجال الأدب، و يعطفون عليهم، لا حبا فى الظهور و الدعاية للنفس، و نيل المدائح، بل حبا فى الأدب نفسه، و كل هذا شجع رجال الأدب و أعلامه، فوفدوا إلى مصر، و وجدوا على أرضها كل تقدير و رعاية مما كان له أثره فى عودة الحياة الأدبية إلى جزء يسير مما كانت عليه فارتفعت عتيرة الأدباء و الشعراء بروائع الشعر، و طرائف النثر، و حفلت كتبهم، و دواوينهم بكل رقيق ورائع من فنون الأدب حتى أصبحت رسائلهم و كتبهم و مقالاتهم مثالا يحتذى به .. منهم:

أبو الفتح الدمياطى، و ابن الخلال، و ابن الصيرفى، و القاضى الفاضل.

فظلّت النهضة الأدبية محافظة على وجودها، و أصبح لمصر فى عهد هؤلاء الوزراء وجود أدبى متفوق بالنسبة للعالم العربى و الإسلامى.

فالدولة الفاطمية بالرغم من فقدان الشرعية الخلافية و الإمامية ظلت متماسكة إلى حد ما بفضل جهود بعض الوزراء الأقوياء الذين أشرنا إليهم .. فحافظوا على ثروة البلاد الفكرية، و استطاعوا أن يجلبوا الأدباء إلى بلاد الكنانة، و العلماء و الشعراء و الفنانين من البلاد

##PAGE=23##

الأخرى فى حين انتاب الضعف الخلافة العباسية المناوئة فى تلك الفترة، فانقسمت إلى دويلات صغيرة و فقيرة، و هذا بعكس م صر التي أصبحت قبله كل من يسعى إلى الثروة، و بحبوحة العيش، و لكن كل هذا لم يدم طويلا، إذ جاء فى فترات متعاقبة. أمّا بالنسبة للأدب فإن جود الوزراء و عطاياهم شجّع الشعراء أيضا على إرسال مدائحهم و هم فى بلادهم، و كانت هبات الوزراء ترسل لهم و هم فى أماكنهم دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الحضور إلى مصر .. و هذا معناه أن هؤلاء الوزراء كانوا يشجعون الأدب ليس فى الديار المصرية فقط، بل فى البلاد العربية كافة.

و كان بدر الجمالى الأرمنى رغم انشغاله بالقضاء على أسباب الفتنة، و ترسيخ أقدام الدولة، و إشاعة الأمن و الاستقرار و الازدهار، لا يرد الشعراء من على بابه، كما كان جوادا يسمع المديح و يثيب عليه، و قصة الشاعر الشامى «علقمة بن عبد الرزاق العليمى» مع بدر معروفة، و قد سبق لنا أن ذكرناها، و لكن كل ذلك لم يمنع بدرا من قتل بعض الشعراء المجيدين أمثال: ابن أبى الشحناء، و على بن إسماعيل، الذى وصفه عماد الدين بقوله:

«لم يكن له نظير فى الأدب سوى ابن أبى الشحناء».

و كان الأفضل الجمالى معروفا بحبه للشعر و للشعراء، و كان له مجلس فى دار الملك كما ذكرنا مخصصا للشعراء الذين يقصدونه لإنشاد قصائدهم و تلقى الأنعام و ما يغدقه عليهم من صلوات، و يشبه الشاعر «ابن العالانى» هؤلاء بالحجيج:

و يمانه ركن البيت و النيل زمزم

فمكة مصر، و الحجيج وفوده

و لو أنه فى كل عضو له فم

و شاكر ما تولى مقر بعجزه

و ظهر منذ عهد الأفضل غرض جديد من أغراض الشعر علاوة على ما كان معروفا من قبل - كالمديح - و الرثاء - و الوصف، و ذلك هو الشعر الذى يتطرق إلى الحروب الصليبية، فقد أخذ شعراء تلك الفترة يذكرون جهاد الوزراء و حروبهم مع هؤلاء الدخلاء، و انتصارهم عليهم، و محاولة تبرير مواقفهم، و من ذلك قول أمية بن أبى الصلت الأندلسى فى قصيدة يذكر فيها خروج الأفضل الجمالى لحرب الصليبيين قال:

##PAGE=24##

جردت للدين و الأسياف مغمدة

سيفا تفلّ به الأحداث و الغير

و قمت إذا قعد الأملآك كلهم

تذب عنه و تحميه و تنتصر

و كان الشاعر أمية بن أبى الصلت قد جاء من بلاد المغرب يجذبه إلى مصر جود «الأفضل»، و يبدو أنه نال حظوة لديه بادية الأمر ... ثم غضب الأفضل عليه، و سجنه، ممّا اضطرّه بعد خروجه من السجن إلى الرحيل سنة ٥٠٦ هـ. ثم يئس من استعادة مكانته لدى الوزير، فكتب الرسالة المصرية التي هاجم فيها مصر و المصريين، و وصف ما لقيه فيها، و ما شاهده إلّا أنه ذكر كثيرا من أدباء مصر و شعرائها الذين عرفهم مثل: على بن جعفر بن البوين من «معرفة النعمان».

و يذكر أمية أن الأفضل لم يقل على أحد من الشعراء كإقباله على على، فقد أفاض عليه سحائب إحسانه، و درّ عليه إنعامه، و لقبه بأمين الملك، و أدناه، و استخلصه.

و لابن بوين فى الأفضل أشعار كثيرة و منها:

يا من تنافس فيه السمع و البصر

كما تغاير فيه الشمس و القمر

و من تحكّم فى الأرواح فاحتكمت

آلا يحكم فيها بعده بشر

و ممّن ذكرهم أمية أيضا : على بن جعفر بن الأغلب السعدى، الذى وفد إلى مصر من جزيرة «صقلية» و كان من أئمة الأدب فى عصره، و له تصانيف كثيرة منها كتاب «الدرّة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة» «صقلية»، و كتاب «لمح الملح» و يتضمن الكثير من أشعار الأندلس.

و من الشعراء الذين نعموا بجود الأفضل «مفضل بن حسن العسقلانى» و له فيه شعر جيد كقوله:

أقول و النجم مرقوم بغرته

سطرا نظرت ضوء الصريح مبتسم

أماء خديه أضحى فى زجاجته

يدير أم ملؤها فى وجنتيه دم

صيغ الصباح ضياء من مباسمه

فاستنبتت حلكا فى شعره العتم

و هناك ... «على بن إبراهيم» الملقب «باين العلاني»، و «جعفر بن الفضل» الملقب «بالمهذب» و «حسن بن الزيد الأنصاري» الذي كان من المقدمين في ديوان الإنشاء، و الذي قال عنه القاضي الفاضل: «إنه في فنه لم يسمع الدهر بمثله» و لابن الزيد في الأفضل قصائد عديدة منها:

##PAGE=25##

شرفا بمدح الأفضال المفضال

خلع الزمان على حله مفخر

و يصدق الأقوال بالأفعال

يلقى المدائح بالمنايح واهبا

و من قوله:

إلى محى المكارم بعد بعد وفاتها

لو لا وجودك في الزمان وجودك

طفنا عليه في جميع جهاتها

لم يعرف المعروف في الدنيا و لو

و من الشعراء الذين مدحوا الأفضل «مسعود الدولة النحوي»، و «الشريف محمد بن هبة الله الحسيني» الذي جاء من طرابلس، و حظي، بمنن الأفضل و أجزلها. و هناك غيرهم كثيرون أمثال:

«الدرججاوي» و «الناجي المصري» و «على بن النضر الأديب» الذي أثنى عليه أمية بن أبي الصلت بقوله:

«ذو الأدب الجهم، و العلم الواسع، و الفضل البارع، و له من سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى، و الرتبة الأولى».

على أن الشاعر المصري الذي ازدان به عصر الأفضل فهو «ظافر الحداد» الذي أكثر من مدح الأفضل و الخلفاء الفاطميين، يصفه العماد بقوله:

«ظافر بخطه من الفضل ظافر» ... يدل نظمه على أن لديه الأدب الوافر، و شعره بوجه الرقة و السلامة سافر ... و ما أكمله لو لا أن مداح المصري ...

و الله له غافر ... و حداد لو أنصف يسمي جوهريا ... و كان أهدي يروى شعره الروى للقلوب الصادية ريا».

و هناك من الشعراء من تقم على الأفضل فهجاه، و من هؤلاء «الناجي المصري» الذي يعتبر من شيوخ الأدب في عصره .. فقد قال في الأفضل:

قل لابن بدر مقال من صدقه

لا تفرض الوزارة الخلقه

إن كنت قد نلتها مراغمة

فهى على الكلب بعدكم صدقه

و تذكر كتب الأدب أن الأفضل كان شاعرا يقول الشعر الجيد ... و من شعره فى غلامه «تاج المعالى».

أقضيبي يميمس أم هو قد

و شقيق يلوح أم هو حد

أنا مثل الهلال سقما عليه

و هو كالبدر حين وافاه سعد

و يروى: أنه كان شديد الغيرة على نسائه، فقد أمر مرة بقتل جارية تطلعت إلى الطريقة فلما جىء برأسها إلى بين يديه قال:

##PAGE=26##

نظرت إليها و هى تنظر ظلها

فنزّهت نفسى عن شريك مقارب

أغار على أعطافها من ثيابها

حذارا و من مسك لها فى الذوائب

و لى غيره لو كان للبدر مثلها

لما كان يرضى باجتماع الكواكب

و كان الأفضل محبا لجمع الكتب، حتى وجد لديه بعد موته مكتبة فيها خمسمائة ألف كتاب و يروى أيضا أن أحد وراقى العراق أراد شراء كتب «أفرايم بن الزفان» الطبيب اليهودى المشهور، الذى يقال إنه كان يملك أكثر من عشرين ألف مجلد، فأمر الأفضل بشرائها، و أضافها إلى خزائن كتبه.

و بعد سقوط الدولة الفاطمية ... همدت الحركة الفكرية، و مات سوق الأدب و لعل خير وصف لهذا الحال ما قال عماد الدين الأصفهاني:

«انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، و رخص سعر الشعر، و انخفض علم العلم، و ضاق فضاء الفضل، و اتسع جاه الجهل، و انحل نظام أهل النظم، و انتشر عقد ذوى النثر، و استشعر الفاقة الشعراء، و عدم البلغة البلغاء، و عدّ الفضل فضولا، و العقل عقولا ... و طلب المهذب مذهبا فى الذهاب محبوبا، و مركبا فى النجاء مجنوبا».

عند ما قتل «الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني» وذر ابن البطائحي للآمر بأحكام الله و ذلك سنة ٥١٥ هـ. و لقب بالأجل المأمون تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين . ثم تجدد له في نعوته بعد ذلك الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين و الدنيا ثم نعت بما ينعت به الأفضل و هو السيد الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافة قضاة المسلمين، و هادي دعاة المؤمنين.

و من الجدير بالذكر أن الأمر بأحكام الله لم يستوزر أحدا بعد قتل المأمون، بل استعان ببعض المستشارين كما ذكرنا، و على رأسهم الراهب النصراني - «ابن نجاح بن قنا»، و لقب: ب الأب القديس الروحاني النفيس، أب الآباء، سيد الرؤساء، مقدم النصرانية، و سيد البطركية، و ثالث عشر الحواريين.

لقد اختلف المؤرخون في نشأة ابن البطائحي ... فذكر بعضهم بأن أباه كان من عملاء الأفضل في العراق، فمات و لم يخلف شيئا

##PAGE=27##

فتزوجت أمه، و تركته فقيرا، فاتصل بأحد معلمى البناء فى مصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبيرة .. فدخل مرة إلى دار الأفضل فرآه خفيفا، رشيقا، حسن الحركة، حلو الكلام . فأعجبه و سأل عنه فقبل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين ثم تقدم، و ارتفعت منزلته، و علت حتى صار وزيرا خلفا له. أما المؤرخ المقرئ فيدحض هذه القصة و يقول:

إنه من أعيان المشاركة، أبوه : الأمير نور الدين أبو شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبو الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبو على حسن بن تمام المستنصرى، أى أنه من بيت شغل أفراده المراكز العليا، و اتصلوا بالخلفاء، و قد مات والده سنة ٥١٢ هـ. و هو فى خدمة الأفضل. و مما يروى عنه:

أنه و هو فى سن الثانية عشرة كان فى جملة خاصة الإمام «المستنصر بالله»، و كان يرسله إلى بيت المال و خزانه الصاغة فى مهمات مختلفة فيجد لديه الثقة و الأمانة، مما جعله يقول هذا «المأمون» دون الجماعة، و منذ ذلك الوقت عرف بهذا الاسم. بعد ذلك اتصل بخدمة الأفضل و ظلّ يعاونه حتى قتل، و بعد موت الأفضل قلده الأمر بأحكام الله «الوساطة» و هى دون الوزارة، ثم أعطاه الوزارة سنة ٥١٥ هـ. فدبر الأمور و ظلّ حتى قبض عليه سنة ٥١٩ هـ.

مع أخوته الخمسة، و ثلاثين من أهله و خواصه، و قد ظلّ معتقلا حتى صدر الحكم عليه بالموت، و صلب مع أخوته سنة ٥٢٢ هـ.

و من الجدير بالذكر أنهم ذكروا سبب اعتقاله و عللوا مقتله مع أخوته بأسباب عديدة و مختلفة منها:

أنه بعث إلى «الأمير جعفر بن المستعلى» أخى «الآمر بأحكام الله» يغريه بقتل أخيه مع الوعد بإيصاله إلى سدة الخلافة ... و منها أيضا: أنه سمّ مبضعا و دفعه لفصد الخليفة الأمر بأحكام الله الذى عرف بالمؤامرة قبل تنفيذها، و هناك من يقول :

إنه كان يدعو لخلافة أحد أولاد، نزار بن المستنصر بالله» ... و قيل: إنه اتهم بتدبير مقتل الأفضل الجمالى و أولاده، و أولاد أخيه الأوحده، و المظفر و كان عددهم يقرب من المائة ذكر ما بين كبير و صغير.

و مهما يكن من أمر فإن الأمر بأحكام الله وضع ثقته التامة بالمأمون

##PAGE=28##

لدرجة أنه أنابه عنه فى خطبة شهر رمضان فى جامع القاهرة، و جامع ابن طولون، و جامع مصر، و أطلق يده فى إدارة شؤون الدولة وفق ما يراه، و بالفعل قبض بيد من حديد على الأوضاع العامة، و عرف بأنه كان من ذوى الآراء الصائبة، و المعرفة التامة بتدبير شؤون الدولة، كريما سفاكا للدماء شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس و الجند و العامة، يكره الوشاة و السعاية بين الناس فى أيام حكمه.

و من الجدير بالذكر أنه كان يصرف للمأمون البطائحي فى السنة عشرين ألف أردب قمحا و شعيرا و من الغنم برسم مطابقه ثمانية آلاف رأس، و هذا غير الحيوانات و الأحطاب، كما كان يصرف له من البخور ما بيانه فى الشهر قد مثلت بخمسة عشر مثقالا، و عود صيفى ستون درهما، و عنبر خام ستة مثاقيل، و كافور ثمانية دراهم، و مئة ورد، و خمسة عشر رطلا . أما راتبه الشهرى من بيت المال فهو ثلاثة آلاف دينار.

و عند ما قبض الآمر بأحكام الله عليه سنة ٥١٩ هـ. وجد لديه سبعين سرجا بالذهب الخالص و مائتا صندوق مملوءة بالكسوة، و وجد لدى أخيه «المؤمن» أربعين سرجا محلى بالذهب، و ثلاثمائة صندوق كسوة عديدة، و مائتا سلء ما بين بلور محكم و صينى لا يقدر ثمنها، و مائة برنية مملوءة كافورا و مائة سفظ مملوءة عودا، و من ملابس النساء ما لا يحد، و قد حمل كل هذا إلى القصر.

سكن المأمون دارا سميت بالدار المأمونية، و كان فى مجال البناء و العمران من أنشط الوزراء و أكثرهم اهتماما، فقد أقام العديد من المساجد و المشاهد و المناظر، و اختط طريقة عملية فى إعادة بناء ما تخرّب من مصر و القاهرة خلال الشدة العظمى، و أمر بالنداء فى القاهرة و مصر لمدة ثلاثة أيام، بأن كل من له دار خربة أو أرض فضاء فعليه أن يعمرها، أو يؤجرها لمن يعمرها، و من تأخر عن ذلك فلا حق له فيها، و أباح للناس تعمير كل أرض فضاء سواء الأراضى التى عجز عنها أصحابها أو الأراضى الداخلة فى أملاك الدولة.

و من أجل المنشآت المعمارية التى بقيت من عهد المأمون الجامع «الأقمر» الذى بناه الأمر بأحكام الله تحت إشرافه، و يعد من مفاخر العمارة الفاطمية، و يمتاز بأنه من المساجد المعلقة، إذ بنى تحته

##PAGE=29##

حوانيت، و واجهته الغربية أول واجهة من الحجر، و تشتمل على مقرنصات و عقود محفصة، و تحفل بالنقوش و الكتابة الكوفية، و الظاهرة الثانية فى هذا المسجد هى المحراب المقوس.

وكان المأمون يجلس للمظالم يومى الاثنين و الخميس من كل اسبوع، و لتحقيق العدالة كتب لجم يع الولاة بمطالعه فى مستهل كل شهر بأسماء المسجونين، و السبب الذى أوجب اعتقالهم، و قد فعل ذلك بعد أن ثبت لديه بأن بعض الولاة يتصرفون تصرفات شاذة و يعتدون على الكثير من الناس الأبرياء.

لقد ابتكر ما لم يسبقه إليه أحد، و هو «ميقاط» حرير أى «حبل» فيه ثلاثة جلاجل، و فتح طاقة فى الروش من سور داره، و صار إذا مضى شطر الليل، و انقطع المشى طرحت السلسلة و دلى الميقاط من الطاق، و جماعة من المغاربة يبيتون تحته، فمن حضر من الرجال و النساء متظلما يشد رقعة فى الميقاط بيده، و يحركه بعد أن يقف من حضر على مضمون الرقعة، فإن كانت شكوى لم يمكنه من رفعها، و إن كانت ظلامه مكنوه من ذلك، و تأخر صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

و كان القصد من ذلك أن من أصابه ضرر من أهل الستر، أو كانت امرأة من غير ذات البروز لا تحب أن تظهر فى الليل، و تتعجل مضرتها قبل النهار، فلتأت لهذا الميقاط.

كان المأمون يخشى الجيش «الأرمنى» الذى نظمه و خلفه الأفضل الجمالى، كما كان يخشى أن يثور عليه هذا الجيش . فأنشأ فرقة خاصة جعلها حرسا له سماها «المصامدة» لأن قائدها كان يسمى «عبد الله المصمودى» و هذه الفرقة ألحقت بالجيش الفاطمى، و أصبحت جزءا منه، و كان لها حارة فى القاهرة عرفت بحارة «المصامدة» و قد ذكر أن أفرادها من البربر الذين وفدوا إلى مصر مع الخليفة الإمام المعز لدين الله.

و فى عهد الأمر بأحكام الله أى سنة ٥١٧ هـ. و فد على الوزير المأمون رسول طغتكين صاحب دمشق، «واق سنقره» صاحب حلب للاجتماع و الاتفاق على حرب الصليبيين. فبادر المأمون و جهز جيشا بريا جعل على رأسه «حسام الملك الترسي» و أتبعه بأسطول حربى مؤلف من أربعين قطعة، و توجه الجيش و الأسطول إلى «عسقلان».

##PAGE=30##

و لكن هذه الحملة باءت بالفشل، و اضطرّ المأمون سنة ٥١٧ هـ. إلى تسليم مدينة صور إلى طغتكين صاحب دمشق لعدم استطاعة الدولة الفاطمية الدفاع عنها ضد هجمات الصليبيين.

بعد اغتيال الوزير المأمون تفرغ الأمر بأحكام الله لشؤون الدولة، و استغنى عن الوزارة نهائيا، غير أنه استخدم ما يسمّى بالمستشارين و أهمهم:

«جعفر بن عبد المنعم» و آخر سامرى اسمه «أبو يعقوب إبراهيم» و كان إلى جانبيهما راهب نصرانى اسمه «ابن نجاح» تحكّم فى الناس، و تمكّن من فرض سيطرته على الدواوين، و عيّن النصرارى فى الوظائف العليا، و حقق مطالبهم، و ذهب إلى أبعد من ذلك بأن أخذ يصادر الأموال غير المشروعة فحذا حذوه المباشرون، و المتعاملون، و الضمنا، و العمال. و لما تفاقم أمره قبض عليه الأمر، و حاكمه و عند ما ثبتت عليه التهم ظلّ يضرب بالنعال حتى مات، ثم جرّ إلى كرسى الجسر، و سمر على لوح و طرح فى النيل.

توفى الأمر بأحكام الله يوم الثلاثاء ١٤ ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ.

و ذلك عند ما وثب عليه جماعة من المسلمين و قتلوه، و قيل إنهم من «النزارية».

##PAGE=31##

الآمر بأحكام الله

كان الأمر بأحكام الله كريما سمحا كثير النزهة، مغرما بجمع الأموال و الزينة، و كانت أيامه كلها لهوا و عيشة رضية لكثرة عطائه، و عطاء حاشيته بحيث لم يوجد في مصر من يشكو زمانه البتة. إلا أن أعمال الراهب «ابن نجاج» و ما بدر منه من أعمال سيئة قبحت سيرته لدى الناس، و ذهبت بمحبتهم.

كان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، و يروى تاريخ العرب و الشعر، و قد اشتهر بأنه جدّد رسوم الدولة، و أعاد إليها بهجتها بعد ما كان الأفضل قد أبطل ذلك، و نقل الدواوين، و الأسمطة من القصر إلى دار الملك في مصر.

و كان يركب للنزهة دائما و خاصة يومى السبت و الثلاثاء، و يتجول في أيام النيل بحرمة إلى «اللؤلؤة» على الخليج، و هو من قصور الفاطميين المشهورة.

في أواخر عهده وقع غلاء أقلق الناس. و في ذلك الوقت امتلك الصليبيون عددا من المعاقل و الحصون في سواحل الشام، و منه عكا سنة ٤٩٧ هـ، و عرقة سنة ٥٠٢ هـ. و طرابلس الشام- و بانياس- و جبيل- و قلعة تبنين سنة ٥١١ هـ .. و تسلموا صور أيضا سنة ٥١٨ هـ.

و مهما يكن من أمر ... فإن الأمر بأحكام الله، عمر الهودج بالروضة، و الدكة ببركة الحبش، و تنيس، و دمياط، كما جدّد قصر «القرافة» و بنى على المنطرة التي يقال لها : بئر دكة «الخركاة» منظره من خشب فيها طاقات مدهونة تشرف على خضرة «بركة الحبش» سجل فيها أسماء الشعراء و أسماء بلدانهم و وضع صورهم و طلب من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح، و كتب ذلك عند رأس كل شاعر، و بجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهب . فلما دخل الأمر بأحكام الله، و قرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، و أن يدخل كل شاعر و يأخذ صرته بيده ... ففعلوا ذلك، و أخذوا صررهم و كانوا شعراء عدّة.

##PAGE=32##

إن مثل هذه المظاهر، و هذا التكريم للشعراء يعود إلى أن الأمر بأحكام الله كان شاعرا مجيدا و قيل إن له ديوانا ضاع مع التراث الفاطمي أيام صلاح الدين الأيوبي. و من الأشعار التي تنسب إليه:

فلا بدّ لي من صدمة المتحقق

دع اللوم عنى لست منى بموثق

و أجمع شمل الدين بعد التفرق

و أسقى جيادى من فرات و دجلة

و ينسب إليه أيضا:

أما و الذى حجّت إلى ركن بيته
لأقتحمن الحرب حتى يقال لى
و ينزل روح الله عيسى بن مريم
جراثيم ركبان مقلدّة شهباً
ملكّت زمام الحرب فاعتزل الحرباً
فيرضى بنا صحبا و نرضى به صحبا

مات الآمر بأحكام الله اغتيالاً كما ذكرنا، و بعد موته ذكر أتباعه أن امرأته كانت حاملاً، و أنها بعد حين أنجبت طفلاً سموه «الطيب» و لكن هذا الطفل ما كاد يبصر النور حتى دخل كهف الستر، على أن يعود للظهور عند ما يحين الوقت ... هذا ما تقوله «المستعلية»، البهرة.

بعد الأمر بأحكام الله، تسلم شؤون الدولة الفاطمية «الحافظ» و هو من الأسرة الفاطمية و لكنه ليس من نسل الأئمة الخلفاء، و كانت مهمته «الوصاية» على الطفل الغائب «الطيب»، و بعد الحافظ، جاء الظافر، ثم الفائز و أخيراً «العاضد» الذى تم، فى عهده استيلاء وزيره «صلاح الدين الأيوبي» على الدولة الفاطمية و ربط البلاد المصرية بالدولة العباسية.

«الوصى الأول» - الحافظ -

اسمه: عبد المجيد. والده: محمد. لقبه: الحافظ لدين الله. كنيته: أبو الميمون. ولد بعسقلان سنة ٤٦٧ هـ. و ذلك لما أخرج الخليفة الإمام المستنصر بالله ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده فى أيا م الشدة الكبرى، و لهذا كان يقال له فى عهد الأمر بأحكام الله: الأمير عبد المجيد العسقلانى - ابن عم مولانا.

مدة حكمه: ثمانية عشر سنة، و أربعة أشهر، و تسعة عشر يوماً، و مات عن عمر يناهز السابعة و السبعين عاماً أى سنة ٥٤٤ هـ.

فى عهده وقعت حوادث عنيفة و شدائد. كان حازماً، و سياسياً لينا

##PAGE=33##

كثير المداراة - عارفاً بالأمر - جماعاً للمال، مغرماً بعلم النجوم، يغلب عليه الحلم، و قد أجمعت المصادر التاريخية على القول: إنه لما قتل الخليفة الأمر بأحكام الله، أقام «بزغش» و «هزار الملوك» الأمير عبد المجيد فى قصر الخلافة و لقباه «بالحافظ لدين الله»، و الكفيل للخليفة - و للإمام المنتظر من زوجة الأمر بأحكام الله، و قد تسلم هزار الملوك الوزارة ثمناً لذلك، و لكن الجيش ثار عليه و أقام «أحمد بن الأفضل الجمالى» المشهور «بكتيفات» لأن ذلك الجيش بالرغم من مضى عشرة أعوام على وفاة الأ فضل، ظل على ولائه لآل بدر الجمالى، و فى ذلك الوقت اجتمع فى ساحة ما بين القصرين خمسة آلاف فارس و راجل على رأسهم «رضوان بن ولخشى» فنادوا «بأحمد بن الأفضل» و قالوا: هذا هو الوزير ابن الوزير، ثم قتلوا «هزار الملوك» و نهبوا أحد شوارع القاهرة الرئيسية.

و بعد أن تسلّم «أحمد بن الأفضل» شؤون الوزارة سنة ٥٢٥ هـ. قبض على «الحافظ» و سجنه مقيدا، و أخذ بالتفتيش على الطفل «الطيب» و كان يريد قتله، و لكنه اقتنع أخيرا بأنه غير موجود و لم يولد بعد. و من الجدير بالذكر أنه ألغى الكثير من الشعائر الدينية الفاطمية، و استعاض عنها بالدعاء «للقاتم المنتظر»، و لكن عهده لم يطل أكثر من عام، لأن «يانس» تمكن من قتله سنة ٥٢٦ هـ، و بعد أن نجح بذلك أخرج الحافظ من سجنه، و أعاده إلى القصر.

بعد خروج الحافظ من السجن كان أول عمل قام به هو : أخذ البيعة لنفسه على أنه الخليفة الشرعي، و إمام الزمان. و قد سبب ذلك حدوث انشقاق في الفرقة المستعلية فانقسمت إلى فرقتين : الحافظية: و هي التي أيدته و سارت في ركابه، و الطيبية، و هي التي اعتبرته مغتصب حق الطيب . و في غمرة هذا الصراع خرجت بلاد اليمن عن طاعة الحافظ، و كانت «أروى الصليحي» هي القائمة بأمر الملك، فرفضت الاعتراف بالوضع القائم في مصر، و أعلنت إلى المقربين منها عن عطفها و ميلها إلى النزارية.

بعد مقتل «أحمد بن الأفضل - كتيفات» استوزر الحافظ «يانسا» صاحب الباب، و لكن مدته لم تطل، فهلك بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة.

##PAGE=34##

فلم يستوزر الحافظ أحدا بعده، بل تولى الأمر بنفسه حتى سنة ٥٢٨ هـ. ثم إنه أقام ابنه «سليمان» مقام وزير، و لكن أيامه كانت قصيرة طالت شهرين، و بعد ذلك عين ولده الثاني «حيدرة» مكانه، و لكن ابنه الثالث حنق عليه، فثارت بينهما الفتنة، و قتل حيدرة الحسن، و بعد هذا الوضع الشاذ ثار «بهرام» الأرمني فاستولى على الوزارة بالقوة سنة ٥٢٩ هـ. و كان نصرانيا، و في عهده كثر الضرر على المسلمين، و ارتفعت الأصوات بالشكوى من أعماله، فقام «رضوان بن ولخشي» و كان يتولى «الغربية» فجمع الناس لحرب بهرام، و سار إلى القاهرة و باشر قتاله، و في الجولة الأولى فر بهرام من الم عركة، و عندئذ دخل رضوان القاهرة، و استولى على الوزارة سنة ٥٣١ هـ. و هنا كان لا بد له من إيقاع الأذى و الذل بالنصارى، و خاصة بالأرمن، كما طمحت نفسه إلى حد الإطاحة بالحافظ، فكثيرا ما كان يقول عنه: «ما هو بخليفة و لا إمام» ... إنه كفيل لطفل لم يولد بعد، و هذا لا يصح، فصبر عليه الحافظ إلى أن تمكن من هزيمته و إسقاطه . فخرج إلى الشام ثم عاد سنة ٥٣٤ هـ. و لكن الحافظ جهز جيشا و أرسله لمحاربتة . فانهزم إلى الصعيد بعد عدة معارك، و أخيرا قبض عليه و اعتقله . و في ٥٤٢ هـ. خرج رضوان من معتقله بالقصر من ثقب، و ثار على رأس جماع مؤيدة له، و لكن الحافظ تمكن من قتله أخيرا.

ذكر المؤرخ المقرئ: بأنه لما مات الوزير «يانس» تولى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحدا و أحسن السيرة، ثم إنه عهد إلى ولده «سليمان» و كان أكبر أولاده، و أحبهم إليه . فأقامه مقام الوزير، و لكنه مات بعد شهرين، فجعل مكانه أخاه «حيدرة» في الوزارة، و نصبه للنظر في المظالم، فشق ذلك على أخيه «الحسن» و كان كثير المال، متسع الحال، له قرى عديدة، و مواش و حاشية، و ديوان مفرد - فسعى في نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفتين «الجوشية» و «الريحانية» فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين و قتل منهما ما يزيد على الخمسة آلاف نفس، فكانت هذه الواقعة أول مصائب الدولة الفاطمية في جيشها، و نقص عساكرها.

و استظهر «حسن» وقام بالأمر، و انضم إليه أوباش الناس، ففرق فيهم الزرد و سماهم صبيان الزرد، و جعلهم خاصته، فاحتفوا به،

و صاروا لا يفارقونه، فإن ركب أحاطوا به، و إن نزل لازموا داره، فقامت قيامة الناس منهم، و شرع فى تتبع الأكابر، فقبض على «ابن العساف» و قتله، و قصد أباه الحافظ، و ابنه حيدرة بالضرر حتى أنهما خافا منه و تغيبا، ثم إنه جد فى طلب أخيه حيدرة، و هتك بأوباشه الذين اخ تارهم حرمة القصر . و خرق ناموسه، و سلطهم يفتشون القصر فى طلب الحافظ و ابنه حيدرة، و اشتد بأسهم، و حسنوا له كل رذيلة، و شجّعوه على الأذى، فلم يجد الحافظ بدا من مداراته، و تلافى أمره، فكتب سجلا بولايته للعهد و أرسله إليه، فقرأ على الناس و لكن كل هذا لم يزده إلا جرأه على أبيه، و هنا أرسل الحافظ «ابن إسعاف» إلى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من فرقة «الريحانية» فمضى و استصرخ الناس لنصرة الحافظ على ولده، و جمع أمما لا تحصى و سار بهم للقاء «الحسن» الذى زج بقواته فى المعركة فكانت من أشد المعارك سوءا على جيش ابن إسعاف الذى انهزم، و عندئذ ركب جيش حسن فى أثره فلم ينج منه إلا القليل، و أخذ ابن إسعاف أسيرا فحمل إلى القاهرة على جمل، و على رأسه طرطورا من اللباد الأحمر . فلما وصل إلى ما بين القصرين رشق بالنشاب و مازال حتى هلك ورمى بعد ذلك فى القصر الغربى، و قتل «الأمير شرف الدين» فاشتد ذلك على الحافظ، و خاف على نفسه فكتب ورقة إلى الحسن يقول فيها:

يا ولدى، أنت على كل حال ولدى و لو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه، و لا يحملنى قلبى و قد انتهى الأمر إلى أن أمراء الدولة و هم فلان و فلان و قد شددت و طأتك عليهم و خافوك، و هم معولون على قتلك فخذ حذرك يا ولدى».

فعند ما وقف حسن على الورقة، غضب و لم يتأن، و بعث إلى أولئك الأمراء فلما صاروا إليه أمر صبيان الزرد بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم، و كانوا عدة من أعيان الأمراء، و أحاط بدورهم و أخذ سائر ما فيها، فاشتدت المصيبة، و عظمت الرزية، و تخوفه من بقى من الجند، و نفروا منه لأنه كان جريئا مفسدا شديد الفحص عن أموال الناس، و الاستقصاء عن أخبارهم .. يريد إقلاب الدولة و تغييرها ليقدم أوباشه . لقد آذى الناس وزجهم فى السجون و قتل القاضى «أبا الثريا نجم» لأنه كان من خواص أبيه، كما قتل جماعة من الأعيان، و رد

القضاء «لابن ميسر»، و تفاقم أمره، و عظم خطبه، و اشتدت الوحشة بينه و بين الأمراء و الأجناد، و هموا بخلع الحافظ و محاربة ابنه الحسن و صاروا يدا واحدة، و اجتمعوا بين القصرين و هم عشرة آلاف ما بين فارس و راجل، و ساروا إلى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه الحسن، و يطلبون منه أن يعزله من ولاية العهد . أما الحسن فعجز عن مقاومتهم عند ما لم يبق معه إلا القليل من جيشه، و هنا تحير و خاف على نفسه فالتجأ إلى القصر، و صار إلى أبيه الحافظ، حيث تمكن منه و قبض عليه و قيده و بعث إلى الأمراء يخبرهم بذلك، فأجمعوا على قتله .. فرد عليهم الحافظ أنه قد صرفه عنهم و لا يمكنه أبدا التصرف بغير هذا و وعدهم بالزيادة فى الأرزاق و الإقطاعات، على أن يكفوا عن طلب قتله، و لكنهم ألحوا و قالوا: أما نحن و أما هو ... و اشتد طلبهم إياه حتى أحضروا الحطب قصد إحراق القصر، و بالغوا فى التحرى على الخليفة، و أخيرا لم يجد بدا من إجابتهم إلى قتله، و سألهم أن يمهلهو ثلاثا، فأناخوا بين القصرين، و أقاموا على حالهم حتى تنقضى الثلاث، فما وسع الحافظ إلا أن استدعى طبيبه و هما : «أبو منصور اليهودى» و «ابن قرفة النصرانى» فبدأ بأبى منصور و فواضه فى عمل سقية قاتلة، فامتنع من ذلك و أقسم بالتوراة أنه لا يعرف عمل شىء من ذلك فتركه . أما

ابن قرفة فعندما كلفه بذلك قال : الساعة و لا يتقطع منها جسده، بل تفيض النفس لا غير، فأحضر السقية من يومه و بعثها إلى الحسن مع عدة من ال صقالبة، و مازالوا يكرهونه على شربها حتى فعل، و كان موته سنة ٥٢٩ هـ. و بعد ذلك بعث الحافظ إلى القوم سرا يقول:

«قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم» فقالوا:

لا بد أن يشاهده منا من نتق به، و ندبوا منهم أميراً معروفاً بالشر و الجراءة يقال له «المعظم جلال الدين محمد» فدخل إلى القصر، و صار إلى جنب الحسن، و كان مسجى بثوب، فكشف عن وجهه، و أخرج من وسطه آلة من حديد، و غرزه بها في مواضع عدة من بدنه إلى ان تيقن من موته .. فعاد إلى القوم، و أخبرهم فتنفروا.

وزراء الحافظ

هزار الملوك جوامرد:

أقام لمدة نصف يوم في ١٤ من ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ. و يقول المقرئ:

##PAGE=37##

«إن الحافظ لدين الله جلس يوم مقتل الأمر بأحكام الله كفيلاً لطفل «منتظر» و تقرر أن يكون «هزار الملوك جوامرد» وزيراً، و أن يكون الأمير «السعيد ياغى» متولى الباب «اسفهلار» و قرىء سجل بهذا الخصوص في الإيوان، و كان الحافظ في الشباك جالساً، و قد تولى قراءته قاضى القضاء «ابن ميسر» على كرسى نصب له أمام الحافظ، بحضور أرباب الدولة، و خلع على هزار الملوك خلع الوزارة، و لكن الجند المجتمعين بين القصرين أبوا ذلك، و طالبوا بتولية «أحمد بن الأفضل الجمالى» الملقب «بكتيفات»، و لم تهدأ ثورتهم حتى قتل «هزار الملوك» و ألقى رأسه إلى الجند، و استدعى بالخلع لأحمد بن الأفضل، فأقيضت عليه في يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي القعدة، و ركب إلى دار الوزارة و الجماعة مشاءً في ركابه، فكانت وزارة «هزار الملوك» نصف يوم بغير تصرف، و وقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، و نهبت القيسارية، و كان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخازنهم، فكان هذا أول حادث حدث في القاهرة من النهب و الطمع، و طيف برأس هزار الملوك على رمح.

كان هزار الملوك من كبار غلمان الأمر بأحكام الله، و قد اصطفاه لنفسه، و رد له المظالم و النظر في أحوال الجند، و هذا نوع من الوزارة. و يزيد المقرئ على قوله:

بأن الأمر بأحكام الله وهب مرة لغلامه هزار الملوك جوامرد ثمانين ألف دينار، و كان قد أعطى غلامه الآخر المسمى «بزغش» مثل هذا المبلغ، و كانا أخص غلمانهم، و أقربهم منه، و أشرفهم عنده منزلة، و كانا اسمح خلق الله، و كان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر، فإن هزار الملوك كانت صدقته في كل يوم راتباً قدره بالقرافة بأربعة آلاف درهم في ألف كاغدة على يد الثقة «ابن الصعدي» و «غزال الوكيل»، و كانت عطايه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً، و ذلك عند ركوبه إلى القصر و عودته منه خوفاً من أن يقف أحد له و يطلب منه.

أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي «كتيفات»

تولى الوزارة في ١٥ ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ. حتى ١٦ محرم سنة ٥٢٦ هـ ... وقد مرّ معنا أن أحمد هو الوحيد الذي بقي حيا من أولاد الأفضل، و أولاد اخوته، و أن الجيش هو الذي أرغم الحافظ على إسناد الوزارة إليه، و ما أن استقر «كتيفات» في الحكم حتى قبض على الحافظ و سجنه، و أعلن الدعوة للإمام المنتظر، كما أبطل الكثير من قوانين الإسماعيلية و طقوسها «المستعلية» الدينية، و قد كان على أهبة القضاء على كل ما

##PAGE=38##

يسمى إسماعيليا لو لا أن يقتل أخيرا، و بعد مقتله خرج الحافظ من سجنه، و أعيد إلى القصر.

يانس الأرمنى:

من ١٦ محرم سنة ٥٢٦ هـ. حتى ٢٦ من ذى الحجة من هذا العام.

يقول المقرئى:

لما قتل «كتيفات» بدر صبيان الخاص الذين تولوا قتله إلى القصر، و دخلوا و معهم «الأمير يانس» متولى الباب إلى الخزانة التى فيها الحافظ، و أخرجوه إلى الشباك، و أجلسوه فى منصب الخلافة و قالوا: و الله ما حركنا على هذا إلا الأمير يانس، فجازاه الحافظ بأن فوض إليه شؤون الوزارة فى الحال، و خلع عليه، فباشرها مباشرة جيدة.

و كان يانس هذا مولى أرمينيا لباديس جد عباس الوزير، فأهداه إلى الأفضل بن بدر الجمالى، و ترقى فى خدمته، ثم ولى الباب، و هذه أعظم وظائف الأمراء . و كنى بأبى الفتح و لقب بالأمير السعيد، و كان عظيم الهمة، بعيد الغور، شديد الهيبه، فهدأت الدهماء، و صلحت الأحوال، و استقرت الخلافة للحافظ، إلا أن علاقته أخيرا ساءت بالحافظ فدبر مامرة، و قتله بالسم، و لما توفى يانس، تولى الحافظ شؤون الوزارة بنفسه، و أخيرا أقام ولده الأكبر سليمان وليا للعهد، و جعله فى مقام الوزير، و ذلك ليستريح من مقاساة الوزراء و مضايقاتهم فى أوامره، و نواهيه، و هكذا ظل الحافظ دون وزراء حتى جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ.

بهرام الأرمنى:

من ١١-١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ. حتى ١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ. أرمنى الجنسية، نصرانى الدين من «تل باشر» ... و يذكر ابن ميسر:

«أن سبب حضوره إلى مصر .. هو أن القائم بأمر الأرمين مات، و كان بهرام أحق بمكانه ممن ولى بعده، فتعصبت عليه جماعة من الأرمين، و رفضوه، و ولوا عليهم غيره، فخرج من تل باشر مغاضبا و قدم إلى القاهرة، و التحق بخدمة الدولة . و كان بهرام عاقلا مقداما فى الحرب حسن السياسة، جيد التدبير، فترقى فى الخدمة حتى ولى المحلة فق ام بولايتها حتى خرج إلى القاهرة بعد قتل حسن، و تولى الوزارة».

تقدم بهرام بعد قتل حسن بن الحافظ، فمسكه الأجناد بظاهر

##PAGE=39##

القاهرة و أدخلوه على الحافظ يوم الخميس بعد العصر فى الحادى عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة . فخلع عليه يوم الأحد فى الرابع عشر من الشهر المذكور، ثم خلع عليه ثانيا يوم الخميس فى الثامن عشر من الشهر المذكور أيضا و سمّاه «سيف الإسلام» و «تاج الخلافة» ... فشقّ ذلك على الناس، و تناول النصارى فى أيامه على المسلمين، و كان هو قد أحسن السيرة، و ساس الرعية، و أدّى الطاعة للحافظ، و أنفق على الجند الأموال الطائلة فاستقامت له الأحوال، و راسله الملوك، و زال كل ما كان فى البلاد من الفتن، و لم ينكر عليه سوى أنه كان نصرانيا.

ظل بهرام فى الوزارة حتى طرده منها «رضوان بن الولخشى» الذى حلّ مكانه أخيرا.

مات فى ٢٠ ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ. فحزن عليه الحافظ، و أمر بإغلاق دوائر الدولة ثلاثة أيام.

رضوان بن الولخشى:

من ١١ - ١٣ جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ حتى ١٤ من شوال سنة ٥٣٣ هـ.

لمّا خرج بهرام من القاهرة، دخل، رضوان إليها، فوقف بين القصرين، و استأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة، فنزلها و خلع على خلع الوزارة.

ويروى: أن بهرام خرج من القاهرة يوم الأربعاء وقت العصر فى الحادى عشر من جمادى الأولى، و أن رضوان نزل دار الوزارة بعد خروج بهرام و خلعت عليه الوزارة يوم الجمعة الثالث عشر من جمادى الأولى، و نعت بالسيد الأجل و الملك الأفضل، فطلب الأموال من الخليفة، و أنفق فى الجند، و مهّد الأمر و كان رضوان أول وزير يلقب بالملك.

ولد ليلة عيد الغدير فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ، و التحق بخدمة الدولة، و ترقى فى الخدمة حتى أصبح أحد الأمراء المميزين فى خلافة الأمر بأحكام الله.

امتاز بالشجاعة و الإقدام، و هو الذى قاد الثورة ضد تولية «هزار الملوك» الوزارة، و طالب بتوزير «أحمد بن الأفضل» ثم ولى «قوص» و «أخميم» سنة ٥٢٨ هـ. و أصبح صاحب الباب سنة ٥٢٩ هـ. و هى

##PAGE=40##

رتبة تلى رتبة الوزارة، و لكن بهرام خشى وجوده بالقاهرة، فولّاه «عسقلان» فى رجب سنة ٥٢٩ هـ، ثم اضطرّ لاستدعائه مرة اخرى للقاهرة لوقوفه فى وجه الأرمن الذين يقطنون مصر، ثم ولّاه الغريبة فى صفر سنة ٥٣٠ هـ. و ظلّ فيها حتى خرج على رأس قواته فطرد بهرام، و تولّى الوزارة.

و استطاع الحافظ أن يثير أحد كبار الأمراء ضد رضوان و هو «على ابن السلار» فتمكن هذا من إثارة الجند ضده، و قامت الفتننة يوم الاثنين فى الثالث عشر من شوال سنة ٥٣٤ هـ. و اضطرّ رضوان إلى الهرب إلى عسقلان فدخلها و جعلها معقله، و توجه أخوه الأوحى إبراهيم إلى الحجاز و أقام بها حتى مات، و سار ابن أخيه الذى كان واليا على مصر إلى بغداد فأكرمه أصحاب الحافظ هناك، و لم يزل عندهم حتى مات، ثم خرج رضوان من عسقلان إلى صلخد حيث نزل على أمين الدولة «كمشتكين» الذى أبرّه و أكرمه.

و عاد رضوان فى صفر سنة ٥٣٤ هـ فى قوة من ألف فارس، و لكن الحافظ تمكن من القبض عليه يوم الاثنين فى ٤ من ربيع الآخر من السنة المذكورة، و اعتقله قريبا من الدار التى فيها بهرام، و ظلّ معتقلا حتى استطاع الهرب من نقب نقبه و ذلك فى ٢٣ من ذى القعدة سنة ٥٤٢ هـ. و قد تجمّع حوله عدد من الأجناد و عرب «لواته» فتمكن من دخول القاهرة و نزل بالجامع الأقمر يوم الجمعة ٢٦ من ذى القعدة، و لكن بعض جنود السودان استطاعوا قتله بع د أن أجزل لهم الحافظ العطاء فى ذلك اليوم.

نجم الدين سليم بن مصال اللكى:

تولّى الوزارة من سنة ٥٣٤ هـ.

حتى سنة ٥٤٢ هـ. و ذكر أنه تولّاها مرتين : المرة الأولى فى خلافة الحافظ سنة ٥٣٤ هـ. و يذكر المؤرخون حوادث تلك السنة بقولهم:

و فيها ولّى الحافظ «الأمير نجم الدين سليم بن مصال اللكى» شؤون الدولة، و يبدو أن ذلك بعد أن قبض على «رضوان بن الولخسى» فى ربيع الآخر، و قد ظلّ ابن مصال يدبر الأمور حتى سنة ٥٣٢ هـ على الأقل.

و يذكر المقرئى حوادث تلك السنة كالتالى:

«و فيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر، و ذلك أن الحافظ اعتقله فى

##PAGE=41##

القصر و أرسل يسأله عن أشياء من جملتها زيارة «نجم الدين بن مصال» له و تردده عليه فأجابه إلى ذلك بالنظر لثقتته بابن مصال، و حضر ابن مصال فى يوم من الأيام لخدمة الخليفة، و بدأ بزيارة رضوان فدخل إليه و معه مشدة فيها رقاع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ، و كانت عادته ذلك، فاحتاج إلى الخلاء ممّا جعله يترك مشدته عند رضوان، و عند ما دخل الخلاء، أخذ رضوان الرقاع، و وقع عليها بخطه كل بما يسوغ التوقيع به، و أتربها و طواها فى المشدة، و خرج ابن مصال فأخذها و دخل على الحافظ، و قد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا؟ فقال: على غاية التذکر لنعمة مولانا و جواره، و أخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة، فوجد عليها التوقيع بخط رضوان، فأمسكها و أخرج غيرها فإذا هى موقع عليها توقيع رضوان أيضا ... فقال له الحافظ:

يا نجم الدين ما زلت مباركا علينا، و الله يشكر لك ذلك لقد فرجت عنا، غمة. فقال: و كيف يا مولانا؟ فقال:

رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا . فالحمد لله إذا كان هذا . و كتب على الرقاع و أمضاها بخطه، و خلع على ابن مصال.

يتضح من كل هذا أن ابن مصال كان يدبر الأمور و يقوم بع مل الوزراء . و لكن المقرزي، و ابن ميسر يعودان فيذكران : أن الحافظ لم يستوزر أحدا بعد أن قبض على رضوان، و إنما أقام كتابا على سنة الوزراء أرباب العمائم، و لم يسم أحدا منهم وزيرا و هم : محمد ابن الأنصاري، و هذا تصرف تصرف الوزراء، و سعد المنبر مع الحافظ في الجمع و الأعياد، و القاضي الموفق بن محمد بن معصوم التنيسي، و أبو الكرم الأخرم النصراني . و يرجح أن الحافظ صرف ابن مصال بعد القضاء على رضوان و قتله، و استعان بالكتاب السابق ذكرهم، و على هذا يمكن تحديد وزارة ابن مصال الأولى من سنة ٥٣٤ هـ حتى سنة ٥٤٢ هـ و لم يكن فيها وزير سيف و ظلت الدولة دون وزراء من سنة ٥٤٢ هـ . حتى موت الحافظ في ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ .

##PAGE=42##

الوصى الثاني: الظافر

اسمه اسماعيل لقبه الظافر بأمر الله . كنيته: أبو المنصور. ولد في النصف من ربيع الآخر سنة ٥٢٧ هـ . و ظل في الحكم أربع سنين و ثمانية أشهر إلا خمسة أيام . قتل ليلة الخميس في آخر شهر محرم سنة ٥٤٩ هـ . و كان له من العمر إحدى و عشرون سنة و تسعة أشهر و نصف الشهر.

لما مات الحافظ، بويع لولده الظافر بموجب وصية أبيه، و قام بشؤون الوزارة «نجم الدين بن محمد بن مصال» فلم يرض «الأمير المظفر على بن السلار» والى الاسكندرية يومئذ . فحشد جيشا و سار به إلى القاهرة، ففر ابن مصال، و استقر ابن السلار في الوزارة و تلقب «بالعادل»، و لكن لم يمض عليه سوى فترة قصيرة حتى عاد ابن مصال إلى القاهرة، و لكن ابن السلار قتله، و قوى أمره حتى استوحش منه الظافر و خافه ابن السلار و احترز من الظافر على نفسه، و جعل له رجالا يمشون في ركابه بالزرد و الخوذ و الخوذ عددهم ستمائة رجل بالنوبة، و نقل جلوس الظافر من القاعة إلى الإيوان في البراح و السعة، حتى إذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه، ثم تأكدت النفرة بينهما، فقبض على صبيان الخاص و قتل أكثرهم، و فرق باقيهم و كانوا خمسمائة رجل، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن قتله ربيبه «عباس بن تميم» بيد ولده نصر، و استقر بعده في وزارة الظافر.

و كان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير، و بين الظافر مودة أكيدة، و مخالطة بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد، و يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس، فخاف عباس من جرأة ابنه، و خشي أن يحمله الظافر على قتله، فيقتله كما قتل الوزير على بن السلار زوج جدته أم عباس، فنهاه عن ذلك، و ألحف في تأنيبه، و أفرط في لومه، لأن الأمراء كانوا مستوحشين من عباس، و كارهين منه تقريبه «أسامة بن منقذ» أمير شيزر الذي استوطن مصر بعد خراب بلده في الشام، و اتهموه أنه هو الذي حسن لعباس قتل ابن السلار، كما هو مذكور في خبره، و هموا بقتله، و تحدثوا مع الخليفة

##PAGE=43##

الظافر فى ذلك، فبلغ أسامة ما هم عليه، و كان غريباً فى الدولة، فأخذ يغرى الوزير عباس بن تميم بابنه نصر، و يبالح فى تقبيح مخالطته للظافر، إلى أن قال له مرة : كيف تصبر على ما يقول الناس فى حق ولدك، من أن الظافر يحبه و يؤثره و يفضله؟ فأثر ذلك فى قلب ابن عباس، و اتفق أن الظافر أنعم بمدينة «قليوب» على نصر بن عباس، فلما حضر إلى أبيه و أعلمه و أسامة بن منقذ حاضر قال له: يا ناصر الدين ... ما هى بمهرك غالية، يعرض له بالفحش، فأخذ عباس من ذلك ما أخذه، و تحدث مع أسامة لتقته به فى كيفية الخلاص من هذا، فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته فى الليل، و أمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك، فاغتنمها. و ما زال يشنع بنصر و يحرضه على قتل الظافر حتى وعده بذلك.

فلما كان ليلة الخميس آخر شهر محرم سنة ٥٤٩ هـ. خرج الظافر من قصره متنكراً و معه خادمان كما هى عادته، و مشى إلى دار «نصر ابن عباس» فإذا به قد أعد له قوما ... فعندما صار فى داخل داره وثبوا عليه و قتلوه مع أحد الخادمين، أما الثالث فقد تمكن من النجاء و الذهاب إلى القصر، و دفنوا الظافر و الخادم تحت الأرض.

و عند ما بلغ أهل القصر ما فعله نصر بن عباس كاتبوا «طلّاح بن رزيك» و كان على «الأشمونيين» فبعثوا إليه بشعور النساء يستصرون به على عباس و ابنه، فقدم الجموع و فرّ عباس و أسامة ابن منقذ و نصر، و دخل طلّاح و عليه ثياب سود، و كذلك أعلامه و بنوده، و شعور النساء التى أرسلت إليه من القصر على الرماح.

فمضى ماشياً إلى دار نصر، و أخرج الظافر و الخادم، و غسلهما و كفنهما، و حمل الظافر فى تابوت مغشى، و مشى وراءه حافياً و الناس كلهم حتى وصلوا إلى القصر، و هناك صلى عليه ابنه «الفائز» و دفن فى تربة القصر.

كان محكوماً عليه فى خلافته، و كان كثير اللهو و اللعب، و فى عهده ازداد الوهن فى الدولة، و ملك الصليبيون مدينة «عسقلان».

وزراء الظافر

سليم بن محمد بن مصال الكلى:

من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ. حتى ١٤ شعبان من السنة المذكورة.

##PAGE=44##

كان وزيراً فى عهد الحافظ، و فى عهد الظافر تسلّم الوزارة كوزير سيف، و أصله من قرية «لك» من أعمال برقة.

خدم أولاً فى «البيرزة و الصيد» هو و أبوه فتقدم فى الخدمة حتى أصبح من كبار الأمراء و نال الوزارة، و اتفق أنه مرّ فى وزارته مرة، فقالت له امرأة كانت تعرفه فى حال فقره : سليم وزرت، فقال لها : نعم فقالت: و الله ما وزرت و بقى أحد ... فضحك و أمر لها بصلة.

و لم تطل وزارة ابن مصال الثانية إذ سار إليه ابن السلار والى الاسكن درية و البحيرة، و اجتمع معه ابن زوجته «عباس بن باديس» و اتفقا على ازالته من الوزارة، فبلغه ذلك، فأعلم به الظافر الذى جمع الأمراء فى مجلس الوزارة . و بعث إليهم زمام القصور يقول:

هذا نجم الدين وزيرى و نائبي، فمن كان يطيعنى فليطعه و يمتثل أمره . فقال الأمراء: نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون ... فقال أمير من الأمراء: إن سمع مولانا ما أقول، قلت: فقال له الوزير قل:

قال مولانا يعلم، و أنت تعلم أن ما فى الجماعة من يضرب ابن السلار بسيف أولهم أنا، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه و أجناده، فالأمر لله و له. فلما سمع الجماعة قاموا و خرجوا من القصر يريدون ابن السلار، فلما غلب الظافر عن دفعه، أعطى ابن مصال مالا كثيرا و أمره أن يعمل لنفسه ما يرى فيه الخير و هو يساعده، و لما رأى ابن مصال أن لا طاقة له بملاقاة ابن السلار عدا إلى الجيزة، و دخل ابن السلار إلى القاهرة . فوقف على القصر و سار إلى الظافر، و إلى من يدبره . من النساء، و يعلم بحاله، فجرت بينه و بين أهل القصر مراجعات كثيرة حتى فتح له أبواب القصر و خلع عليه خلع الوزارة.

على بن إسحاق السلار:

من ١٥ شعبان سنة ٥٤٤ هـ حتى ٦ محرم سنة ٥٤٨ هـ.

خلع الظافر عليه الوزارة، و أعطاه لقب «السيد الأجل، أمير الجيوش، شرف الإسلام، كافل قضاة المسلمين و هادى دعاة المؤمنين، و كان يحقد على الظافر لميله إلى ابن مصال، كما أن الظافر لم يكن يرتاح ضمنا إليه، و قد جمع ابن مصال العديد من أهالى السودان، و من العربان، و من «لواته» و غيرهم، و انضم إليه «بدر بن رافع» مقدم العربان، فندب ابن السلار ربيبه عباس لقتاله.

##PAGE=45##

و يقول «أسامة بن منقذ» و هو ممن عاصر تلك الأحداث:

خرج «عباس ركن الدين» و هو ابن امرأة على بن السلار، فضرب خيمة فى ظاهر البلدة، فعدت سرية من «لواته» و معهم نسيب لابن مصال، و قصدوا مخيم عباس . فانهزم عنه جماعة من المصريين، و وقف هو و غلمانه، و من صبر معه من الجند، و بلغ الخير إلى ابن السلار . فاستدعانى فى الليل و أنا معه فى الدار، و قال هؤلاء الكلاب (يعنى جند مصر) قد شغلوا الأمير (يعنى عباسا) بالقوارع حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة. فانهزموا عنه و دخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة، و الأمير موافقهم ... قلت يا مولاي: نركب إليهم فى سحر، و ما يضحى النهار إلّا و قد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى. قال:

صواب أبكر فى ركوبك «فخرجنا إليهم من بكره، فلم يسلم منهم إلّا من سبحت به فرسه فى الزبل. و أخذ نسيب بن مصال بضرب رقبتة، و جمع العسكر مع العباس، و سيره إلى ابن مصال، فلقية على الأرض فكسرهم و قتل ابن مصال، و قتل من السودان و غيرهم سبعة عشر الف رجل، و حملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة، و لم يبق لسيف الدين من يعانده . و لم يصف الجو بين ابن السلار و الظافر حتى انتهى الأمر بأن قتل ابن السلار يوم الخميس السادس من محرم سنة ٥٤٨ هـ.»

و فى ترجمة ابن السلار ينقل ابن خلكان عن «بعض تواريخ المصريين قولهم:

«إنه كان كرديا زرزاريًا»، و كان والده في صحبة «سقمان بن أرتق» صاحب القدس، فلمّا أخذ الأفضل القدس وجد فيه طائفة من عسكر سقمان فضمهم إليه و كان في جملتهم السلّار، والد العادل المذكور، فأخذه الأفضل إليه، و تقدم عنده، و سمّاه «ضيف الدولة»، و أكرم ولده هذا و جعل في صبيان الحجر ...».

و كان العادل ممن امتازوا بالشجاعة و الاقدام و العقل، «فأمّره الحافظ»، و تقلبت به الأحوال في الولايات بالصعد و الريف حتى أصبح واليا على البحيرة و الاسكندرية قبل توليه الوزارة و كان ابن السلّار شهما مقداما مائلا إلى أرباب العقل و الصلاح، و كان ابن السلّار شهما مقداما مائلا إلى أرباب العقل و الصلاح، و كان شافعي المذهب.

##PAGE=46##

و يستطرد ابن خلكان فيقول:

إنه كان مع هذه الأوصاف، ذا سيرة جائرة، و سطوة قاطعة، يؤاخذ الناس بالصغائر و المحقرات ...

إنه قبل وزارته بزمان قد دخل يوما على الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي، و كان مستوفى الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفریطه في شيء من لوازم الولاية الغربية، فلمّا أطال عليه الكلام ... قال له أبو الكرم:

و الله كلامك لا يدخل في أذني ... فحقد عليه، و لمّا تولّى الوزارة طلبه، فخاف منه، و استتر مدة، فنادى عليه في البلد، و هدر دم من يخفيه، فأخرجه الذي خبأه عنده، فخرج في زى امرأة بإزار و خف، و لكنه عرف فحمل إلى العادل، فأمر بإحضار لوح من الخشب و مسمار طويل، فألقاه على جنبه و طرح اللوح تحت أذنه، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى فصار كلما صرخ يقول له:

دخل كلامي في أذنك بعد أم لا؟ و لم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن الأخرى، و يقال إنه شتقه بعد ذلك.

حاول الوزير ابن السلّار أن يتحالف مع «نور الدين الشهيد» و كان الوسيط بينهما «أسامة بن منقذ»، و كان الصليبيون قد شرعوا بعمارة غزة ليحاصروا عسقلان، فأرسل ابن السلّار أسامة بن منقذ و معه الأموال و الهدايا، و أمر أن يطلب من نور الدين منزلة طبرية، و اشترط ابن السلّار أنه في حالة موافقة نور الدين على ذلك، فعلى أسامة أن يعطيه ما معه من الأموال. أمّا إذا امتنع فعلى أسامة أن يجند بما معه من الأموال جندا يتوجه بهم إلى عسقلان لمقاتلة الصليبيين . فلمّا وصل أسامة إلى بصرى - حوران، و جد نور الدين يتهيأ لمحاصرة دمشق، فلعنذر عن السير معه خوفا من أهل دمشق .

و استأذن في أن يجند قوما من الجند على أن يرسل معه نور الدين رجلا من أصحابه في ثلاثين فارسا حتى يعلم الصليبيون بقبوله التحالف مع مصر، فأذن له في ذلك، و سير معه الأمير الياروقى في ثلاثين فارسا و سار أسامة في البلاد التي احتلها الصليبيون دون أن يتعرض له أحد حتى عسقلان . فجمّع الصليبيون قواتهم لحصارها، و لكن أسامة تمكن من ردهم، و ظلّ بعسقلان أربعة أشهر يهاجم بلادهم القريبة و بأسر و يقتل حتى جاءه كتاب ابن السلّار يستدعيه إلى مصر . فترك فيها أخاه عز الدولة أبا الحسن الذى قتل و هو ينازل غزة.

##PAGE=47##

و لم يأل ابن السلار جهدا في محاربة الصليبيين، فجهز في سنة ٥٤٦ هـ أسطولا أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار للانتقام من الصليبيين الذين خربوا الفرما سنة ٥٤٥ هـ. وقد أقلع الأسطول في ربيع الأول إلى يافا و عكا و صيدا و بيروت و طرابلس حيث أسروا عدة مراكب للصليبيين، و قتلوا خلقا كثيرا، و بلغ ذلك مسامع العادل نور الدين، فعزم على قصد الصليبيين و محاربتهم في البر، و لكنه شغل بأمور دمشق، و لو أن نور الدين تمكن من الخروج لحرب الصليبيين في ذلك الوقت، لتغير وجه التاريخ.

و اهتم ابن السلار اهتماما كبيرا بأمر عسقلان، و هي آخر معقل للفاطميين في الشام، فقوى حصونها، و أمدها بالرجال و المال و الأقوات، و كان يبذل حاميتها كل سنة أشهر، حتى تقوى على صد الصليبيين، و لكن بعد أن قتل ابن السلار سنة ٥٤٨ هـ أبطل سير الجنود إلى عسقلان، فانتهم الصليبيون الذين كانوا محاصرين في عسقلان الفرصة و قالوا لأهلها:

سلطانكم قتله ابنه، و أنتم تقاتلون لمن؟ فلما صحّ الخبر عندهم و هونا لانقطاع المدد حتى أخذها الصليبيون و يذكر أن أهل عسقلان أرسلوا إلى نور الدين و إلى مجير الدين صاحب دمشق يستصرخانها فاتفقا على النزول في بانياس لشام، و قصدهما إشغال الصليبيين النازلين في عسقلان، و لكن الخلافات دبّت بينهما فعاد نور الدين إلى حمص، و مجير الدين إلى دمشق. و لما طال انتظار أهل عسقلان للمدد من مصر دون جدوى، اضطروا إلى تسليمها للصليبيين و كان فيها من الذخائر و العدد و الغلال ما لا يحصى. و هكذا فقدت مصر الفاطمية نتيجة لجريمة عباس و ابنه آخر معقل لها في ديار الشام.

و قد رفع طلائع بن رزيك علم الجهاد من جديد، فاهتمّ بارسال الأساطيل و السرايا لمهاجمة الصليبيين، و جهّز سنة ٥٥٠ هـ.

أسطولا هاجم فيه ميناء صور حيث ظفر بمراكب الصليبيين، و عاث في الميناء قتلا و أسرا، و عقد الصليبيون مع طلائع بعد هذه المعركة هدنة استمرت حتى سنة ٥٥٣ هـ، شرع بعدها طلائع في إرسال الحملات البرية و البحرية للإغارة على الصليبيين، و كانت أول سرية جهزها في السابع و العشرين من جمادى الأولى. فسارت إلى

##PAGE=48##

غزة و عسقلان حيث نهبت أطرافهما و عادت بغنائم كثيرة، و أعقب ذلك الحملات المظفرة طوال سنة ٥٥٢ هـ و سنة ٥٥٣ هـ و سنة ٥٥٤ هـ، كما حصلت اتصالات بين طلائع و نور الدين غايتها العمل معا، و كتب له طلائع عدة قصائد يحرضه فيها على الجهاد. فأرسل نور الدين رسولا سنة ٥٥٢ هـ، و آخر سنة ٥٥٣ هـ. كما قدم رسول الصليبيين بطلب الصلح، و قد عاد طلائع رسول نور الدين بجواب رسالته هدية من الأسلحة ما قيمته ثلاثون ألف دينار، و من العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على حرب الصليبيين، و قد اهتم الصليبيون بمهادنة طلائع فأرسلوا رسولا آخر سنة ٥٥٤ هـ، و معه هدية و عرض بقيام هدنة بين الطرفين، إلّا أن رسولا من قبل نور الدين وصل إلى مصر و أخبر بأنه متوجه لمهاجمة الصليبيين، و طلب خروج حملة من مصر تشغلهم، فبادر طلائع بتجهيز ستة آلاف و خمسمائة فارس لشن الغارات على غزة، كما أرسل أسطولا في البحر لمهاجمة العدو و سفنه، و يبدو أنه كان هناك اتفاق بين ابن رزيك و نور الدين على أن تقسم الشام بين نور الدين و مصر بعد طرد الصليبيين منها، و يظهر ذلك «المهذب بن الزبير» الشاعر في قصيدة أرسلها إلى أحد أصدقائه المقربين يشير فيها إلى تلك الواقعة، و إلى هذا الاتفاق و منها:

و أعدت رسل ابن القسيم إليه في

شعبان كي يتلاءم الشعبان

و القائل يشهد باسمه أن سوف يغ

دو الشام و هو عليكما قسمان

و أراك من بعد الشهيد أبا له

و جعلته من أقرب الأخوان

و لكن برغم اهتمام الصالح بقيام هذا التحالف، و كتبه المتلاحقة لحث نور الدين على العمل يدا واحدة، و القيام بمجهود مشترك ضد العدو، إلا أن ذلك لم يأت بالغرض المنشود، إمّا لأن نور الدين لم يكن يثق تماما في عروض مصر، أو لأن القدر لم يمهل طلائع إذ أنه قتل بعد وقت قصير فمات و هو يتأسف لعدم تمكنه من فتح بيت المقدس، و طرد الصليبيين.

عباس بن بلديس الصنهاجي:

من ١٢ محرم سنة ٥٤٧ هـ حتى ١٩ ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ.

أصله من المغرب، و من بيت الملك الصنهاجي فيها، وصل مع أمه إلى

##PAGE=49##

مصر، و هو صبي فتزوجها ابن السلار و تبنى عباسا الذي ترقى في الخدمة حتى ولي الغربية، و لقب بالأمير ركن الإسلام، ثم تولّى الوزارة بعد قتله ابن السلار، و قد جرت في عهد عباس أحداث ساعدت في سرعة القضاء على الدولة الفاطمية، و قد ذكرنا كل هذا في الصفحات السابقة.

و قيل إنه كان لعباس مئتا حصان، و مئتا بغل، و أربعمائة جمل تحمل أقاله، كما كان له خمسة آلاف مملوك، و قد نهبت ثروته و مخلفاته أثناء الفتنة التي أعقبت قتل الظافر.

النزاع بين الوزراء

يرى بعض المؤرخين أن النزاع الذي استمرّ طويلا في عهد الظافر بين ابن السلار، و ابن مصّال هو في الحقيقة نزاع بين السنة و الشيعة. و لكن الظافر برغم كل ما كان يراه فإنه دبّر قتل وزيره ابن السلار بيد نصر ابن ربيبه عباس و ذلك سنة ٥٤٨ هـ. و قد كوفى على جريمة ابنه بتولى الوزارة حيث قرّب الأمراء، و أحسن إلى الأجناد حتى ينسوا ابن السلار، و أخذ الظافر يغدق بدوره المنح و الاقطاعات على نصر بن عباس، ممّا جعل الناس يتحدثون عنهما أحاديث مريبة كما ذكرنا، فأمض ذلك والده عباس الذي أغراه فيما بعد بقتل الظافر، و لم تنته الجرائم بكل ذلك بل تلتها مسرحية مؤلمة قصد بها التضليل، و إبعاد الشبهات عنه و عن ولده، فيسير هو إلى القصر و يتهم أخا الظافر بقتله، ثم أحضر ابن الظافر و هو طفل في الخامسة، و بايعه بالخلاف وسط مظاهر الرعب و الدماء، و منذ ذلك الوقت أصيب الطفل بالصرع.

و ظنَّ عباس أن الأمر قد استقام له، و لم يحسب حسابا لطلّاع بن رزيك الذي هاجم القاهرة، ففرَّ عباس و ابنه، و استطاع ابن رزيك أن يعيد النظام و الأمن إلى البلاد، و قد لعب هذا الوزير دورا بارزا على المسرح السياسي في الديار المصرية كما سيأتي إلّا أن سبب هذه الفوضى و الأعمال الإجرامية هو تسليم الحكم إلى أيد غير نظيفة، و إبعاد الشرعية الأمر الذي بدأ بإقدام الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني على إبعاد أصحاب الحق بالإمامة و الخلافة، و تنصيب صغار الناس في المناصب العليا، ممّا كان له أثره في حياة هذه الدولة الكبرى لدرجة أنها أصبحت في نهاية المطاف تدار من قبل الأطفال و المعتوهين.

##PAGE=50##

الوصى الثالث: الفائز

اسمه: عيسى. لقبه الفائز بنصر الله .. كنيته: أبو القاسم. ولد سنة ٥٤٤ هـ سموه لولاية العهد بعد مقتل والده الظافر، و كان له من العمر خمس سنين و ظلّ في الخلافة ست سنين و خمسة أشهر و عدة أيام . عاش إحدى عشرة سنة و ستة أشهر و يومين. و توفي في الثالث عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ.

ذكر المؤرخون أن «طلّاع بن رزيك» والى الاشمونين عند ما زحف إلى القاهرة و استولى عليها، فرَّ عباس ، و عندئذ استحضر الفائز بن الظافر و كان له من العمر خمسة أعوام كما ذكرنا فسمى للخلافة مكان أبيه، و لكن الفائز عند ما رأى أعمامه قتلى و سمع الصراخ و العويل اختلّ عقله و أصيب بالصرع و ظلّت تصيبه النوبات من وقت لآخر حتى مات.

وزراء الفائز

«طلّاع بن رزيك»:

من ١٩ ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ. حتى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ.

أرمنى الجنسية. ولد بأرمينية سنة ٤٤٥ هـ. و أكبّ منذ صغره على العلم و الأدب، ثمّ أصبح من الشيعة الإمامية الإسماعيلية كما ادعى، و للدلالة على ذلك قدم مع جماعة من الفقهاء الدراويش لزيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب في النجف الأشرف في العراق، فرأى «السيد ابن معصوم» إمام المشهد في منامه الإمام علي كرم الله وجهه يقول له:

قد ورد عليك الليلة أربعون فقيرا من جملتهم رجل يقال له «طلّاع ابن رزيك» من أكبر محبينا ... فقل له إذهب فقد وليناك مصر، فلما أصبح الصباح نادى : من فيكم «طلّاع بن رزيك» فلبأت إلى السيد ابن معصوم . فجاء طلّاع و سلّم عليه. فقصّ عليه ما رأى ... و عندئذ سار إلى مصر و التحق بخدمة الدولة، و ترقى في المناصب حتى ولى الصعيد . فلما قتل عباس الظافر، بعث إليه نساء القصر يستغثن به فجاء إلى القاهرة، و وضع السيف في من بقي من أصحاب عباس، و خلع عليه الوصى خلع الوزارة.

##PAGE=51##

بأشرف طلائع البلاد أحسن مباشرة، واستبد بالأمور لصغر سن الوصى الفائز ... إلى أن مات، فأقام من بعده الوصى الرابع «العاضد» و بايعه الناس، و كان صغيرا لم يبلغ الحلم، ففقت حرمه طلائع، و ازداد تم كنه من الدولة، فنقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم و استبداده بالأمور دونهم، و كان أن وقف له رجال بدهاليز القصر، و ضربوه حتى سقط على الأرض و حمل جريحا إلى داره حيث مات يوم الاثنين في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦ هـ.

كان شجاعا كريما، جوادا فاضلا محبا لأهل الأدب، جيد الشعر، و كان مهابا في شكله، عظيما في سطوته، و قد جمع أموالا طائلة، و كان محافظا على الصلوات و فرائضها و نوافلها شديد المغالاة في التشيع، و لما ولي الوزارة مال على المستخدمين في الدولة، و على الأمراء و أظهر مذهب الإثنا عشرية و هو مخالف لمذهب القوم ، و باع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقرر، و جعل مدة كل متول ستة أشهر، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد، و تعبوا من ذلك، و لم يترك في مدة أيامه أمر غزو الصليبيين، و تسيير الجيوش لقتالهم في البر و البحر، و كان يخرج البعوث في كل سنة مرارا، و يحمل إلى أهل الحرمين، مكة و المدينة، في كل عام من الأشرف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة و غيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها، و الأقلام و المداد. و في صبيحة الليلة التي قتل فيها قال:

«في مثل هذه الليلة ضرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، و أمر بقربة ممتلئة، فاغتسل و صلى على رأى الإمامية مئة و عشرين ركعة أحيا بها ليله، و خرج ليركب فعر و سقطت عمامته عن رأسه و تشوشت، فقعد في دهليز الوزارة، و أمر بإحضار ابن الضيف و كان يعتم للخلفاء و الوزراء، فلما أخذ في إصلاح العمامة قال رجل لطلائع:

نعيد بالله مولانا ... و يكفيه هذا الذي جرى أمرا يتطير منه، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل ... فقال: الطيرة من الشيطان ... ليس إلى تأخير الركوب سبيل، و ركب فكان من أمر ضربه ما كان، و عاد محمولا فمات».

استطاع طلائع أن يعيد الأمن و النظام إلى البلاد، فعاقب الجناة الذين اشتركوا مع «نصر بن عباس» في جريمة قتل الظافر، كما قضى على ثورات المناوئين له كثورة «طرخان» والى الاسكندرية الذي قام

##PAGE=52##

يطالب بالوزارة. فأرسل إليه طلائع جيشا بقيادة ابن أخته «الأمير عز الدين» فهاجمه عند دمنهور و اضطره إلى الفرار تحت جنح الظلام، و ثورة «الأمير الأوحى بن تميم» و والى أخميم و أسبوط، و كان قد جمع جموعا كثيرة فأرسل إليه طلائع جيشا تمكن من قتله في رجب سنة ٥٥٠ هـ. كما قبض على «الأمير ناصر الدولة ياقوت» و والى قوص و أولاده بتهمة مكاتبة أخت الخليفة للقيام ضد طلائع و سجنهم.

و أخذ يتتبع كل من يخشى منافسته من أمراء الدولة، و يتخلص منهم الواحد بعد الآخر حتى خلا له الجو، و إن كان ذلك على حساب المصلحة العامة، إذ أضعف الدولة بقتل أمرائها و ذوى الرأى و الحزم فيها، و سيطر على القصر سيطرة تامة حتى أنه عند ما بايع «العاضد» الوصى الرابع على الخلافة و الأخير، و ذلك بعد موت الفائز أرغمه على الزواج من ابنته طمعا في أن تتول الوصاية لسبطه.

و تتهم المراجع التاريخية طلائع بن رزيك بحب المال، و جمعه من أى سبيل جاء، و أنه أخذ يبيع الولايات للأمراء، و جعل مدة الولاية سنة أو ستة أشهر فقط، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة عليهم، كما كان هؤلاء الولاة يتبعون السياسة

نفسها مع مرؤوسيتهم، و كانت النتيجة انتشار الرشوة و الفساد و الاختلاس و إرهاب الشعب بجمع الضرائب ممّا أضرّ بالفلاحين أيضاً، و احتكر طلائع العَلات فارتفع سعرها، و تطلع إلى ما فى أيدى الناس من الأموال، فشرع فى ا لميل على المستخدمين، و أخذ أموالهم، و تتبع أرباب البيوتات، و النعم و الأعيان فسلبهم نعمهم.

و يؤخذ على طلائع الميل إلى إضعاف الجند، و قص أطرافهم، و إن كل ما فعله كان شيئاً طبيعياً بالنسبة لتلك الفترة العجيبية من عصر الفاطميين . فإن الوزراء الذين جاؤوا بقوة السلاح كانوا يبادرون إلى التخلص من الأمراء المنافسين، أو الذين يخشون منافستهم، و من الجند الذين يتوقعون منهم الثورة عليهم، ثم يؤلفون فرقا يطمنون إلى ولاء جندها، و قد أنشأ طلائع فرقة يقال لها «البرقية» و كانت عدتها أكثر من سبعين أميراً، و جعل على رأسهم «ضرغاماً» الذى صار وزيراً فيما بعد بمساعدة هؤلاء البرقيين، و بالرغم من محاولة طلائع

##PAGE=53##

إضعاف غيره من الأمراء، فإنه اهتم هو و ابنه العادل من بعده بالجيش و الأسطول ضد الصليبيين.

و مهما يكن من أمر فإن عدة الجيوش فى مصر أيام طلائع و ابنه كانت أربعين ألف فارس، و ستة و ثلاثين ألف راجل من السودان، و عشر قطع بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل، و هناك من يقول : إن عدد قطعات أسطوله وصلت إلى الثمانين بالإضافة إلى عشرة مسطحات، و عشر حملات، و من مآثر «طلاع بن رزيك» أنه بالرغم من تعصبه للمذهب الشيعى، كان يجتمع بفقهاء أهل السنة، و يستمع إليهم، و كان يعقد مجالس العلم و الأدب، و لم يكن يخيب أمل قصاده من أهل العلم الذين يقدون إليه من سائر البلاد، فكان ممن قصده الشاعر الأديب «الحسن بن على بن عبد الله بن أبى جرارة»، و لقد عرف طلائع ما للشعر من أهمية، فاستخدمه فى تمكين دولته، و تمجيد حروبه مع الصليبيين، كما كان شيعياً مغاليا اتخذ من الشعر وسيلة لنشر المذهب الشيعى، و الحط من شأن المذاهب الأخرى، كما حاول جاهداً أن يغرى شعراء كبارا «كعمارة اليمنى» باعتناق هذا المذهب، و اتخذ ابن رزيك من الشعراء أصدقاء و جلساء، و ذكر عمارة اليمنى أسماء بعض الشعراء و الأدباء الذين قابلهم فى حضرة الوزير طلائع .. فيقول:

منهم: ابن الحباب، و الموفق بن الخلال، صاحب ديوان الإنشاء، و محمد ابن قادوس، و الحسن بن الزبير، و ما من هذه الحلبة أحد إلّا و يضرب فى الفضائل النفسانية و الرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب، و يرى شاكله الأشكال فيصيب. و يقول عن طلائع:

و لم تكن مجالس أنسه تنتقطع إلّا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية و الأدبية، و كان شاعرا يحب الأدب و أهله، و يكرم جلسيه، و يبسط أنيسه، و كان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل، لذلك قصده الشعراء، من كل مكان، فوجدوا فى ر حابه ما أملوه، كما كان غيرهم يرأسله على البعد، فأفاض على القاصى و الدانى بالعطاء، أو كما يقول القاضى الجليسى:

نشرت أيامه مطرى الهمم، و أنشرت رفات الجود و الكرم، و نفقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت و هبت ربح الفضل بعد ما ركدت، اذ لها الملوك بالقيان و المعازف، و كان لهوه بالعلوم و المعارف.

##PAGE=54##

و لا أدلّ على حب طلائع للشعر، ممّا ذكره عماره من أنه عند وصوله إلى مصر أول مرة رسولا من أمير الحرمين «هاشم بن فليته» لجأ إلى الحسين بن أبي الهيجاء صهر طلائع ليقدّمه له .. يقول عماره:

فلما استدعى أبو الهيجاء للغداء عند طلائع قال:

عندى رسول صاحب مكة، و كنت أظنه عاقلا فإذا هو ناقص. فقال له طلائع:

و بأى شىء عرفت نقصه؟ قال : لكونه يحسن شيئا من هذا السحت الذى تعمله أنت .. و الجليس، و ابن الزبير ... قال طلائع: لعله شاعر ... قال نعم ...

فقال طلائع: هات الرجل، ثم أنشد:

ذاك الذى يشتهي قلبى

إن الذى تكرهون منه

و يكفى أن نذكر بعض فحول الشعراء الذين حفل بهم بلاط الوزراء، و خاصة ابن رزّيك لتعرف مدى ما وصل إليه الأدب من ازدهار، و ما بلغه الشعراء و الأدباء من مراكز الصدارة فى دواوين الدولة، و من هؤلاء الأخوان «أحمد و الحسن» أبناء على بن الزبير، و قد وصف عماد الدين الأصفهاني الأخير بقوله:

«محكم الشعر كالبناء المشيّد ... لم يكن فى زمانه أشعر منه».

و القاضى الجليس بن الحباب، و الشريف القاضى سناء الملك أسعد بن على الحسينى، الذى جاء من الموصل، و استقرّ فى مصر، و الأمير أبو المهند حسام بن مبارك العقيلي ابن أخت طلائع، و كان مقدم عسكره كما كان شاعرا مثل خاله، و الفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن من أهل الإسكندرية، و ابن الصيّاد الذى قال عنه عماد الدين:

«كان سريع الخاطر فى النظم لا يقف قلمه و لا يتّضع فيه علمه، و يغريه الصالح بجلسا ئه بهجوههم و كانوا يتعرضون به»، و ابن قادوس الذى بلغ من تكريم طلائع له أن حضر إلى منزله عند وفاته، و مشى فى جنازته حتى واره التراب، و غيرهم كثيرين.

و فى عماره اليمنى خير مثال لما كان يلقاه الشعراء من تشجيع الوزراء، و ما كان لهذا التكريم من أثر فى أديهم، فإن عماره بالرغم من كونه سنيا شافعيّا لم يمنع ابن رزّيك من العطف عليه و تقريبه له حتى صار من ألق الأوصحاب به.

##PAGE=55##

و قد انهالت عليه صلات الوزير، ممّا جعل عماره ينطق بكل قوته و مقدرته الشعرية فى الإشادة بذكر الفاطميين، و الانتصار لهم، و الدفاع عنهم حتى بعد القضاء على دولتهم، ممّا أدّى به إلى القتل بأمر من «صلاح الدين الأيوبي». و لقد بلغ من حب ابن رزّيك للشاعر عماره أنه حاول جاهدا ضمه إلى المذهب الشيعى، و بذل له المغريات، و لكن عماره رفض ذلك، دون

أن يؤثر هذا على العلاقة بينه وبين ابن رزيك، بل ظلت الصداقة بينهما على قوتها، وظلّ عمارة وفيها لآل رزيك حتى بعد القضاء على دولتهم، ومحاولة «شاور» اغداق النعم عليه، وتقريبه له وضمّه إلى حاشيته . ومن أروع ما قاله عمارة في رثاء طلائع أو «الصالح».

مجالس أيامى وهن غيوب

تتكّد بعد الصالح الدهر فاغدت

و ربعى من نعمى يديه خصيب

أ يجذب خدى من ربيع مدامعى

و يصف عماد الدين الأصفهاني حالة الأدب و الأدباء بعد صالح فيقول:

«انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، و رخص سعر الشعر، و انخفض علم العلم، و ضاق فضاء الفضل، و اتسع جاه الجهل، و انحلّ نظام أهل النظم، و انتشر عقد ذوى النثر، و استشعر الفاقة الشعراء، و عدم البلغة البلغاء، و عدّ الفضل فضولا، و العقل عقولا ... و طلب المهذب مذهبا فى الذهاب محبوبا و مركبا فى النجاء مجنوبا، و أضلّ الرشيد طريق رشده فاحترق بشرارة شر «شاور» من بعده، و عاد «ابن الصياد» إلى حرفه أبيه ... و طفق فضلاء الحضرة يغيبون لحضور الناقصين ... فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظّ، منسوخة الجد، منكوسة الراية، معكوسة الآية ...».

##PAGE=56##

الوصى الرابع: العاضد

اسمه: عبد الله. لقبه: العاضد لدين الله. كنيته: أبو محمد ... ولد لعشر بقين من شهر محرّم سنة ٥٤٦ هـ. و كلن له من العمر أحد عشر عاما عند ما بويج بالوصاية. مات سنة ٥٦٧ هـ و كان له من العمر إحدى و عشرون سنة إلا عشرة أيام. قضى فى الحكم إحدى عشرة سنة و ستة أشهر، و سبعة أيام.

كان كريما، لين الجانب، ضعيف الإرادة، و قد تراكت عليه المحن و الشدائد، و قامت فى وجهه المصاعب و المؤامرات، و غاب من حوله المخلصون، و لم يبق فى قصره إلا الخونة الذين يحيكون المؤامرات عليه، و يعتبر آخر وصى للخلافة الفاطمية فى الديار المصرية، إذ منه، أو بعده استولى «صلاح الدين الأيوبي» على الحكم فى مصر، و أعادها إلى الحضيرة العباسية مقيما الخ طبة باسم الخليفة العباسى «المستضىء بالله».

و هكذا طويت فى عهد العاضد صفحات الفاطميين فى مصر، فكان آخر من تولّى الحكم من هذه المجموعة الضعيفة من الرجال غير الشرعيين الذين تسللوا إلى حرم الخلافة الفاطمية دون أن يملكوا أية أهلية، أو استحقاق، و هكذا قضى على هذه الدولة قضاء مبرما حتى لم يبق منها سوى الذكريات و بعض الآثار التى لم يتمكن صلاح الدين من إزالتها أو محوها من الأفكار.

و مهما يكن من أمر ... فإن الوزير «طلّاح بن رزيك» هو الذى قام بتدبير الأمور أثر مباحة العاضد، لأنه كان صغيرا، و قد ظلّ قائما بمهمته حتى قتل سنة ٥٥٦ هـ. كما ذكرنا، فقام من بعده ولده «رزيك بن طلّاح» الذى حسنت سيرته فى الأوساط، و كان أول ما فعله أن عزل «شاوور بن مجير السعدى» عن ولاية قوص، فلم يقبل هذا العزل، بل حشد جيشه و سار به على طريق الواحات فى البرية باتجاه تروجة، و هناك جمّع الناس أيضا ، و اندفع بهم إلى القاهرة، فلم يثبت «رزيك» فى المجال، و كان من أمره أن فرّ، و لكن قبض عليه فيما بعد بأطيفح.

##PAGE=57##

بعد هذا الحدث استقرّ شاوور فى الوزارة لأيام خلت من صفر سنة ٥٥٨ هـ، و ظلّ قائما فيها إلى حين قيام «ضرغام» صاحب الباب، و عندئذ فرّ إلى بلاد الشام. و من الجدير بالذكر أن ضرغام بعد أن تسلّم الوزارة، أظهر عن نيّته فقتل أمراء الدولة، و كبارها ممّا أضعفها، و منع الجميع من الظهور، و هنا كان لا بد من تحرك الصليبيين، فهاجموا مدينة بلبس عدة مرات، و لكن جيش مصر بقيادة ضرغام دافع عنها دفاع المستميت، مّا جعل الصليبيين يعودون إلى بلادهم فى الساحل كما أن ضرغام عاد بجيشه إلى القاهرة.

و فى جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ. جنّد شاوور جيشا من بلاد الشام، و هبط فيه إلى الديار المصرية، و فى مدينة بلبس التقى به ضرغام و كان يقود عساكر مصر، ف وقعت بينهم معارك طاحنة تراجع فى نتيجتها ضرغام و جيشه إلى مصر بعد أن خسر خسائر فادحة غنمها شاوور . و على مقربة من القاهرة نشبت معارك جديدة بين الفريقين كانت الغلبة فيها لشاوور، فدخل القاهرة، و قتل ضرغام فى شهر رمضان سنة ٥٥٩ هـ. و استقرّ فى الوزارة مرة ثانية، و لكنه بعد فترة قصيرة اختلف مع «الغز» و هم من أتراك أواسط آسيا، و كانوا قد تجندوا معه فى الشام، و كان يقودهم «شيركوه» الكردي، فنشبت بينهم و بينه معارك عنيفة هدّدت مصيره، ممّا جعله يكتب إلى «مرى» ملك الإفرنج يستدعيه و يغيره بمعاونته على محاربة شيركوه و أعوانه «الغز» و يطعمه بحقوق و مكافئات، فحضر إلى مدينة بلبس حيث و افاه شاوور قادما إلى القاهرة مع جيوشه، و هناك و بعد معارك طاحنة تمكنا من محاصرة شيركوه ثلاثة أشهر. و أخيرا:

تم توقيع معاهدة صلح، فسار شيركوه إلى الشام مع الغز، و رحل الإفرنج عن البلاد المصرية، كما أن شاوور عاد إلى القاهرة . و كان ذلك سنة ٥٦٠ هـ. و لكن الأمور لم تستقر بعد هذا الاتفاق، لأن شيركوه عاد من جديد راميا غزو مصر للمرة الثانية، و ذلك فى ربيع الآخر من العام نفسه . فخرج شاوور من القاهرة للقائه، و استدعى «مرى» مرة ثانية إلى نصرته مع جيوش الإفرنج، و عندئذ خرج شيركوه من شرق أطيفح، و وقعت المعارك الطاحنة المشهورة التى انتهت بتقدم شيركوه، فاحتل الإسكندرية فى حين عاد شاوور إلى القاهرة.

##PAGE=58##

هذه الحالة لم تستقر طويلا، فقد خرج شيركوه من الإسكندرية باتجاه القاهرة، بعد أن استخلف عليها ابن أخيه «صلاح الدين بن يوسف بن أيوب» و اتجه إلى قوص، و أخذ يجبي الأموال من البلدان التى يمر فيها، و عندئذ خرج شاوور من القاهرة إلى الإسكندرية بقصد احتلالها، فبلغ شاوور ذلك فعاد إليها من قوص و حاصرها.

ولأسباب أخرى سار شيركوه وأصحابه منسحبين إلى بلاد الشام، وذلك في شهر شوال من العام المذكور، وفي هذه الفترة طمع الإفرنج في السيطرة على بلاد مصر، فهاجموا القاهرة وتسلموا أسوارها، وأقاموا فيها «شحنة» أي رئيس شرطة، ومع عدد من المسؤولين الإفرنج الذين قاسموا المسلمين الصلاحيات، وخاصة الأموال.

أما شاور فقد ساءت سيرته، وكرت رغبته في سفك الدماء، وقتل الآ مئين الأبرياء، وأتلف الأموال، وعند ما جاء عام ٥٦٤هـ.

تمكن الإفرنج من القاهرة وتسلموا الصلاحيات والمهمات كافة و جاروا في حكمهم، وأذلوا الناس، و ضغطوا على المسلمين، وانطلق رئيسهم «مرى» يريد أخذ بلاد مصر بكاملها، فنزل على مدينة بلبس واحتلها عنوة و عن دئذ تحرك العاضد فكتب إلى «نور الدين محمود بن زنكى» المعروف «بالشهيد» صاحب الشام يستصرخه، و يحثه على نجدة المسلمين، و انقاذ مصر من خطر الإفرنج، و عندئذ جهّز أسد الدين شيركوه «عسكرا و فير العدد مجهّزا بأحسن تجهيز، و سيرهم إلى مصر.

و ممّا تجدر الإشارة إليه، أن شاور كان قد أحرق مدينة القاهرة، كما تذكر المصادر التاريخية، و نزل «مرى» ملك الإفرنج على القاهرة، و ألحّ في قتال أهلها حتى كاد يأخذها عنوة فسير إليه شاور و خدعه و أرضاه بمال يجمعه له، و عند ما شرع بتنفيذ ما وعد به وصل الخبر إلى شيركوه، فقدم إلى القاهرة ل لمرّة الثالثة على رأس جيوش «الغز» فخلع عليه العاضد و أكرمه، و لكن شاور شنّها حربا على «الغز» كعادته، و ظلت المعارك مستعرة حتى قتل في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ، و كان قد تقلّد وزارة العاضد، و قام بها لمدة شهرين و خمسة أيام، و مات في الثاني و العشرين من جمادى الآخرة، و عندئذ فوّض أمر الوزارة «لصلاح الدين يوسف بن أيوب» فساس الأمور و دبر لنفسه مقاما مرموقا . و بذل الأموال، و وضع

##PAGE=59##

برنامجا للقضاء على العاضد، و على البقية الباقية من الفاطميين في مصر، و ذلك باستنفاد الأموال من بين أيديهم، و هكذا ظلّ أمره في ازدياد، و أمر العاضد في نقصان حتى وصل الأمر به إلى إعطاء الأوامر للمساجد بذكر اسم السلطان محمود بن نور الدين الشهيد، و هذا جرى بعد العاضد ثم تحوّل بعد ذلك إلى اسم المتسضىء العباسى، و أقطع أصحابه البلاد، و أبعد أهل مصر، و أضعفهم و استبد بالأمر، و منع العاضد من التصرف حتى تبين للناس أنه يقصد إزالة الدولة الفاطمية، و قد تجلّى ذلك في الواقعة التي خاضها مع عبيد العاضد، و التي تمكن فيها من إبادتهم، و بعد تلك المعركة تلاشى العاضد، و انحلّ أمره، و لم يبق له في مصر ما يستند عليه.

و والى صلاح الدين الأيوبي تصفية الدولة الفاطمية، فأتى على المال و الخيل و الرقيق و الثروات و يروى : أنه لم يبق عند العاضد سوى فرس واحد، و أخيرا طلبه منه، و اضطرّه إلى السير على الأقدام عند ما كان يريد الخروج، و هناك من قال أنه لم يخرج من القصر بعد هذا التدبير.

و استمر صلاح الدين في أعماله، فقتب جند العاضد، و أخذ بترحيلهم عن مصر الواحد بعد الآخر، و انتقل أخيرا إلى الأمراء فأخذ أراضيهم، و مزارعهم، و وزعها على أصحابه «الأكراد» الذين وفدوا إلى مصر بأعداد كثيرة، كما أنه استحضر أباه و

أخوته وأهله من الشام، فأنزلهم فى القصور الفاطمية، و فى سنة ٥٦٦ هـ أبطل صلاح الدين المكوس فى ديار مصر، و هدم دار المعونة بمصر، و جعلها مدرسة للشافعية، و أنشأ مدرسة أخرى للمالكية، و عزل قضاء الشيعة، و قلّد القضاء «صدر الدين بن درباس الشافعى»، و جعل إليه الحكم فى إقليم مصر، كما عزل سائر القضاء، و استناب قضاء الشافعية، فنظاهر الناس فى تلك السنة بمذهب مالك و الشافعى . أمّا مذهب الفاطمية فقد توارى عن أرض مصر، و لم يبق منه سوى الذكريات.

هذا و يجب أن لا يسهى عن البال أن صلاح الدين أخذ فى غزو الإفرنج ... فخرج إلى «الرملة» ثم سار إلى «إيلة» و نازل الإفرنج فى القلعة و أخذها، و سير «توران شاه» فأوقع بأهل الصعيد و أخذ منهم

##PAGE=60##

ما لا يمكن وصفه و عاد، و فى تلك الفترة كثر الحديث من قبل صلاح الدين و أعوانه فى ذم العاضد و انتقاده، و جرت محادثات لخلعه، تمهيدا لإقامة الدعوة العباسية فى الديار المصرية.

و أخيرا قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة، و أخذ دورهم، ثم أنزل فيها أصحابه الأكراد و قد تمّ ذلك فى ليلة واحدة، ممّا سبب قيام ضجة عامة، و فوضى شملت أحياء القاهرة، فتعالى العويل و البكاء، و تحكّم أصحابه فى البلد بأيديهم، و استملكوا المزارع، و الأراضى بالقوة حتى وصل الأمر إلى ممتلكات العاضد نفسه، فاحتجزه فى بيته، و منع الناس من الاتصال به، كما استلم القصور الفاطمية و سلّمها إلى الطواشى «بهاء الدين قراقوش» و أبطل من الآذان «حى» على خير العمل» و أزال شعارات الدولة الفاطمية، و كل هذا أوقع فى نفس العاضد، فمرض أخيرا فى ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ. ثم مات بعدها. و يعتبر العاضد آخر الفاطميين، فهو آخر نائب خليفة .. و الخلافة الفاطمية تبدأ من عبد الله المهدي حتى العاضد و مدتها مائتان و اثنتان و سبعون سنة و بضعة أيام ... منها مائتان و ثمانى سنوات فى القاهرة.

وزراء العاضد

رزيك بن طلائع:

من ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ حتى ٢٢ محرّم سنة ٥٥٨ هـ.

هو ابن طلائع الذى مرّ ذكره ... تولّى الوزارة بموجب وصية من أبيه.

يقول عمارة اليمنى فى ترجمته:

«إن الله لم يمهله إلّا مدة يسيرة، و كانت أفعال الخير فيه كثيرة، و ذلك أنه سامح الناس بالبواقي من الأموال و الح سابات القديمة، و أسقط من يوم الظلم مبالغ عظيمة، و أقام على الحاج أمين الحرمين الذى كان صاحب ثقة فى الأوساط، كما سير على يد الأمير شمس الخلافة أمه، و خمسة عشر ألفا إلى أمير الحرمين عيسى بن أبى هاشم و هى رسم اطلاق الحاج، و ظفر بقتله أبيه ظفرا عجيبا بعد تشتىتهم فى البلاد، و تمّ زفاف أخته إلى العاضد، كما حفر سردابا تحت الأرض يوصل فيه دار الوزارة بالقصر.

و ترامت في أيامه الحال بالأمير عز الدين حسام قريبه، و عظم صيته و استولى على تدبير كثير من أمور عمه فارس المسلمين و صهره سيف الدين، و عظم غلمان أبيه عن الوقوف عند أوامره، و لم يشهد له من البأس إلا خروج بعد عمه، و سيف الدين في نوبة غارة الإفرنج على أعمال

##PAGE=61##

الخوف، فإنه أغدّ السير خلف الإفرنج إلى أبي عروق . و الموقف الثاني إدراكه لبهرام الغزّي حين نافق، و أخذ يطالب بالصعيد، فإنه سرى فيمن خفّ معه من الجيش حتى أدرك الغز عند الفجر فقتلهم جميعا».

و قد خالف رزيك وصية والده، فعزل شاور عن ولاية الصعيد، فخرج عليه، و قدم من الصعيد عن طريق الواحات، إلى أن وصل إلى تروجة بالقرب من الإسكندرية، فدخلها يوم الأحد الثاني و العشرين من محرم سنة ٥٥٨ هـ.

كان رزيك بخلاف أبيه محبا للخير، و كارها جمع الأموال، و لكنه لم يستمر طويلا في الوزارة، و في أيامه دخلت البلاد في آخر أطوار الضعف و الانهيار نتيجة للصراعات في سبيل السيطرة على الحكم، إذ ثار شاور عليه و استولى على الوزارة منه، دون صعوبة، لأن غلمان أبيه لم يمتثلوا لأمره، و أنضمّ ضرغام و غيره من وجوه الأمراء، و التحقوا بشاور ممّا كان له أكبر الأثر في القضاء على بني رزيك.

شاور:

من ٢٢ من محرم سنة ٥٥٨ هـ. حتى شهر رمضان من السنة المذكورة. هو: أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر ابن شاش بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن ف جيس بن أبي ذؤيب عبد الله، و هو والد «حليمة» مرضعة الرسول الكريم محمد (ص).

أول وزير عربي الجنس يلي الوزارة من وزراء السيوف، و كان طلّاح ابن رزيك قد ولّاه الصعيد الأعلى، ثم ندم على توليته، و لكنه أوصى ابنه بعدم عزله لعلمه بقوته، و لكن ابنه خالف وصيته و عزله، فثار عليه، و استطاع أن يحل محله في الوزارة و يعتقله ثم يأمر بقتله على يد «طى بن شاور».

و ممّا تجدر الإشارة إليه ... أن شاور لمّا وزر جلس في دار الذهب على شط الخليج، فانهالت عليه و على ولديه «طى و الكامل» أموال بني رزيك و ودائعهم من عند الناس حتى كان في الناس من تبرع بما عنده، و افتتحت أمراء «البرقية» .. فضرغام و من معه حزب، و ابن الزبير و من معه حزب، فأما ضرغام فكان أظهر الحزبين لأنه نائب الباب، و لأنه من نفسه و أخوته و أصحابه يشكلون جيشا كبيرا، و أمّا نظراؤه فاختصوا بطى بن شاور فكاثروه و لازموه إلى أن كان من خروج شاور إلى الشام، و قتل ولده طى، و تولى ضرغام الوزارة.

##PAGE=62##

كانت أخلاق شاور في الوزارة مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة و لم يكن فيها أقيح من قتل رزّيك، فإنها سوّدت ما ابيض من عالي قدره، و أعربت عن ضيق عطفه و حرج صدره، فأمّ اكرمه فكان إليه المنتهى، و لم يكن يمسك شيئا و لا يكتنزه. و أمّا الحماسة و شدة البأس فهو في موطن الموت، شديد الثبات، شديد الوثبات.

في رمضان سنة ٥٥٨ هـ. نار ضرغام على شاور، و قتل ولده طي، فخرج شاور إلى الشام لاجئا إلى نور الدين، و في سنة ٥٥٩ هـ. عاد شاور إلى مصر، بعد أن زوّده نور الدين بجيش عهد بقيادته إلى «شيركوه»، فاستطاع أن يهزم ضرغام، ثم قتله في أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ، و بعد ذلك تسلّم الوزارة من رجب سنة ٥٥٩ هـ. حتى ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ، و لم يكد يستقر في الوزارة حتى تنكر لشيركوه، و أخلّ باتفاقه مع نور الدين، و استعان بالصليبيين، و انتهى الأمر أخيرا باحتلال مصر من قبل شيركوه في ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ... و قتل شاور في السابع عشر من الشهر المذكور ... و قد وصف الشاعر عمارة هذا الواقع بهذين البيتين:

من الناس إلّا حائرا يتردد

ألا إن حدّ السيف لم يبق خاطرا

على نفسه أضعاف ما خاف مفسد

ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح

ثم أضاف على ذلك قوله عن السنوات التي قضاها شاور بالحكم بأنها:

«كثيرة الوقائع و النوازل، و أن فيها انكشفت صفحاته، و أحرقت لفحاته، و أغرقت نعماته، و عضّه الدهر و أوجعه التكل و أمضّه، و بان غمره و ثماره و جمره و رماده، و لم يجف من الأنيكاد لبدّه، و لا صفا من الأقداء وردّه، و ما هو إلّا أن تسلمها بالراحة، و سلمت له الهموم عرضا عن الراحة، و حفلت هذه الأيام علاوة على هجوم «الغز» و الإفرنج بشورة قبيلة «لواته». إلى أن يقول:

«لم يربّ أحد رجال الدولة مثل ما رباهم طلائع، و لا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، و لا أموالهم مثل شاور ... فشاور أغرق البلاد في بحر من الفوضى، و أحرق الفسطاط، و تقاتل نور الدين و الإفرنج حتى تمكن شيركوه قائد نور الدين من الاستيلاء عليها، و قتل شاور و أصبح بعد ذلك وزيرا للعاضد.

ضرغام بن عامر الحمي :

من شهر رمضان سنة ٥٥٨ هـ. حتى آخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ.

##PAGE=63##

من أمراء الدولة، و كبار قوادها، و قد كان طلائع بن رزّيك قد أنشأ في وزارته أمراء أطلق عليهم اسم «البرقيّة» و جعل ضرغاما مقدما عليها، فترقى في الخدمة حتى صار صاحب الباب، و لما طرد شاور ولى الوزارة مكانه، و تلقّب «بالمملك المنصور».

مدة وزارته تسعة أشهر، وهذه المدة أطلقوا عليها اسم «الحمل» ...

كان ضرغام على جانب كبير من الشهرة في الأوساط الاجتماعية حتى قالوا عنه بأنه فارس عصره، في الكتابة، وكمال الصورة، وجمال المحاضرة ووحيد دهره، و كان عاقلا كريما، إلّا أنه كان عنيدا لا يصغى لأصحابه، وإذا ظنّ بإنسان شرا جعل الظن يقينا، و في أيامه ذهبت أمراء البرقية قتلا بسيفه و هم : «صبح بن شاهنشاه»، و «الظهير مرتفع، و عين الزمان، و على بن الزبير، و أسد الغازي»، و أقاربهم و هم نحو من سبعين أميرا سوى أتباعهم. فذهبت لذلك هيبة الدولة، و اختلت أحوالها، و ضعفت بذهاب أكابرها، و فقدان أصحاب الرأي، و التدبير فيها.

و أخيرا:

تمكن شاور من هزيمته و قتله في أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ ...

و من الحوادث التي وقعت في عهده : أنه اختلف مع «عمورى» ملك بيت المقدس على ال مبلغ السنوى الذى كان يدفعه الوزراء للإفرنج لقاء عدم إقدامهم على غزو مصر، ممّا دفع ملك بيت المقدس إلى غزو مصر، فأقدم ضرغام على فتح سدود النيل وقت الفيضان. فأغرقت البلاد و اضطرّ عمورى إلى العودة، و لكن ضرغاما لمّا علم بالتجاء شاور إلى نور الدين و طلب معونته، شعر بالندم و بضياح الفرصة لعدم ارتباطه بالصلبيين، فأسرع إلى طلب هدنة دائمة، و زاد فى مقدار الجزية، ممّا جعل نور الدين يتدخل فى شؤون مصر بإرساله حملة مع شاور، و لكن بقيادة شيركوه كما ذكرنا.

شيركوه العاضدى:

من ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ هـ. حتى وفاته ٢٢ جمادى الثانية من السنة المذكورة.

هو كردى الأصل ... كان من أخلص رجال نور الدين. تولّى الوزارة للعاضد بعد مقتل شاور و اشتهر بأنه من القواد البارزين.

##PAGE=64##

و من الجدير بالذكر أنه لمّا انتظمت الأمور لأسد الدين فى الديار المصرية أقطع البلاد للعساكر التى قدمت مع هـ، و كان صلاح الدين ابن أخيه هو الذى يقرر الأمور، و بيده زمام الأمر و النهى.

صلاح الدين بن يوسف بن أيوب:

من ٢٥ جمادى الآخرة إلى نهاية الستين و النصف كوزير، و بعد ذلك استقلّ بالملك.

يعتبر صلاح الدين الأيوبي من الشخصيات الخالدة فى التاريخ، و هذا رأى الكثيرى ن، بينما يرى فيه بعضهم التخلف، و الرجعية و التعصب الدينى الذميمة، اشتهر بشجاعته و قدرته كقائد، و قد قضى الجانب الأكبر من حكمه فى توحيد البلدان الإسلامية ضد الصليبيين، و المراجع العربية و الأجنبية حافلة بأروع الأعمال، و أجل المواقف التى تنسب إليه و لكن الحقيقة هى أن فى تاريخه إهمالا للقضية العربية، حيث كان يحاربها و يقف حجر عثرة فى سبيل تقدمها.

ولد فى تكريت العراق .. والده هو: نجم الدين أيوب، كان قائدا كرديا خدم الخلفاء العباسيين فى بغداد، ثم التحق أخيرا بخدمه الأتابك زنكى، و ابنه نور الدين من بعده .. و من الجدير بالذكر أن صلاح الدين اشترك فى حملات عمه الثلاث على مصر، و اشتهر ذكره فى معركة البابين، و فى الدفاع عن مدينة الإسكندرية، و قد حاولت بعض المراجع التاريخية الإسلامية إبراز موقفه، و رفضه الالتحاق بحملة عمه الثالثة، و أنه جاء مرغما حتى يتم له ما أرادته القدر.

بعد وفاة شيركوه وقع اختيار العاضد عليه لتولى الوزارة، بالإضافة إلى أن وصية عمه أسد الدين شيركوه كانت تنص عليه ... و مما تجدر الإشارة إليه أنه عند ما تمّ له الأمر تاب عن شرب الخمر و أعرض عن أسباب اللهو، و تقمّص لباس الجد و الاجتهاد إلى أن توفاه الله. و يذكر أنه كان يقول:

لما يسّر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه اراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى.

كان موقف صلاح الدين دقيقا، فقد وجد نفسه فجأة وبلا موعد وزيراً لخليفة شيعى، و هذا أبغض الأشياء إليه، و نائباً لملك سنى

##PAGE=65##

يضغط عليه للقضاء على تلك الدولة الشيعية، و العودة بمصر إلى المذهب السنى فى ظل الخلافة العباسية.

لقد استطاع صلاح الدين أن يكسب ودّ الأهلين بكرمه و شخصيته العظيمة، و استعان بمن يثق بهم لإدارة شؤون الحكم، و لما قامت العناصر السودانية بثورتها استطاع بمجهود شاق أن يقضى عليها، و بذلك أصبح القصر فى قبضته، كما تمكن عقب هذه الثورة أن يرد هجمات الصليبيين على دمياط، و انتصر عليهم انتصارا رائعا، و اضطرهم إلى طلب الصلح، و قد كانت هذه الحملة نقطة تحول فى الصراع مع الصليبيين فمنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة القدس تقف موقف الدفاع بدلا من الهجوم الذى كان طابعها من قبل.

و مهما يكن من أمر .. فإن صلاح الدين تمكن ليس فقط من أن يضع يده لا على ثروة البلاد فحسب، بل على كل ما وجدته فى قصور الفاطميين من تحف و جواهر و سلاح.

و يقول المؤرخ المقرئى:

«ما لا يفى به ملك الأكاسرة، و لا تتصوره الخواطر الحاضرة، و لا يشتمل على مثله فى الممالك العامرة، و لا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة».

أما صلاح الدين .. فقد وصف بأنه استطاع أن يثبت حكمه، و استمال إليه القلوب، و جمّع حوله الناس، و تمكن من القضاء على ثورة خطيرة قام بها السودان بتشجيع من العاضد و أتباعه، و بنتيجتها ضعف أمر العاضد، و بعد ذلك أخذ صلاح الدين بتنظيم الأمور و تقوية المذهب السنى، و القضاء على المذهب الإسماعيلى الشيعى و قد دشّن مشروعه هذا بإتلاف التراث الفاطمى المتمثل بالمكتبة الكبيرة.

و لا بد من القول: بأن الصراع ظهر على أشده بين صلاح الدين قبل تسلمه الوزارة من جهة، و بين شاور و ضرغام من جهة ثانية كما ذكرنا، و كان هنالك تنافس بين الصليبيين و نور الدين على امتلاك مصر، و قد عانت مصر من ذلك الصراع الكثير، حتى أن شاور أمر بإحراق الفسطاط، كما أمر بإحراق الأسطول عند ما نزل الإفرنج على بركة الحبش قرب القاهرة، و قد نهبوا فيما نهبوا العبيد. و لما دخل

##PAGE=66##

شيركوه البلاد أصبح الجند من «الغز» إلى جانب الجنود المصريين، و كانت هنالك، و فى ذلك الوقت طوائف من الجنود المصريين و هم:

الريحانيّة، و الفرحيّة من السودان، و الجيوشية، و الوزيرية، و الأرمن، و قد تجمّع من هؤلاء و من العامة ما يقدر بخمسين ألف لقتال صلاح الدين و ذلك بعد قتله مؤتمن الخلافة جوهر، و هو أحد المحنكين الأساتذة فى القصر، و الذى قيل عنه إنه كان يتآمر مع الصليبيين ضد صلاح الدين، و قد استطاع صلاح الدين القضاء على الثائرين قضاء مبر ما: العبيد و الأرمن أو غيرهم على حد سواء و لم يبق على أحد منهم.

نهاية المطاف

يعتبر العاضد آخر فاطمي حكم الديار المصرية، لأن الحكم بعده تحوّل إلى صلاح الدين الأيوبي، و أصبحت مصر مرتبطة بالدولة العباسية فى بغداد، و قد كنا أشرنا سابقا إلى أوضاع الدولة الفاطمية بعد وفاة الخليفة الثامن الإمام المستنصر بالله، عند ما تصدّى للحكم قائد الجيش «الأفضل الجمالى الأرمنى» الذى فرض ابن شقيقته «المستعلى» و هو الابن الأصغر للخليفة الإمام المستنصر بالله، و جعله خليفة و إماما بقوة السلاح، و كان قد أبعده و قتل غدرا الخل يفة و الإمام الشرعى «نزار» و قد كانت هذه المؤامرة الثغرة الأولى فى بناء الدولة الفاطمية فبعدها أخذت الدولة تتخبط فى فوضى عامة نتج عنها ضياع ممتلكاتها، و رضوخها إلى حفنة من المغامرين المتهورين الذين لا يملكون إلّا الرغبة فى الجلوس على كرسي الحكم.

أما بالنسبة للإسماعيليين فإنه لم يبق منهم فى مصر إلّا قلة لزمّت «التقية» و عاشت فى سرية تامة، و أكثرها من النزارية ... أمّا أتباع المستعلى فقد نقلوا نشاطهم بعد زوال عهد العاضد الأخير إلى اليمن، و عاشوا فى هذا القطر حياة العزلة و التستر، فلم يعد يقوم لهم أى كيان سياسى، و كانت أمورهم منوطّة «بنائب» للإمام أطلقوا عليه اسم «داعى مطلق» و رتبة داعى هذا ما زالت حتى يومنا هذا قائمة عندهم، و متوارثة، و يتمتع الداعى بصلاحيات دينية كبرى، منها أنه على اتصال بالإمام «الطيب» و أنه يعرف مكانه، و لكنه لا يحقّ له التكلم عنه ...

##PAGE=67##

الإسماعيلية المستعلية أو البهرة

##PAGE=69##

كنا ذكرنا ... أنه بعد وفاة العاضد الفاطمي، واستلام صلاح الدين الأيوبي شؤون الحكم في مصر .. لم يبق للمستعلية - البهرة - في القطر المصري ما يمكن أن يعزز وجودها، فاتخذت اليمن مقرا لها، وقام بشؤونها الدينية «داع مطلق» أعطى لنفسه صفة النيابة عن الإمام الغائب المستور «الطيب» ... هذا ومن الجدير بالذكر أن المستعلية انقسمت سنة ٩٩٩ هـ إلى فرقتين: داودية و سليمانية، وذلك بعد وفاة الداعي المطلق «داؤد بن عجب شاه». فانتخبت مستعلية كجرات «داؤد بن قطب شاه»، خلفا له، ولكن اليمانيين عارضوا ذلك، وانتخبوا داعيا آخر يدعى «سليمان الحسن» و يقولون:

إن داؤد قد أوصى له بموجب وثيقة لا تزال الفرقة السليمانية تحتفظ بها و نحن إذ نقدم في الصفحات التالية ترتيب دعائهم نقول:

إن الداعي المطلق للفرقة المستعلية الداودية «البهرة» هو: «برهان الدين بن طاهر سيف الدين» و يقيم في محلة «سيفي محل - ملابارهيل - بومباي - الهند». أمّا الداعي المطلق للفرقة الثانية السليمانية المستعلية فهو «علي بن الحسين» و يقيم في مقاطعة «نجران» التابعة للملكة العربية السعودية.

العدد/ اسم الداعي المطلق / تاريخ الوفاء/ الملاحظات

١/ لمك بن مالك / ٥١٠ هـ / من الدعاة الكبار الذين درسوا على المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة، شغل وظيفة قاضي القضاء، و هو من بني حماد من همدان.

##PAGE=70##

٢

العدد/ اسم الداعي المطلق / تاريخ الوفاء/ الملاحظات

٢/ يحيى بن لمك / ٥٢٠ هـ / تسلّم منصب والده لمك. كان تحت رعاية الملكة أروى. له كتاب (فصل في بيان الأرض و ما عليها من المعادن).

٣/ أروى بنت أحمد الصليحي / ٥٣٢ هـ / لعبت دورا كبيرا على مسرح الأحداث، و أدخلت اليمن بكافة أجزائها تحت حكمها القابها ملكة اليمن، و السيدة الحرة، و أروى الصليحي. كان لها ميول نزارية.

٤/ الخطّاب بن الحسن الهمداني / ٥٣٣ هـ / هو أخو الملكة الحرة بالرضاع . كان شاعرا و عالما .. ترك ديوان شعر، و له كتب: غاية الموالي، و منيرة البصائر، و رسالة النعيم و إعجاز القرآن.

بعض علماء المستعليين البهرة لا يدخلون ه ولاء الدعاء الأربعة في عداد الدعاء المطلقين بدعوى أنهم عاصروا عهد استتار الإمام «الطيب».

العدد/ اسم الداعي المطلق / تاريخ الوفاء/ الملاحظات

١/ ذؤيب بن موسى / ٥٤٦ ه / له رسالة النفس، و رسالة معرفة الموجودات.

٢/ إبراهيم بن الحسين الحامدي / ٥٥٧ ه / له كتاب كنز الولد، و الابتداء و الانتهاء، و كتاب تسع و تسعون رسالة في الحقائق.

٣/ حاتم بن إبراهيم الحامدي / ٥٩٦ ه /

٤/ علي بن حاتم / ٦٠٥ ه / له رسالة «روضة الحكمة الصافية، و بستان العلوم الشافية».

##PAGE=71##

العدد/ اسم الداعي المطلق / تاريخ الوفاء/ الملاحظات

٥/ علي بن محمد الوليد / ٦١٢ ه / له رسالة تحفة المرتاد و غصة الأضداد، و جلاء العقول و زبدة المحصول، و الرسالة المفيدة في إيضاح لغز العقيدة، و ضياء الألباب المحتوى على المسائل و الجواب، و ديوان شعر، و كتاب دامغ الباطل و حتف المناضل و كتاب مختصر الأصول، و تاج العقائد و مع دن الفوائد، و مجالس الفصح و البيان و رسالة الإيضاح، و رسالة لب المعارف، و رسالة لباب الفوائد و صفو العقائد.

٦/ علي بن حنظلة الوداعي / ٦٢٢ ه / له قصيدة سمط الحقائق، و ضياء الحلوم و مصباح العلوم.

٧/ أحمد بن المبارك / ٦٢٧ ه

٨/ الحسين بن علي ابن محمد بن الوليد / ٦٦٧ ه

٩/ علي بن الحسين ابن علي بن محمد / ٦٨٢ ه

١٠/ علي بن الحسين ابن علي بن حنظلة / ٦٨٦ ه

١١/ إبراهيم بن الحسين بن علي ابن محمد بن الوليد / ٧٢٨ ه

١٢/ محمد بن حاتم ابن الحسين / ٧٢٩ ه

١٣/ علي شمس الدين ابن إبراهيم بن الحسين / ٧٤٦ ه

العدد/ اسم الداعى المطلق / تاريخ الوفاة/ الملاحظات

١٤ / عبد المطلب نجم الدين / ٧٥٥ هـ

١٥ / عباس بن محمد ابن هاشم / ٧٧٩ هـ

١٦ / عبد الله فخر الدين بن علي / ٨٠٩ هـ

١٧ / حسن بدر الدين ابن عبد الله / ٨٢١ هـ

١٨ / علي شمس الدين ابن عبد الله / ٨٣٢ هـ

١٩ / ادريس عماد الدين بن حسن / ٨٧٢ هـ / له: كتاب عيون الأخبار، و زهر المعاني، و نزهة الأفكار.

٢٠ / حسن بن ادريس عماد الدين / ٩١٨ هـ / له روضة الأخبار.

٢١ / حسين حسام الدين بن ادريس / ٩٣٣ هـ

٢٢ / علي شمس الدين ابن الحسن / ٩٣٣ هـ

٢٣ / محمد عز الدين بن الحسن / ٩٤٤ هـ

٢٤ / يوسف نجم الدين ابن سليمان / ٩٤٧ هـ

٢٥ / جلال شمس الدين بن الحسن / ٩٧٥ هـ / ٢٦ / داؤد بن عجب شاه / ٩٩٩ هـ / بعد وفاة هذا الداعى انقسمت المستعلية إلى فرقتين: داؤدية و سليمانية .. كما هو مبين.

رقم متسلسل / اسم الداعى المطلق للفرقة الداؤدية / تاريخ الوفاة/ الملاحظات

٢٧ / داؤد برهان الدين / ١٠٢١ هـ

٢٨ / شيخ آدم صفى الدين / ١٠٣٠ هـ

٢٩ / عبد الطيب زكى الدين / ١٠٤١ هـ

٣٠ / علي شمس الدين / ١٠٤٢ هـ

- ٣١/ قاسم زين الدين / ١٠٤٥ هـ
- ٣٢/ قطب خان قطب الدين / ١٠٥٦ هـ
- ٣٣/ بير خان شجاع الدين / ١٠٥٨ هـ
- ٣٤/ إسماعيل بدر الدين / ١١١٠ هـ
- ٣٥/ عبد اللطيف زكى الدين / ١١٢٢ هـ
- ٣٦/ موسى كلیم الدين / ١١٣٠ هـ
- ٣٧/ نور الدين محمد نور الدين / ١١٥٠ هـ
- ٣٨/ إسماعيل بدر الدين / ١١٦٨ هـ
- ٣٩/ إبراهيم وجيه الدين / ١١٩٣ هـ
- ٤٠/ هبة الله المؤيد في الدين / ١٢٠٠ هـ
- ٤١/ عبد اللطيف زكى الدين / ١٢١٣ هـ
- ٤٢/ يوسف نجم الدين / ١٢٢٢ هـ
- ٤٣/ عبد العلى سيف الدين / ١٢٣٦ هـ
- ٤٤/ محمد عز الدين / ١٢٣٦ هـ
- ٤٥/ طيب زين الدين / ١٢٥٢ هـ
- ٤٦/ محمد بدر الدين / ١٢٥٦ هـ
- ٤٧/ عبد القادر نجم الدين / ١٣٠٢ هـ
- ٤٨/ عبد الحسين حسام الدين / ١٣٠٨ هـ
- ٤٩/ محمد برهان الدين / ١٣٢٣ هـ
- ٥٠/ عبد الله بن بدر الدين / ١٣٣٣ هـ

٥١ / طاهر سيف الدين / ١٣٨٥ هـ

٥٢ / برهان الدين طاهر / هو الداعى المعاصر و يقيم فى الهند بمدينة بومباى

##PAGE=74##

رقم متسلسل / اسم الداعى المطلق للفرقة السليمانية / تاريخ الوفاة / الملاحظات

٢٧ / سليمان بن الحسن / ١٠٠٥ هـ

٢٨ / جعفر بن سليمان / ١٠٥٠ هـ

٢٩ / على بن سليمان / ١٠٨٨ هـ

٣٠ / إبراهيم بن محمد / ١٠٩٤ هـ

٣١ / محمد بن إسماعيل / ١١٠٩ هـ

٣٢ / هبة الله بن إبراهيم / ١١٦٠ هـ

٣٣ / إسماعيل بن هبة الله / ١١٨٤ هـ

٣٤ / حسن بن هبة الله / ١١٨٩ هـ

٣٥ / عبد العلى / ١١٩٥ هـ

٣٦ / عبد الله بن على / ١٢٢٥ هـ

٣٧ / يوسف بن على / ١٢٣٤ هـ

٣٨ / حسين بن الحسين / ١٢٤١ هـ

٣٩ / إسماعيل بن محمد / ١٢٥٦ هـ

٤٠ / حسن بن محمد / ١٢٦٢ هـ

٤١ / حسن بن إسماعيل / ١٣٨٩ هـ

٤٢ / أحمد بن إسماعيل / ١٣٠٦ هـ

٤٣ / عبد الله بن علي / ١٣٢٣ هـ

٤٤ / علي هبة الله / ١٣٣٣ هـ

٤٥ / علي بن محسن / ١٣٥٥ هـ

٤٦ / غلام حسين / ١٣٥٧ هـ

٤٧ / حسين بن أحمد / ١٣٥٨ هـ

٤٨ / علي بن الحسين / يقيم في نجران - السعودية

##PAGE=75##

دولة الموت الإسماعيلية و النزارية

##PAGE=77##

الحسن بن الصباح: شيخ الجبل

اسمه: الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن الصباح الحميري . ولد سنة ٤٤٤ هـ في مدينة، «قم» بمقاطعة الري ببلاد فارس، و توفي في «الموت» سنة ٥١٨ هـ فيكون قد عاش أربعاً و سبعين عاماً، قضى منها خمسة و ثلاثين عاماً في حكم دولة «الموت» الإسماعيلية النزارية التي أشادها.

ينحدر من أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة همذان اليمينية، و تتصل بملوك حمير اليميين، أما تاريخ قدوم أسرته من اليمن إلى الكوفة فكان قبل مئة عام، و من الكوفة إلى بلاد فارس فيما بعد، فلا يمكن تحديده، أو توضيح أسبابه.

ألقابه: شيخ الجبل، و الداعي الأكبر، و حجة الموت، و المعلم، و يكتنى:

بأبي محمد و تجمع المصادر التاريخية على القول : بأنه نشأ في بيت علم، و أدب، و وجاهة ... في ظل أسرة عرف عنها بأنها شيعية، و هناك من يقول: بأنها زيدية، و آخر، بأنها إثنا عشرية.

وصفه صاحب كتاب «فصول و أخبار» الإسماعيلي، فقال:

«إنه كان شاباً وسيماً، و جريئاً، عزيز النفس، لا يبالي بالصعاب، و يأنف من الصغائر، و كان فصيح اللسان، عذب الصوت، يؤثر في السامع، و يجبره على الاستسلام إلى افكاره ... و قد وهبه الله من الذكاء النادر أثقبه، و من الذهن المتوقد أكمله، و أعطاه كل ما يمكن أن يعطيه لمؤسسى الدول العظام من جرأة، و عظمة و ذكاء».

و لا بد لنا و نحن نكتب سيرة الحسن بن الصباح من أن نعرِّج و لو هنيهة على تاريخ نظام الملك فنقول:

ذهب نظام الملك بعد تخرجه من خراسان إلى ما وراء النهر، ثم انتقل إلى غزنة و كابول، و برجوعه عيّنهُ السلطان السلجوقي «ألب ارسلان» وزيراً، فقام بالمهمة خير قيام.

ففى إحدى مقابلات السلطان ألب ارسلان مع نظام الملك جرت المحادثة التالية ... قال السلطان ألب ارسلان لوزيره نظام الملك، و كان قد أرسل بطلبه:

«أى وزيرنا العزيز ... طلبتك فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح، لأستوضح منك عن بعض القضايا التى تهتم دولتنا .. إن أوضاع الدولة المالية قد أصبحت فى حالة من التدهور الخطير، و قد عجزنا عن إيجاد العلاج الناجع ... فهناك عجز مالى كبير، و نفقات تزيد على الواردات، و هذا كان من الواجبات الملقاة على عاتقك باعتبارك الوزير الأول المسؤول فى الدولة، و لكنى مع كل أسف لم أجد أية بادرة تدل على اهتمامك بهذا الأمر، فأجاب الوزير نظام الملك:

إننى يا مولاي أعلم بكل ما قلته، و إنى أشعر بهذا العجز المالى الذى يهدد الدولة ... و فى الحقيقة: لم أتوان ساعة واحدة عن تنفيذ أوامرك الحكيمه، و وصاياك الثمينه، و الدليل على ذلك أنى استدعيت أحد الأخصائيين فى علم الحساب لمراجعة موازنة الدولة، و وضع المخططات و القواعد الثابتة ...

و جاء هذا الخبير من البلاد المصرية، و لكنه بعد اسبوعين من الدرس و البحث أعلن عجزه عن اكتشاف الداء، و إيجاد العلاج، فعاد من حيث أتى يجر أذيال الخيبة و الفشل.

هذا صحيح .. و ما ذا علينا أن نفعل بعد ذلك؟

إننى أعرف شاباً يسمى «الحسن بن الصباح» و من الممكن أن يقوم بهذه المهمة، فهو من العلماء النوابغ بعلم الحساب و الأرقام، و صاحب أكبر عقلية رياضية فى عصرنا الحاضر، و لكنى لم أستدعه حتى أقف على رأى مولاي و بعد موافقته .. فهذا الرجل الرهيب ذو ميول ثورية انقلابية و طموح للحكم و عقلية تكاد تكون شاذة و غريبة.

هذا لا يهمنى .. بقدر ما يهمنى إصلاح أمور الدولة.

.. فنحن نريد إنقاذ الدولة من الحالة المتردية التى هى الآن فيها.

إذن لا يرى مولاي مانعا من استحضاره، و العهدة إليه بتنظيم شؤون الدولة المالية؟ كلاً و يجب أن أراه حين يأتى لهذا الغرض.

سوف أرسل إليه غدا رسولا يبلغه رغبة مولانا .. فقد علمت أنه الآن فى ضواحي «قزوين» يعيش فى تلك الربوع.

لم يتمكن رسول الوزير نظام الملك من العثور على الحسن بن الصباح في أرجاء قزوين فعاد أدرجه .. فالحسن كان في مكان آخر، وعند ما عاد إلى قزوين أخبروه برسول نظام الملك، فأسرع الخطى و توجه إلى عاصمة الدولة السلجوقية، و لكنه أخبر و هو في الطريق بوفاة السلطان ألب ارسلان متأثرا بجراحه، و المناداة «بملك شاه» سلطانا مكانه ... أما قصة وفاته فهي كما يلي:

كان السلطان ألب ارسلان مشغولا بالحرب مع الأتراك، و عند وصوله إلى مقربة من نهر جيحون، أحضروا إليه أسيرا يسمّى «يوسف ترمزى» و كان قائدا على حصن من الحصون، و قد صمد بوجه رجال ألب ارسلان فترة ثم استولوا عليه أخيرا عنوة بعد معركة حامية، و قد اغتاز ألب ارسلان من هذا الرجل فأمر رجاله أن يحضروه إليه، و أن يبسطوه أمامه على الأرض، و أن يشدوا رجليه و يديه إلى أربعة أوتار مثبتة في الأرض، و أن يتركوه على هذا الحال حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، و عند ما استمع القائد الأسير إلى هذا الحكم القاسى أرغى و أزيد و شتم السلطان، ثم أخذ يبكي، و يصيح، فاستولى الغضب على السلطان ألب ارسلان و أشار إلى رجاله أن يبتعدوا عنه بعد فك وثاقه، و أسرع إلى قوسه و رماه بسهم قاتل، و لكن المهارة التي امتاز بها فى الرماية خانتها، فهجم الأسير بعد أن وجد نفسه طليقا على ألب ارسلان و جرحه جرحا مميتا فى خاصرته بخنجر كان يخفيه فى طيات ثيابه، و قد حدث كل هذا فى سرعة خاطفة .. و أخيرا قتل الأسير، أما السلطان ألب ارسلان فقد ظلّ حيا بعد إصابته مدة يومين، ثم أسلم الروح، و كان قد أوصى لابنه «ملك شاه» بالملك، و إلى ولده «اياز» بولاية بلخ ما عدا قلعتها أما ولده «قاورت» فقد ترك له ولاية كرمان.

وصل الحسن بن الصباح إلى مقر السلطان ملك شاه فى مدينة أصفهان . فمضى بخطى ثابتة، رافع الرأس، شامخ الأنف، و عند ما وصل إلى القاعة الملكية قدّم مراسم التعازى، و التهانى، و بعد أن عرف السلطان باسمه، حاول الرجوع، و لكن السلطان قال له:

يجب أن لا تذهب من أصفهان قبل أن ترانى، و لا بأس أن تأتى غدا فى مثل هذه الساعة إلى القصر و تدخل علىّ.

«كما يريد مولاي السلطان».

##PAGE=80##

و فى اليوم التالى قابل الحسن السلطان فخاطبه بقوله:

«إنى آسف جدا، لأن مليكنا الراحل تمنى أن يراك قبل موته، و قد حدثنى عن رغبته هذه مرات عديدة ... و الآن قل لى يا حسن ... إن الدولة السلجوقية أصبحت بحاجة ماسة إليك الآن، فهل أنت على استعداد للعمل فى خدمتها؟

و متى كان الحسن يتهرب من خدمة الواجب الإنسانى، أو يأبى الانضواء تحت لواء دولة يعيش حرا فى ظلها ... «أجل .. إنى على أتم استعداد لخدمة الدولة السلجوقية و سلطانها العادل ملكشاه».

«أريد يا حسن .. أن أعهد إليك بتنظيم شؤون مملكتنا المالية و وضع قواعد ثابتة للصادرات، و للواردات .. فإنى أعتقد أن هذه الناحية تسير فى طريق متعرج. فالأيدى الفاسدة تتلاعب بثروتنا و مقدراتنا، و تكاد تؤدى بنا إلى سوء المصير».

كان نظام الملك حاضرا الاجتماع ... و أخيرا: خاطب السلطان ملك شاه وزيره نظام الملك قائلا:

«هذا هو الحسن أيها الوزير ... فسلم إليه كما اتفقنا كل ما يلزم لتسهيل مهمته»، وهكذا مضى على الحسن بن الصباح ما يقارب الشهرين و هو جاد في عمله، يضع التقاويم و يصلح الأخطاء، و يضبط الحسابات، و يصدر التعاليم إلى الموظفين و المسؤولين، و خلال تلك الفترة القصيرة تمكن من الحصول على أصدقاء عديدين من كبار القواد و الموظفين، فحاز على إعجابهم و تقديرهم و أصبح موضع أحاديثهم، و إشاراتهم، مما ادخل الحسد في نفس الوزير نظام الملك . فخاف على مركزه منه خاصة بعد أن سرت إشاعة في أروقة القصر بأن السلطان ملك شاه سيجعله وزيرا للخزانة . فدخل نظام الملك على السلطان و قال:

جئت يا مولاي لأنعم بالمثل بين يديك، و غايتي أن أعرض على جلالتك أمرا بمنتهى الخطورة، لهذا فإن كل تهاون يبدو منّا يؤدى بالدولة إلى عواقب و خيمة.

و ما ذا جرى أيها الوزير؟

«لقد بتّ أعتقد يا مولاي أن «الحسن بن الصباح» الذى أوليناه ثقنا، و وضعنا بين أيديه مقدراتنا، و جع لناه في مركز كبير في دولتنا، لن يغادرنا إلا بعد أن يحول الدولة إلى رماد، و يجعل العرش الذى تعب آباؤك و أجدادك فى بنائه أثرا بعد عين».

و ما ذا فعل الرجل حتى استحق كل هذا الغضب؟

إنه فى كل يوم يقوم بعمل جديد، و يبتدع فكرة حديثة من شأنها إشاعة

##PAGE=81##

الفساد فى البلاد و الحقيقة : أنه يتآمر على سلامتكم، و سلامة الدولة، و عندى أن وجوده أصبح يشكل خطرا كبيرا على البلاد، و قد تأكدت من تأثيره على عدد كبير من المستخدمين، و قواد الجيش، و الحرس الملكى.

مضافا إلى ذلك تأثر بعض رجال الطبقة العليا فى المجتمع و يجب أن لا يستغرب مولاي إذا ما قلت له أن بعض الوزراء قد وقعوا تحت سيطرته الفكرية.

«و كيف تمكن من تحقيق كل ما ذكرت فى هذه الفترة القصيرة؟»

«إنه يا مولاي ... على جانب عظيم من الذكاء ... فعينى لم تر أفصح منه لسانا و لا أقوى حجة، و أركز منطقا، و أوسع معرفة، و أعمق تفكيراً. إنه يلم بكافة العلوم، و يجيد التكلم بعدة لغات، و يعلم الفلسفة، و المنطق، و الإلهيات، و الطبيعيات، و علم التفسير، و التأويل، و الفلك و الجبر، و الهندسة، و لا شك أنه ذو تأثير غريب على السامع حتى أن المستمع إليه كثيرا ما يتمنى أن لا يفارقه و هو على جا نب كبير من معرفة علم الفراسة و الهيئة، و القدرة على قراءة الأفكار، و معرفة الطبائع، و التأثير، و السيطرة على من يستمع إليه، و إدخال الشك و الارتباب إلى قلبه متى أراد فضلا عن الترغيب، و التحكم، و التأسيس، من عالم إلى آخر ... و كل هذا معناه طموحه بإقامة دولة يكون فيها صاحب الكلمة الأولى».

إن ما ذكرته يدل على عظمة الرجل، و لكن ألا ترى أننا بحاجة إليه و أننا جئنا به إلى هنا لكي نستعين بعلمه و مواهبه في تنظيم شؤون الدولة المالية و رسم القواعد التي تخرجها من العجز و الانهيار، فإذا ذهب الآن فمن يقدر على إنجاز المهمة الخطيرة؟

اطمئن يا مولاي .. فإن الأعمال التي أوكلنا إليه القيام بها قد أصبحت جاهزة و تامة، و يوم أمس سلمنى التقويم و المخططات، و شرح لى كل ما يتعلق بهذا الأمر.

و كيف وجدتها؟

الحقيقة يا مولاي .. أن عمله المنجز رائع، و من إبداع عقل خلاق، و إننا إذا ما طبقنا بنوده فنكون قد وصلنا إلى ما ننشده من آمال.

حسنا ... فماذا تريد أن نعمل الآن؟

أرى ... أن لا يبقى فى أصفهان يوماً واحداً يا مولاي ... خاصة بعد أن أنهى عمله ... إنه يشكل خطراً على الدولة، و يقوم بأعمال جبارة من شأنها تعريض دعائم الملك للانهيار لذا أرى ... أن تستدعيه إلى مجلسك يا مولاي، و تطلب إليه مغادرة أصفهان، بعد أن تشكره على خدماته. و تمنحه مكافأة مالية.

##PAGE=82##

- أنا لا أرى لاستدعائه سبيلاً بلّغه أنت رغبتنا أن يترك العمل فوراً .. و قل له إن مولانا السلطان أراد أن يراكَ ليُقدم لك شكره و امتنانه على الخدم ات التي أدّيتها للدولة، و لكن و عكةً صحيّةً فجائيةً أمت به، و قد أنابنى عنه بتقديم هذه المكافأة المالية.

إبعاد الحسن

خرج «الحسن بن الصباح» من بلاط السلطان ملكشاه، و فى أعماقه من الألم و الحقد على نظام الملك ما لا يمكن وصفه، و قد ظهر ذلك جلياً عند ما رفض استلام المكافأة المالية، و كان يعلم أنه ذهب ضحية مؤامرة نظام الملك . فأقسم على الانتقام. و خرج دون أن يفكر فى الانتظار، أو مناقشة الوزير ... و من أصفهان أخذ طريق الرى و كان قد عقد العزم أن يقوم برحلة طويلة فى أرجاء فارس، و عند وصوله إلى مدينة الرى نزل فى أحد ا لخانات، و تشاء الظروف أن يلتقى بصديقه الداعى الإسماعيلى «ابى النجم» الذى كان يقوم بإحدى المهمات فى تلك الجهات، و لم يمض على الحسن سوى ثلاثة أيام حتى أصيب بمرض خطير مفاجىء . فعاهد الله أن يقوم بزيارة مصر و مقابلة الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله إذا من الله عليه بالشفاء، و بعد أن شفى من مرضه بفضل جهود أبى النجم السراج، و رفيقه «الأمير الضراب» و غيرهما من الذين سهروا عليه، و ساعدوه حتى اجتاز مرحلة الخطر، و بعد أن استعاد صحته خرج من الرى، و بينما كان فى الطريق إلى إحدى القرى التقى بالداعى الاسماعيلى الأكبر «عبد الملك بن عطاش» الذى باركه و حيّاه، و أعطاه توصية إلى الداعى الاسماعيلى المصرى «أبى داؤد» و ذلك بعد أن أخبره أنه فى طريقه إلى القاهرة.

وصل الحسن إلى القاهرة بعد جهود مضيئة، ومشقات عرضت له في الطريق، و بعد أن نجا أكثر من مرة من الأعداء الذين أقامهم الوزير نظام الملك و كلفهم بقتله، و ذلك بالاتفاق مع العباسيين و أعوانهم في بغداد، و كان الحسن قد جاهر بعداوتته للوزير نظام الملك بعد خروجه، من أصفهان، و أرسل إليه يتهمه، و يتوعده بالتأثر حينما تسنح الفرصة.

و في القاهرة «المعزيّة» حظى برعاية الداعي «أبي داؤد المصري» الذي أكرم وفادته و قرّبه، و سهّل له التعرف على كبار الناس في

##PAGE=83##

القاهرة، و في طليعتهم ولى عهد الإمامة الفاطمية «الأمير نزار بن المستنصر بالله» الذي محضه أيضا ثقته و محبته، و مهّد له السبيل للمثول بين أيدي الخليفة المستنصر بالله أكثر من مرة، و كان الخليفة، و منذ اللقاء الأول، قد توسّم فيه الخير.

أثارت تحركات الحسن بن الصّباح في القاهرة، و اتصالاته و ما توصل إليه من المكانة و الشهرة في تلك الفترة القصيرة، الريبة و الحسد في نفس قائد الجيش «بدر الجمالي». فأضمر له الشر. و كانت قد جرت اتصالات سرية بينه و بين نظام الملك، و أرفقها بهدايا ثمينة، و أموال، و نصائح بضرورة الاتفاق على خطة للتخلص من هذا الرجل الخطير الذي لم ينزل القاهرة إلا و في نيته إبعاد الجمالي عن الحكم. و كل هذا عجلّ بالطلب إلى الحسن أن يعدّ العدة للذهاب إلى بلاد النوبة حيث أن الدعاية للمذهب الإسماعيلي قد تتمر في هذه الأيام، و كان الجمالي على ثقة بأنه إذا ذهب فلن يعود، لأن من سبقه إلى تلك البلاد من الدعاة قد لاقوا حتفهم على أيدي بعض المتمردين الذين يكرهون كل ما يمت إلى الإسلام بصلة. فلما تلقى الحسن الأمر، ذهب إلى الأمير نزار لتو ديعة، و لكن نزار أدرك المؤامرة، فأمره بالتريث و ذهب به إلى مقر الخليفة الإمام المستنصر بالله، حيث عرض أمامه صورة عمّا يقوم به أعداء الحسن من مؤامرات للتخلص منه.

فأصدر الخليفة أوامره على الفور بضرورة الإبقاء على الحسن بن الصّباح في القاهرة تحت تصرفه استعدادا لإيفاده في مهمات خاصة.

و مهما يكن من أمر ... فإن المصادر التاريخية الإسماعيلية أجمعت على القول بأن الحسن بن الصّباح أقام مدة ثمانية عشر شهرا في القاهرة، و عادت هذه المصادر لتذكر أنه شهد وفاة الداعي الأكبر «المؤيد في الدين - هبة الله الشيرازي» كما شهد وفاة أمير الجيوش.

«بدر الجمالي» و تنصيب ولده «الأفضل» مكانه ... و تضيف تلك المصادر بأن الداعي الإسماعيلي الكبير. «عبد الملك بن عطاش» تمكن أثناء وجود الحسن في القاهرة من الاستيلاء على بعض القلاع و الحصون في منطقة «قروين» الفارسية و هي: شيركوه، و خوش، و قائبين، و الناظر ... كما أنه سيطر على بعض القرى من منطقة أصفهان، و منها بلدة «دستكور» التي افتتح فيها مدرسة لتعليم

##PAGE=84##

الطلاب و المستجيبين قواعد المذهب الإسماعيلي و أصوله، و هذا النشاط حرّك نظام الملك و السلجوقيين، فارسلوا جيشا قويا لمقاتلة الإسماعيليين الذين قد ظهوروا فجأة بقوة عسكرية، و بعد معارك عديدة قتل الداعي الكبير ابن عطاش، و

عند ما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، أمر الحسن بن الصباح بالذهاب إلى فارس لإنقاذ الموقف بعد أن منحه رتبة «داعي جزيرة» وبذلك خلف ابن عطاش في بلاد فارس.

وصل الحسن إلى بلاد فارس، بعد أن تعرّض للمصاعب أيضا، ولعدة كمائن أعدّها أعداؤه مرة ثانية، وأقاموها بوجهه قصد التخلص منه. فأخذ يقوم بتجميع قواه، و بذل نشاطه و تمرين فدائيته، و إعدادهم للمعركة الكبرى المتوقعة، و هذا التحرك لم يخف على نظام الملك . فأخذ أيضا يوغر صدر السلطان ملكشاه السلجوقي على الحسن و على الإسماعيليين، يعاونه في ذلك العباسيون في بغداد، الذين حسبوا أكثر من حساب لظهور هذا النشاط فجاء في منطقة تعتبر من مناطق نفوذهم . و لكن الحسن كان يرقب فجرا وعده الله به، فكان يقول لرفاقه و مؤيديه و فدائيته:

لا بد أن ينبلع هذا الفجر قريبا، و يمنحنا تورده و زخرقة طلعتة الحياة الجديدة في هذه البلاد ... فهذا الفجر بدأ يتنفس، و سوف نستظل نحن الذين سنرت هذه الأرض التي رويناها بدماء شهدائنا، و غدا سنكون أحرارا فيها، كهذا النسيم العذب ... و اعلموا: أن المجد الذي نخطط له أصبح يمشى في موكب من العزة و الجلال فوق الرؤوس و العصور البعيدة و المستقبل، و من وراء هذه الشمس الغاربة.

كان الحسن سريع التنقل من مكان إلى آخر، يحيط أعماله بالكتمان الشديد، يعاونه دعاء أعلام على درجة عالية من الثقافة و المرونة. ففي فترة قصيرة تمكن من الوصول إلى ما تمناه . فانضم إليه العديد من أبناء الشيوخ و الأمراء، و المدرسين و الأغنياء، فضلا عن العمال، و الصناع، و رجال الأعمال، و أقام الحلقات السرية و الخلايا للدعاية و للمراقبة، كما تمكن من استقطاب بعض العلماء و رجال الدين من

##PAGE=85##

الشباب الذين أناط بهم ملاحقة رجال الدين الشيوخ من أصحاب المذاهب، و الطرائق الأخرى.

أجل لقد حصر الحسن بن الصباح مهمته بتنفيذ الأفكار و المبادئ الهادفة إلى القضاء على المجتمع الفاسد، و هدم كل ما يحوطه ليقوم على أنقاضه مجتمعا صالحا مستقيما تكون قيا دته الزمنية و الروحية معقودة اللواء للأئمة الفاطميين . فهو لاء العباسيون و أعوانهم قد ملأوا الأرض فسادا و طغيانا و أصبحوا بعد ذلك في حالة يستحقون معها الموت.

كان الصباح تاريخا كاملا، و سفرا من أسفار البطولة . بل كان الرجولة و الكرم و الوفاء .. إنه النسرة الجرىء الذى لا يمل الصعود فى السماء، و لا تنبيه أية عقبه عن التحليق فى الأعلى ..

«لقد مات مولانا أمير المؤمنين الإمام المستنصر بالله أيها الداعي الرفيق، و وقعت الفتنة الكبرى فى مصر بين أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى، و بين ولي العهد الأمير نزار بن الإمام المستنصر بالله ... إن الاخبار التى وردت إلينا تؤكد : بأن الأفضل تمكن من إحراز التفوق بعد معارك عديدة وقعت فى مدينة الاسكندرية، و ذكر أن الأفضل فى خاتمة المطاف تمكن من القبض على الأمير نزار، و اخوته و أولادهم، و زجهم فى أحد سجون القاهرة».

كلمات قالها الداعي «مؤمن» للحسن بينما كان يقوم بجولة في منطقة بخارى فعقد الخبر لسانه و استسلم إلى السكون، و الاغراق في الصمت، و عند ما استفاق من ذهوله قال لمؤمن:

«هذا ما كنت أتوقعه أيها الرفيق . و الآن: عليك أن ترسل رسلك إلى كافة الدعاء للحضور إلى الرى، و قصدى إبلاغهم أوامر جديدة».

بعد حضور الدعاء إلى الرى . اجتمع إليهم الحسن، فقصّ عليهم الخبر، و سلّم إلى كل منهم المهمة التي يصلح لها، و طلب إليهم حصر اهتمامهم بمنطقة قزوين، و إعداد المقاتلين الشباب.

وصل الحسن إلى الرى و شرع، على الفور بالعمل، و أخذ يعد الخطة لإقامة الدولة النزارية التي يحلم بها و المناداة «بعلی الهادى بن نزار بن المستنصر بالله» إماما و قائدا، فطلب دعائه، و وجههم، و أعطاهم التعليمات القاضية بتنظيم أمور أتباعه، و إعداد المقاتلين للمعركة المتوقعة بينه و بين السلجوقيين و العباسيين.

##PAGE=86##

و هكذا لم يمض عليه سوى فترة قصيرة حتى استولى على القلاع التالية:

دزكوه، شاه ذر، خان لنجان، قائين، زوزن، خور، خوسف، شمنكوه، استوناوند، اردهن، كردكوه، الناظر، طنبورك، خلادخان، و قلاع وادى «الموت». أمّا الموت فجعلها قاعدة لدولته، و جعل إقامته فيها، و منها أخذ يقوم باتصالاته، و تنظيم فدائيته التي لم تلبث أن اربعت الملوك، و أدخلت الرعب إلى قلوبهم.

هذه التحركات الإسماعيلية أثارت الوزير نظام الملك، و هو المعروف بحفده على الحسن بن الصباح، فأوغر صدر السلطان ملكشاه، و حرّضه على الحرب، و القضاء على هذه المنظمة الإرهابية التي اتخذت أماكن لها فى أعز و أمنع الجبال تمهيدا لاستئناف زحفها على كل بلاد فارس.

و مهما يكن من أمر فإن أوامر ملكشاه صدرت أخيرا إلى الجيش بالتحرك و الاستعداد للزحف على الموت، و القضاء على الحسن، و تشاء الأقدار أن يخرج السلطان كعادته للقيام برحلة صيد فى ضواحي بغداد، و بين ما كان على أحسن حال يمارس هوايته المفضلة أصيب بعارض فجائى قيل إنه «الحمى» الدماغية التي لم تمهله سوى بضع ساعات، ففضى مأسوفا عليه.

بعد موته تسلم الملك ولده «محمد» الأول الذى أراد أن لا يخالف خطط والده، فأصدر أوامره بالزحف على «الموت» و قبل أن تتحرك جيوشه، قتل الوزير نظام الملك اغتيالاً و كان قد ارتدى ثياب الصوفية البالية، و جاء إلى مقر نظام الملك طالبا الأذن بالمشول بين يديه لوعظه، و بعد أن اختلى به عاجله بخنجر و تركه مضرجا بدمه.

و هناك رواية أخرى تقول بأن زوجة ملكشاه السلجوقى ترکان خاتون قد دبرت مقتل الوزى ر نظام الملك بسبب تدخله فى مسألة ولاية العهد التي كان يطمح إليها ابنها بركيارق و أخوه محمد شاه.

وصلت الجيوش السلجوقية إلى قلاع الإسماعيلية النزارية، و بدأت المعارك العنيفة بين الفريقين، ثم أخذت تشدد ضراوة يوماً بعد يوم، و بينما كانت الحرب على أشدها، جاء من أخبر قواد الجيش السلجوقي بمقتل السلطان محمد الأول فجاءه اغتيالاً من قبل

##PAGE=87##

مجهول، و عندئذ كان لا بد للجيش السلجوقي من التراجع و العودة من حيث أتى.

و انكفأت جيوش السلجوقيين عن أبواب الموت مولية الأذبار تندب رجالها الذين سقطوا قتلى تحت أسوارها المنى عة، و تبكى قوادها الذين ماتوا في سبيل غاية عمياء - وجههم إليها الوزير نظام الملك . لقد انكفأت تلك الجيوش عن قلاع الإسماعيليين عائدة إلى موطنها مشتتة البال، قلقة خاطر، تتنازعها الأفكار، و تعصف بها التيارات . انكفأت أمام جيش الحسن القائد البطل الذى خرج من حصونه، و من قمم الجبال، و من مقره يأمر فدائيته بالوقوف على المعابر و المسارب و الشعاب الضيقة، و على مسالك الطرق يحصى على الغزاة أنفاسهم دون أن يلحقه أى تعب عند ما ينحدر من الأعلى و المرتفعات، أو عند ما يصعد من الأودية لملاقاة العدو المهاجم.

عاد الجيش و كان سنجار ابن السلطان ملكشاه قد تسلّم الملك بعد موت أخيه محمد، فجرّد حملة ثانية، و اندفع نحو قلاع الإسماعيليين، و لكنه فى منتصف الطريق توقف، و أمر جيشه بالعودة، بعد أن أصبح ذات يوم فى خيمته، فرأى خنجراً ملوثاً بالدم، مكتوباً عليه «الحسن ابن الصباح» على مقربة من فراشه.

أما أبناء نظام الملك، و أكبرهم أحمد، فقد قتل فى أحد شوارع بغداد بخنجر أحد المجهولين الذى فرّ دون أن يتمكن أحد من القبض عليه.

أما الثانى و هو «فخر الملك» فقد قتل أيضاً.

بعد هذه الانتصارات الرائعة التى حققها الحسن فى تخلصه من أعدائه الواحد تلو الآخر . و خاصة نظام الملك و أولاده و السلجوقيين حلفاء بنى العباس الذين هم فرع من «الغز» الأتراك الذين أغاروا على حدود فارس الشرقية و الشمالية منذ منتصف القرن الرابع للهجرة.

و قد اتفق المؤرخون على القول : بأن جدّهم الأول كان يسمى «تقاق» و معناه «القوس» و هو والد «سلجوق» الذى كان أول من اتخذ الإسلام ديناً بين قومه . و جاء فى بداية أمره من تركستان إلى ما وراء النهر مع قبائله، فجعلوا مشاتهم فى «نور» على مقربة من «بخارى» و مصيفهم قريباً من «سمرقند» و بعد سلجوق جاء ولده «ميكائيل»

##PAGE=88##

فأعقب ثلاثة من الملوك المشهورين و هم «طغرل» و «ألب ارسلان» و «ملكشاه» ... و فى عهد ملكشاه امتد سلطانهم من حدود الصين إلى حدود الشام، و من أقصى بلاد المسلمين شمالاً حتى حدود اليمن جنوباً، و قد دفع لهم أباطرة الروم الجزية، و استطاعوا أن يضموا إليهم دولتين كانتا من أهم الدول و هما : الغزنوية - و البويهية، و عند ما دعى ملكشاه إلى

تولى عرش الملكة العظيمة التي أسسها أبوه، و عم أبيه، لم يكن له من العمر أكثر من سبع عشرة أو ثمانى عشرة سنة، و ما لبث بعد توليه العرش أن ظهرت أمامه بعض المتاعب و الشدائد، فتغلب عليها الواحدة إثر الأخرى . و من الواضح أنه كان لوزيره الأول «نظام الملك» الفضل الكبير فى التغلب على الأزمات.

زار ملكشاه مدينة بغداد مرتين أثناء حكمه، و استصحب معه وزيره نظام الملك و زوج ابنته «زليخا خاتون» من «محمد بن شرف الدولة» و أقطعه الرحبة، و حران، و سروج، و الرقة، و الخابور، كما زوج ابنته الثانية أيضا من الخليفة العباسى نفسه أما الزيارة الثانية فقد حدثت قبل سنة من وفاته.

و مهما يكن من أمر ... فإن الأمبراطورية السلجوقية بلغت فى عهده ذروة الازدهار و القوة و علو الشأن، و كانت مدينة أصفهان أحب المدن إليه، فقد اتخذها مكانا لإقامته و موضعا لكرسى ملكه، و زينها بجملة من المباني الجميلة، و الحدائق الغناء، حتى أصبحت مدينة جميلة مشهورة بموقعها الذى كان يستهوى الأنظار، القائم على أرض مستوية ذات ماء عذب، و هواء عليل. و كان لها سور مرتفع له بوابات على الأبراج يجلس فيها الحراس و المقاتلون إبان الحروب.

جلس الحسن بن الصباح فى زاويته البسيطة فى قلعة «الموت» المطل على بحر «قزوين» و على جبال طالقان المتوجة قممها أبدا بالثلوج، فشكر الله على ما هياه له من نصر، و استعرض شؤون دولته الفتية و قلاعه الجبارة، و جيشه الذى تعب كثيرا فى سبيل تنظيمه و إعداده و نفخ روح التضحية، و الفداء فيه، و خاصة الفرقة «الفدائية». و فى هذه العقيدة الإمامية الفلسفية الهادية التى أوكل إليه الخليفة الإمام المستنصر بالله أمر تعميمها فى هذه الديار،

##PAGE=89##

و غرس بذورها فى أفكار الناس، ثم عاد أخيرا إلى المدينة الفاضلة «الموت» التى شادها و حصنها، و أدخل التعديلات عليها، و هى التى طالما تخيلها، كما وصفها الحكماء و الفلاسفة و الشعراء.

و ظل مستمرا و غارقا فى بحر عميق من التفكير، و لم يحس بالبرد القارس و لم يذهله القر الشديد الذى يسود كل مكان فى القلعة، بل طاف خياله من جديد فى السفوح، و الأودية، و الجبال، و لفح جيئه ريح بارد جعله مع خياله يطوف بالروابي و المرتفعات مفتشا عن كنف يقىء إليه، و ناحية يستريح على أرضها، و كانت الذكرى تعودته فترة بعد الفترة فتضع أمامه صورة عن شواهد الجبال، و الألوان، و كل هذا حمل إلى نفسه الغزاء و خاصة عند ما عرضت أم ام عينيه المعارك اللأهبة التى قادها ضد السلجوقيين، و انتصر فيها على قواتهم الكبيرة . و حانت منه التفاتة إلى الجهة الجنوبية من باب الزاوية فرأى خادمه الأمين يقف على مقربة منه لحراسته و يتطلع يمنة و يسرة .. فناداه:

«اريدك أن تذهب الآن، و تحضر معك «زاده أسد» و «حسن بن سعيد» فلم تمض سوى فترة قصيرة حتى كانا يقفان أمامه ... فقال لهما:

«دعوتكما الآن لأمر هام جدا ... يتوقف عليه مصيرنا، و مستقبل دولتنا و أمتنا و عقيدتنا، و هو على جانب كبير من السرية، و بما أنكما موضع ثقتي، فقد وقع اختيارى عليكم من بين كافة الدعاء فما ذا تقولان؟

قالا: «لا جواب عندنا سوى الطاعة و العزم على التنفيذ.»

قال: لا شك عندي بأنكما تعلمان ما آل إليه مصير مولانا الإمام نزار، و ما اقترفه الطاغية الأرمنية الأفضل بن بدر الجمالي من جرائم بحق الأسرة الإمامية ... فهذه القصة باتت معروفة لدى الخاص و العام، أما الأمر المجهول الذي أريد أن يبقى سرا من الأسرار .. فهو أنني عند ما ذهبت إلى القاهرة المعزية كان همى أن أعمل على إشادة عرش للإمام على الهادى بن نزار بن المستنصر، لأنى على ثقة بأن الله لا يخلى الأرض من إمام مسؤول يضطلع بمهام جده الرسول الأعظم محمد (ص) بالحفاظ على الشريعة، و تطبيق قواعد الإسلام .. و بالفعل ساعدنى الله فعثرت على «على الهادى» مع والدته فى منزل أحد دعائنا النزاريين المسمى «عبد الإمام» فى بلدة «بلييس» فقابلته، و بايعته و أوصيت به خيرا. و بما أن الوقت الآن قد أصبح سانحا، و عرش «الموت» الإسماعيلى النزارى ينتظر من يجلس عليه من ذرية الإمام نزار بن المستنصر بالله، فإنى دعوتكما

##PAGE=90##

إلى، و غاييتى أن أعلن لكما، اعتمادى عليكم، و تقبلى التامة بكما أجل ...

أردت أن ألقى على عاتقكما مهمة سرية تقضى عليكم بالذهاب إلى البلاد المصرية بصورة سرية لإحضار الإمام على الهادى مع والدته إلينا ...

فعدنا عدتكما للسفر فى ساعات الصباح، و إنى سأهى لكما كتاب إلى الداعى «عبد الإمام» أدعوه فيه إلى الحضور و المشاركة فى هذه المهمة.

إنى لا أريد الآن توجيه النصائح إليكما، فأتتما و لا أشك فى ذلك أحرص منى على مصلحة دولتنا الإسماعيلية النزارية و أكثر منى وفاء و إخلاصا للدعوة الهادية، و للإمام على الهادى ... و لكن يهمنى أن لا تستقلوا المراكب البحرية فى طريق العودة، و أفضل أن تسلكوا الطرق البرية، و أن تغيروا لباسكم و هيئتكم و كل ذلك خيفة الوقوع فى شرك الأعداء؟

مضت ثلاثة أشهر على الداعيين المذكورين دون أن يأخذ الحسن أى خبر عنهما، و لم يحدث الحسن أحدا من الدعاء الكبار عن طبيعة المهمة، و كل هذا جعله قلق البال، حائرا لا يدرى ما ذا عليه أن يفعل؟ و أخيرا : كان لا بد له من دعوة المجلس الاستشارى الأعلى، و عند ما أتمل عقد هذا المجلس قال لهم:

«إننى قلق البال أيها الرفاق على تأخر الداعيين «زاده أسد» و «حسن بن سعيد» ... فلقد أرسلتهما فى مهمة سرية إلى مصر، و حتى الآن لم أتلق منهما ما يشير إلى نجاح مهمتهما أو فشلها، و كل ما أخشاه أن يكون قد افتضح أمرهما، أو عجزا عن تنفيذ المهمة التى ذهبا لأجلها .. و قد تسألونى عن المهمة الآنفة الذكر ... فأجيبكم:

إن المهمة هى استحضار ولى عهد الإمامة «على الهادى» بن الإمام نزار بن المستنصر بالله، و قد كنت نقلت إليكم خبر وجوده حيا فى جهة من جهات مصر ... فأجابه الداعى مؤمن:

عسى أن لا يكون فى تأخيرهما ما يزعجنا ... و أرى أنه لا بد من الصبر و الانتظار، إنهما غائبان أيها الرفيق، و من الصعب أن يتنبأ الإنسان بالغيب، و لم يكدم مؤمن يتم كلمته الأخيرة حتى وقف الحاجب فى الباب يقول:

أحد رجالنا من العراق فى الباب و يطلب الإذن بالمشول، و يقول إنه يحمل رسالة من ال داعى «زاده أسد» فأذن له بالدخول، و عند ما قرأ الرسالة برقت أسارير وجهه و قال:

البشرى لكم أيها الرفاق ... البشرى لكل من يعتنق قواعد دعوتنا الهادية فى أية- جهة من جهات الأرض. فقضيتنا الكبرى و مهمتنا العظمى قد تحققت.

##PAGE=91##

الكتاب من زاده أسد. و حسن بن سعيد، و قد أرسلناه إلينا من مكان ما فى العراق و فيه البشرى بنجاح مهمتهما، و هما الآن فى الطريق إلينا و معهما إمامنا و رئيس دولتنا الفاضلة، فعلينا أن نفتح له قلوبنا، و نفرش أرواحنا، و منذ الآن و صاعدا أصبحت الموت عاصمة لدولتنا النزارية الإسماعيلية، و مقرا لأ مير المؤمنين. علينا أن ننتهيا منذ الآن لاستقباله، و عليكم أن تعمموا الأوامر على القلاع و المدن فى العراق، و بلاد الشام و فارس لكى يحضروا و يشاركوا فى الأفراح و يتقدمون لمبايعة إمامهم.

لك الحمد و الشكر يا إلهى، فقد تحققت الآمال و زالت الغمة، و جاء الفرج، و تحققت كلمة «نصر من الله و فتح قريب».

##PAGE=92##

عرش الامامة فى الموت

«الموت» معناها باللغة الفارسية «عش العقاب» و فى اللغة العربية يقولون إن أصلها «إله الموت»، و هناك من يقول إنها «الموت» أى الفناء، و هذه القلعة واقعة فى جبال «البرز» أى شمال غربى قزوین، و من المعروف أن بناءها تم على يد، «حسن الداعى إلى الحق» سنة ٢٥٥ هـ على وجه التقريب، و هو من دعاء البويهيين الشيعة ثم استولى عليها الحسن بن الصباح، و حصنها، و أضاف إلى أبنيتها بنايات جديدة، و أبراجا حصينة و أعدها لتكون عاصمة للدولة الإسماعيلية النزارية، و مقرا للإمامة، و عرشا للإمام على الهادى بن نزار بن المستنصر بالله الفاطمى، و هو الإمام العشرون.

الهادى الامام العشرون

ولد سنة ٤٧٠ هـ. و نصب إماما فى «الموت» سنة ٤٩٠ هـ. ذكر أنه كان صغيرا عند ما أخذه الدعاء الإسماعيليون إلى بلاد فارس، فتولّى الحسن بن الصباح الوصاية عليه، بينما عهد إلى الداعى «كيا بزرك أميد» أمر تربيته و تعليمه و إعداده للخلافة و للإمامة.

من الجدير بالذكر: أن الحسن بن الصباح انصرف فى ذلك الوقت إلى تأليف الفرق الفدائية و إعدادها، و إلى تنظيم القوانين الخاصة بالدعاء، و فى ذلك الوقت أطلق على الحسن بن الصباح اسم «شيخ الجبل»، فى عهده تمّ محاصرة قلعة الموت من قبل السلجوقيين، و فى ظروف غامضة قتل الوزير نظام الملك غيلة بتدبير من زوجة ملكشاه، كما أسلفنا ثم هلك بعده ملكشاه السلجوقى، و عندئذ تراجع الجيش عن الموت خائبا، و فى عهده أيضا قام «أبو الهاشم العلوى» و ادعى الإمامة و لكنه قتل بالرغم من أنه من الأسرة الفاطمية.

قضى الإمام الهادي شطر حياته الأكبر في قلعة لمسر، و من المعلوم أنه قضى أربعين عاما على عرش الإمامة الإسماعيلية النزارية في «الموت» و دفن في قلعة لمسر.

و بعد جلوسه على عرش الإمامة في الموت، أقبل الناس من كل حدب

##PAGE=93##

و صوب لمبايعته و أخذ بركاته، و الانضواء تحت لوائه و منهم: الأمير المظفر، و الحسين القائيني، و غيرهما من بلاد فارس، كما أقبل دعاة الإسماعيلية و قوادهم من بلاد الشام، و كانت الدعوة الإسماعيلية في تلك الفترة قد وصلت إلى الأوج، و ازدهرت ازدهارا لم تشهده من قبل . ففي حلب و ضواحيها، و في دمشق، و في طرابلس، و عكار، و في جبال «البهرة» حتى أن حمص و حماه كانتا تعجان بالإسماعيلية أيضا، و كل هذا التقدم يرجع إلى جهود الحسن، و مساعيه، و دقة إعلامه في نشر التعاليم فهو قد أدخل على نظم الدعوة و قوانينها مواد جديدة، كما غيّر و بدل منها الكثير ممّا لم يكن يتلاءم و العصر الذي عاش فيه، و عند ما نعلم أن الحسن بن الصباح هو المؤسس الأول للمنظمة الفدائية .. أدركنا أيّ عقل مدبر كان.

ازدهرت الدعوة في عهده ازدهارا عظيما، و أصبحت الدولة مرهوبة الجانب تفرض هيبتها و سيطرتها على كافة الدول بعد أن أصبح لها جيش منظم و إدارة قوية، و بعد أن اعتمدت على أنظمة حديثة تقديمية لفتت الأنظار.

لقد كان الحسن بن الصباح يقوم بالمهام السياسية في ذلك العهد يعاونه «كيا بزرك أميد» و هو أحد أعيان الفرس القدماء الذين انتسبوا إلى الإسماعيليين النزاريين مع قبيلته، و هذا القائد تدرّب على يد الحسن بن الصباح، ثم تسلّم الحكم من بعده.

المهتدي الامام الواحد و العشرون

ولد المهتدي سنة ٥٠٣ هـ . و تسلّم شؤون الإمامة سنة ٥٣٠ هـ . و هو الابن الأكبر للإمام الهادي، كان يعيش حياة الزهد و التوّشّف، و لكن قائد جيوشه «محمد كيا بزرك» قام بتصريف شؤون الدولة . فعمر القلاع و الحصون في كل مكان، و نظمّ الجيوش العسكرية تنظيمًا متقنا.

في عهده أرسل «الراشد» العباسي جيوشه لقتال الإسماعيليين، و لكنه اغتيل قبل أن يصل جيشه ممّا اضطره إلى التراجع، و في عهده مات القائد «كيا بزرك أميد» و تسلّم ابنه محمد مكانه.

توفى و دفن في قلعة لمسر سنة ٥٥٢ هـ.

##PAGE=94##

الفاهر الامام الثاني و العشرون

ولد الفاهر سنة ٥٣٢ هـ . و تولّى الإمامة سنة ٥٥٢ هـ و قام بشؤون قيادة الجيش «حسن بن محمد بن كيا بزرك أميد».

و فى عهده عمّ الاضطراب جميع النواحي، و سمي ذلك العهد «عهد الطوائف للملوك» بحيث قامت إمارات عديدة فى كل جهة من الجهات.

كالسلاجوقيين، و الخوارزميين، و الغوريين ... و الأيوبيين فى الشام و غيرهم كما مات القائد «محمد بن كيا بزرك»، و ظهر من وراء النهر «جنكيز خان» كقوة تخطط للانذفاع نحو البلدان الإسلامية.

كان على جانب كبير من بعد النظر، و فى عهده بلغت الدولة تقدما و ازدهارا فى مجال الاقتصاد، و الصناعة، و التجارة، و الثقافة. كما بلغت الدعوة شأوا كبيرا فى الانتشار و التنظيم.

توفى فى قلعة «الموت» و دفن فيها سنة ٥٥٧ هـ.

كيا بزرك أميد

عند ما مات الحسن بن الصبّاح عام ٥١٨ هـ كان قد عيّن خلفا له كيا بزرك أميد الذى استمر فى حكم القلاع حتى عام ٥٣٢ هـ و فى عهده استقرت أوضاع الإسماعيليين لميل السلاجقة إلى الاستكانة و الهدوء، و عظم أمر الإسماعيليين و بلغت دولتهم الأوج فى النظام و البنيان و الاستقرار الا قتصادى و الاجتماعى و الدينى، و أصبح لهم من المؤيدين و الأنصار فى كل مدن بلاد فارس ..

و يعد عهد كيا بزرك أميد عهد رقى رغم أن بلاد الشام تمتعت بحكم بدأ ينمو و يعظم و بخاصة بعد أن توسعت إمارتهم بالامتداد إلى قلاع القدموس و الخوابى و مصياف منطلقين من قلعة الكه ف فى عهد الداعى الكبير أبى محمد، و توفى كيا بزرك أميد سنة ٥٣٢ هـ و حكم بعده ابنه محمد بن بزرك أميد، و يعتبر ثالث الحجج الذين حكموا آلموت و امتد حكمه من سنة ٥٣٢ حتى سنة ٥٥٧ هـ. و فى آخر حياته أوفد إلى قلاع الشام الحجة سنان راشد الدين.

حسن على ذكره السّلام الامام الثالث و العشرون

هو الإمام الحسن بن القاهر ولد سنة ٥٣٧ هـ فى الموت

##PAGE=95##

و أعلن إمامته، عام ٥٥٧ هـ بعد وفاة الإمام القاهر و قد لقب بحسن على ذكره السّلام . و كان لظهوره أثر كبير فى نفوس الإسماعيليين و بخاصة عند ما أعلن عن القيامة الروحية التى هدفت إلى تقدم الإسماعيليين الروحى و سموهم فى مجال المعرفة بالحقيقة، و عند ما أخذ الإمام الحسن على ذكره السّلام ينتقل من قلعة إلى أخرى فى بلاد فارس يشرح للمؤمنين طريقته الروحية ليمنّهم من إدراك أهدافه المثلى، كان سنان راشد الدين يطبق التعاليم نفسها فى قلاع بلاد الشام، و هذا واضح من خلال رسالة رد فيها راشد الدين على نور الدين الزنكى عند ما اتهمه بالخروج عن تعاليم الإسلام بقوله : «إنما نحن مسلمون عارفون محققون معنى الإسلام و سموه و لا يغرنك المظاهر التى تبدو أمام ناظريك، فلو أدركت ما نحن عليه من سمو فى المعرفة لأبطلت كلامك، و لعرفت مدى الخطأ الذى ارتكبته باتهامك إباننا بهذه الأباطيل».

و لقد جاءت دعوة الإمام الحسن على ذكره السّلام فى مكانها بالنسبة للإسماعيليين العارفين، و لكن ذوى النوايا و الضمائر الملتوية لم يستوعبوا دعوته فحقدوا عليه.

و كان الإمام الحسن قد تزوج من سيدة من عائلة الملوك البويهيين، و قد تمكن بعض المعادين للإمامة من استمالة المدعو حسن بن نامور و هو شقيق زوجة الإمام الحسن، و دفعوا له الهدايا و الأموال، فدخل على الإمام و هو فى قلعة لمستور و اغتاله بطعنة من خنجره و كان ذلك سنة ٥٦١ هـ. و كان قد نص على تولية ابنه الإمام أعلا محمد.

الإمام محمد بن الحسن الملقب أعلا محمد

تسلم أعلا محمد الإمامة سنة ٥٦١- و سنة ٦٠٧ هـ و اشتهر بين أتباعه بحبه للعمران، و قد ذكر أنه بنى العديد من المساجد و التكايا، و المدارس، و الخانات، و الزوايا، و المكاتب، كما عبّد العديد من الطرقات، و أصلح البروج، و الجدران فى قلاعه و جعلها صالحه فى كل وقت للوقوف بوجه الغزاة.

فى عهده ظهر التتر من وراء ما بين النهر كقوة عظيمة، و قد أرادوا أن يتحالفوا معه و عند ما أرسل سفيره إلى ما وراء النهر، و وقف على

##PAGE=96##

حقيقة أمرهم، عاد و هو ينفذ يده من كل تحالف معهم، و ممّا يؤكّد ذلك أنه تحالف مع جلال الدين خوارز مشاه، عند ما غزا جنكيز خان بلاد فارس فتمكنا من رده، و هكذا استطاع إنقاذ بلاده، و أتباعه من هذا الخطر العظيم.

يعتبر عهده من العهود الذهبية .. ففى ذلك العهد تمكن الدعاء الإسماعيليون من تحقيق انتصا رات كبرى فى مقاطعات أذربيجان، و جيلان، و مازندران، و قزوین، و خوزستان، و كردستان، و کرمان، و شیراز، و تبریز، و فى حلب، و مصر، و بغداد حتى بلاد «بامير».

و من الجدير بالذكر أنه انتصر لحاكم أذربيجان عند ما شن عليه خليفة العراق حربا . زوجته هى إحدى الأميرات من «جيلان» و ولى عهده هو الحسن بن محمد الملقب ب «جلال الدين حسن».

الإمام جلال الدين حسن

ولد الإمام جلال الدين حسن عام ٥٦٢ هـ و تولى الإمامة بعد وفاة والده عام ٦٠٧ هـ. كان واعيا أحداث عصره بدقة و له بروز على المستوى الإسلامى و الإسماعيلى و له اتصالات ببلاد الشام فقد عثرنا على نص إمامى مرسل من قبله إلى أتباعه فى بلاد الشام و هذا النص مؤرخ بتاريخ سنة ٦١٨ هـ. أى قبل وفاته بعام واحد ... و هذه بعض فقراته:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

إلى سيف دعوتنا، و حجتنا، فى جبال البهرة و بلاد الشام «ناصر الدين الأسدى» و إلى أبنائى المؤمنين.

الحمد لله مؤيد الحق و نصيره، و مظهر العدل بتدبيره، و مقسم الأرزاق بتسخيره، و مضى النهار بسنا نوره، الدال على توحيده ببراهينه، و المقيد جميع عبادته بحدوده ... و صلى الله على النبيين و المرسلين أجمعين.

أيها المؤمنون ..

اخلصوا إلينا بقلوبكم، و ارحلوا إلينا بنفوسكم، فإن «عهدنا» و اصل إليكم، و قد أمرنا حامله بتلاوته عليكم، فتلقوه بقلوب صادقة، و نفوس طائعة غير آبهة فحامله «باب» من أبواب دعوتنا، و قد أمرناه أن يقرأ

##PAGE=97##

عليكم العهد و يتليه، و يوضحه، و لا يخفيه و هو «شمس الدين بن علي» الذي يوضح الحق حتى ينجلي.

أيها المؤمنون ..

المخلصون الموقنون القاطنون بحلب، و الشام، و قلاع الدعوة، في جبال البهرة من الأمراء الكرام، و الأسياد العظام، و الدعاء الأخيار أصحاب مدينة السلام، و سائر المؤمنين، حسن الله أحوالهم في الدارين.

استعجلوا الطاعة، و اتبعوا الحق، و تخلقوا بالأخلاق الكريمة من الصبر و التوكل، و الشكر، و قلة الطعام، و المنام، و اجتنبوا المناهي و المحرمات و سائر الأخلاق الذميمة.

و اعلموا أن الحمام التي وقعت في قلعة «الكهف» هي خاصة بإمامكم.

فعمروها و استعجلوا بارجاعها إلى ما كانت عليه، و ا عرضوا مشكلاتكم في الدين و الدنيا علينا، ثم اعلموا أن معتمدكم «محمد الخراساني» و الداعي إبراهيم قد وصلا لعند مولاكم، فكان راضيا منهما، و من جماعة المؤمنين المخلصين. و الحمد لله رب العالمين.

الإمام علاء الدين بن حسن بن محمد

ولد في «الموت» سنة ٦٠٩ هـ. و عند وفاة والده كان في التاسعة من عمره، و لهذا فقد تسلمت والدته شؤون الدولة و كانت على مستوى رفيع من التهذيب، و المرونة، و الذكاء، و في الوقت نفسه أناطت بالدعاة أمر تعليمه و إعداده و تربيته . و عند ما بلغ الخامسة عشرة تسلم شؤون الإمامة، بعد أن تحسنت حالته الصحية ، أمر فوراً بقتل قتلة والده و أعوانهم، و محرضيهم.

أصبحت الدولة النزارية الإسماعيلية في عهده بالوهن و الإنهيار، على عكس الازدهار الذي حصل في عهد والده . فلم يعد للإسماعيلية ذلك الدور المهم، أو العلاقات الودية القائمة مع الدول المجاورة.

و في عهده قام حاكم «نيسابور» «الأمير أورخان» فشن غارة على قرى الإسماعيلية في هذه المنطقة، و عندئذ أمر الإمام علاء الدين قائده كمال الدين بمفاوضة أورخان و الطلب إليه الكف عن التعديات، و لكن أورخان أساء الأدب مع السفير، و

هدده بخنجره، فرجع كمال الدين إلى الموت، ونقل إلى الإمام علاء الدين ما سمعه، و ما شاهده، فأمر عندئذ بتجهيز جيش و الزحف لتأديبه، و بالفعل نفذ الطلب على الفور،

##PAGE=98##

ولدى وصوله إلى المنطقة المذكورة هاجم أورخان، و بعد معارك عديدة تمكن من إلقاء القبض عليه و إعدامه، و بعد أن تمّ ذلك جاء خليفة أورخان و عقد صلحا مع كمال الدين، و هكذا رجع إلى الموت، بعد أن استولى على قلعة «دامغان».

فى عهد الإمام علاء الدين أيضا، نكث السلطان أحمد السلجوقى عهده، و أعلن عداؤه للإسماعيليين و لإمامهم، و فعل مثله سلطان خوارزم، و اتفق الإثنان على الجريمة و الغدر فأرسلا «الحسن المازندرانى» إلى قلاع الموت الإسماعيلية فتمكن من الوصول إلى مكان إقامة الإمام، و بينما كان الإمام قائما يصلى، استلّ خنجره و طعنه عدة طعنات فلم يلبث أن مات على أثرها.

و من الأمور البارزة و المهمة التى أقدم عليها اتخاذها العلّامة الفيلسوف «نصير الدين الطوسى» وزيرا لدولته. مات سنة ٦٧٢ هـ.

و دفن فى قلعة شيركوه.

محمود ركن الدين الامام الرابع و العشرون

تسلّم شؤون الإمامة الإسماعيلية النزارية بعد مقتل والده سنة ٦٥٣ هـ. و فى عهده بدأت الحروب و الغزوات المغولية لدولة «ألموت» و لبغداد العباسية بقيادة هولاكو، و فى هذه الصفحات ننقل الوقائع عن تلك الفترة، كما وردت فى كتب التاريخ، على أن نعود إلى التعليقات، فقد أفادت المصادر التاريخية و هى «تاريخ الأدب فى إيران» تأليف «براون»، و تاريخ مختصر الدول للعلّامة «غريغوريوس» أبى الفرج بن هرون الملطى المعروف «بابن العبرى» و غيرها من المصادر التاريخية.

و جاء فى أحد هذه المصادر:

«جاء هولاكو من كيش سنة ٦٥٤ هـ. إلى معقلين من معاقل الإسماعيلية فى ولاية قهستان فاستخلصها و هما «تون و خوان» و قد أمر حينئذ بإعدام كل من يزيد عمره على عشر سنوات من سكان هاتين القلعتين، ثم استعمل هولاكو الطرق المغولية المعروفة بنشر الوعود الكاذبة رجاء أن يجنى من ورائها ما يريد، و قد تنازعت المخاوف ركن الدين، و كان الوزير الإسماعيلى «نصير الدين الطوسى» يزّين له الاستسلام.

##PAGE=99##

و ما زالوا يضيّقون على الإسماعيلية الخناق حتى سلموا إليه بعض الحصون و المعاقل، ثم إنه أرسل أخاه «سيرانشاه» و معه ثلاثمائة رجل إلى هولاكو كرهائن، فأمر هولاكو بقتلهم فى بلدة «جمال اباد» الواقعة بالقرب من قزوین، ثم أتبع ذلك قتل جميع الإسماعيليين الذين سلموا معاقلهم إليه، و لم يستثن من ذلك أحدا منهم حتى الأطفال فإنه قتلهم فى مهادهم، و استیأس جماعة من أشداء على مقاومة المغول، و حصل لهم الإمام ركن الدين على عفو كتابى «يرليغ» و لكنهم استمروا

على مدافعة المغول، و استطاعوا أن يقتلوا عددا كبيرا منهم، غير أن هذه المحاولات جميعها لم تؤدي إلى تأجيل النهاية التي كانت تنتظر الإسماعيلية، حينما اضطر ركن الدين لتسليم نفسه إلى المغول سنة ٦٥٤هـ.

و حينما استولى المغول على قلعتي «الموت» و «ميمون دز» أعملوا الغارة ثم أشعلوا النار بعد ذلك في المكتبة الكبرى، و قد استطاع «عطا ملك الجويني» أن يستأذن مولاه هولوكو بأن يحتجز لنفسه جملة من التأليف القيمة التي اشتملت عليها مكتبة «الموت» التي جاء على ذكرها المؤرخ «رشيد الدين» بقوله:

إنها كانت تضم مليون و نصف مجلد من الكتب الفلسفية، و التاريخية، و مصنفات الحكمة، و الأدب، و الجبر، و الهندسة، و الفلك، و الفقه، و الفنون، و قد احتفظ المغول ببعض الأدوات و المراصد التي استعملوها لرصد النجوم.

و قد ترك المؤرخ المذكور لنا وصفا للمهارة الفائقة التي بنى على أساسها حصن «الموت» بحيث كان من الأماكن الحصينة التي لا يمكن اختراقها، و قد نقل إلينا أيضا عن كتاب تاريخي وجدته في القلعة و هو من تأليف «فخر الدين البويهى» و في هذا المؤلف يذكر:

بأن الذين نبوا هذا الحصن هم أمراء الديلم سنة ٢٤٦ هـ.

و مما تجدر الإشارة إليه أن المغول بعد ذلك استولوا على بقية معاقل الإسماعيلية في فارس فأخذوا «كمشير» سنة ٦٥٥ هـ. و لكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا «كردكوه» حتى نهاية سنة ٦٥٨ هـ، و كان «منهاج السراج» قابعا فيها على تدوين كتابه «طبقات ناصري».

و أخذ المغول الإمام ركن الدين إلى همدان، و أحسنوا معاملته، و في سنة ٦٥٥ هـ أرسلوه إلى «قراقورم» ليقيم نفسه إلى الأمبراطور

##PAGE=100##

المغولي «منكو خان»، و في أثناء الطريق اضطره إلى أن يأمر ضباطه في «قهبستان» بتسليم قلعتهم إلى المغول، ففعلوا ذلك بعد ما أمنهم المغول على حياتهم، و لكنهم لم يلبثوا أن قتلوا من السكان الآمنين اثني عشر ألفا بمجرد أن تحرك ركاب ركن الدين في طريقه إلى قراقورم، و لم يكده يصل إليها حتى أمر منكوخان بقتله، ثم أمر بعد ذلك بقتل بعض أولاده أينما كانوا.

و جاء في مقدمة كتاب «جامع الحكمتين» لهنرى كوربان و محمد معين:

«و قد نجح الإمام ركن الدين بأن هرب ولده و ولي عهده «شمس الدين» الوريث الشرعي للإمامة الإسماعيلية، و كان عمره سبع سنوات، و قد جاء بعد ذلك إلى «انجدان» و هي على الطريق بين أصفهان و همدان».

و جاء في المصادر الإسماعيلية، و في كتاب «فصول و أخبار» لمؤلفه:

«نور الدين أحمد».

«لم يكفّ بنو العباس و أتباعهم يوماً واحداً عن تقديم الأذى لآل بيت النبوة الأطهار، و القيام بالتحريض، و حياكة المؤامرات عليهم أينما وجدوا، و فى عهد الإمام ركن الدين فى الموت زينوا للمغل و رسموا لهم خطة اجتياح قلاع الإسماعيلية، كما قدموا إليهم الأموال و السلاح و الرجال و الأدلاء.

و عند ما زحف المغول على قلاع الإسماعيليين تجنّد العديد من أعوان العباسيين، و من مريديهم و تابعيهم فى صفوف المغل و كانوا ينادون: إلى الجهاد الأكبر. فقتلوا الأطفال، و رموا بهم من فوق أسوار الحصون أمام أمهاتهم و آبائهم، و بقروا بطون النساء بالحراب، و أحرقوا الرجال، المكبلين بالحديد، كما أحرقوا المصاحف، و دمروا بيوت الله على المصلين . و أخيراً:

شجعوا المغل على قتل الإمام ركن الدين مع أطفاله و نسائه و جميع أفراد أسرته، و اعتقدوا انه م بذلك قد أطفأوا نور الإمامة من الوجود، و لكن هذا النور لم يلبث أن ظهر فى إحدى جهات الأرض».

شمس الدين محمد الامام الخامس و العشرون

يعتبر هذا الإمام آخر أئمة النزارية الإسماعيلية فى الموت، فبعده لم تقم للإسماعيلية دولة فى فارس، و لا فى غيرها من البلدان، و انتقل نشاط النزارية إلى قلاع الدعوة فى بلاد الشام.

ولد الإمام شمس الدين محمد فى الموت سنة ٦٤٣ هـ. و كما ذكرنا

##PAGE=101##

فإنه الإنسان الوحيد الذى استطاع أن ينجو من المغول.

عاش متنقلاً بين أذربيجان، و تركستان، و بغداد، و حلب، و كان يحاول أن يلم شمل أتباعه الذين فرقتهم الحروب، و لكن عيون الأعداء كانت تراقبه، و تلاحقه، و تحد من نشاطه، و تسد عليه المنافذ.

أقام فى «قونية» فترة طويلة، و عرف بأنه كان يمتحن مهنة التطريز، و كان وسيماً بهى الطلعة حتى أطلقوا عليه اسم «الشمس». أمّا شمس تبريزى الذى ذكر بأنه معلّم جلال الدين رومى ...

فهناك أقوال عديدة عنه. فالبعض يؤكد أنه هو نفسه الإمام شمس الدين بن محمد، و البعض الآخر يؤكد بأنه شمس الدين بن الإمام علاء الدين أى عم الإمام شمس هذا، و هناك من يذكر : أنه شمس الدين بن صلاح الدين من أهالى «سبزه» و كان من دعاء الإسماعيليين البارزين.

ولد للإمام شمس الدين ثلاثة أولاد هم:

قاسم شاه، و مؤمن شاه، و كيا شاه . و بعد موته انتقل بعض أفراد أسرته إلى مقاطعة «جيلان» و أقامت فى إحدى القرى الصغيرة النائبة «مأهيانا» و قد أطلق عليهم فى ذلك العهد «السادة الخداوندية».

المصادر التاريخية تذكر: بأن الإمام شمس الدين محمد توفي سنة ٧١١ هـ ... و من الجدير بالذكر أنه كان على جانب كبير من الصبر، و البطولة، و قوة الاحتمال، و من المعروف أنه شهد أكبر كارثة حلت بأسرته و أتباعه، فقابلها بصبر و أعصاب قوية شأن الرجال العظام الذين لا تلبين عزائمهم أمام الأحداث و الكوارث .

بعد موت الإمام شمس الدين محمد تسلم شؤون الإمامة ابنه قاسم شاه، الولد الأول و هو الذى وقع عليه النص و إليه تعود أسرة الأئمة الحاليين للإسماعيليين. بينما تقول النزارية المؤمنية ان الذى تسلم الامامة ولده الأكبر مؤمن شاه.

##PAGE=102##

القاسم شاهية

ذكرنا أن الإسماعيلية النزارية بعد وفاة الإمام شمس الدين بن ركن الدين آخر أئمة دولة «الموت» النزارية انقسمت بين ولديه مؤمن بن شمس الدين و قاسم بن شمس الدين، و لما كان الإسماعيليون اليوم يأخذون بالاعتداء فى سلالتين من أسر الأئمة فلا بد أن نعرض هاتين الأسرتين بدءاً من أسرة قاسم شاه ثم أسرة مؤمن شاه . و كلا الأسرتين هما من أبناء الإمام نزار بن المستنصر بالله.

قاسم بن شمس الدين الامام التاسع و العشرون

ولد قاسم شاه سنة ٧٠١ هـ و تولى الإمامة بعد وفاة والده الإمام شمس الدين محمد سنة ٧١٠ - ٧١١ هـ فى أذربيجان، و قاسم شاه حسب القاسم شاهية هو الابن الأول للإمام شمس الدين، و فى عهده تم إرسال الدعاة إلى عدد كبير من الأقطار شملت مناطق فى آسيا الوسطى مثل كشمير و التيب و أفغانستان و بدخشان ذات حضارات و لغات متميزة.

يعتبر السبزواري «شمس الدين» من دعائه الذين أنيطت بهم مهمة الدعاة فى «ملتان» و قد ذكر أنه عمّر قرية باسمه فى إيران تعرف «بقاسم أباد».

كان «بهاء الدين زكريا الملتانى» معاصراً له و بعد وفاة الداعى شمس الدين تسلم مكانه حفيده صدر الدين فقام بالمهمة خير قيام.

كان يلقب فى بلاد فارس «الأثور» و كان تقياً ورعاً ملازماً للعبادة، و الصلوات، و الانتطاق عن الناس، و ذكر أنه كان يعطف على الصوفيين و الدراويش.

فى عهده تم تغيير اسم «الداعى» إلى «بير» و معناها «المرشد» و قبل وفاته نص على ولده الأكبر «إسلام شاه» مات سنة ٧٧١ هـ. و كان عمره يناهز السبعين.

اسلام شاه الامام الثلاثون

ولد سنة ٧٥٧ هـ. فى بلدة «قاسم أباد» و تسلم شؤون الإمامة سنة

٧٧١ هـ. بعد وفاة والده، و من ألقابه «أحمد سلام شاه» و «سلام شاه» والدته هي: خليعة بي بي.

كان في عهده من الدعاة «بير صدر الدين، و حسن كبير الدين» يقومان بشؤون التبليغ في بلاد الهند. أقام في «بابك» و «كوهك» الفارسيين.

أما اهتمامه فكان موجها إلى بلاد الهند، و في عهده ازداد عدد الإسماعيليين في تلك البلاد. و في عهده توسع انتشار الدعوة إلى مناطق في شمالي الهند مثل «شيترال».

و في عهده أيضا ظهر «تيمورلنك» و اندفع نحو البلاد الإسلامية يمعن فيها قتلا و احتلالا و تدميرا و كان شاعر إيران الأكبر «حافظ الشيرازي» معاصرا له.

و تذكر المصادر الهندية بأن دعاة هذا الإمام في الهند تمكنوا من إدخال أعداد كثيرة من الهنود في دعوتهم و قد أطلقوا عليهم اسم «الخوجه»، و يرجع الفضل الأكبر لهذا التحول إلى «بير صدر الدين» الذي كان متضلعا بالعلوم الفلسفية الهندوسية، و من المعلوم أن هذا الداعي الكبير مات في الهند، و بعد موته تسلّم شؤون التبليغ ولده «حسن كبير الدين» الذي كان يلقب «بكاسر الكفر».

و ذكر أيضا : أنه في عهده تمّ تغيير الأسماء العربية و أبدلت بأسماء هندية منها : «مكي» بدل داعي و «كامريا» بدل محاسب، و غير ذلك.

توفى سنة ٨٢٩ هـ. و دفن في بلدة «كوهك».

محمد بن اسلام شاه الامام الواحد و الثلاثون

ولد سنة ٧٨١ هـ. في بلدة «بابك» و تولّى الإمامة سنة ٨٢٧ هـ. من دعائه «بيرتاج الدين بن صدر الدين». في عهده جاءت وفود عديدة من بلاد الهند إلى إيران لنيل بركاته، و كان كل هندي يزوره يسمّى «درويشا» و لهذا فإن كلمة «دراویش» فيما بعد صارت موافقة لكل إسماعيلي يتشرف بمقابلة الإمام.

في بدء حياته كان بير حسن كبير الدين حيا، و بعد وفاته عيّن بير تاج الدين مكانه، و لكن أحد أولاد حسن كبير الدين، و كان يسمّى «إمام شاه» استهواه المنصب الديني الكبير، فطلب من الإمام تعيينه و الإذن له بالوعظ و التبليغ. فرفض الإمام طلبه، و عندئذ ذهب إلى

الهند، و أعلن عن نفسه بأنه «الإمام» و قام بالدعوة لنفسه، و قد استجاب له بعض الناس، و شكلوا فرقة دينية جديدة عرفت باسم «جون دهرمية» و معناها الخاضعون للمرشد و من الجدير بالذكر أن هؤلاء لم يكونوا يذكرون اسم «محمد بن

إسلام شاه»، و بعد وفاة هذا الإمام «الدعى» قامت زوجته، و توجهت إلى أحد أبناء «بير حسن كبير الدين» المسمى «رحمة الله شاه» و أنابته بالتبليغ من جديد على أن يذكر اسم «محمد بن إسلام» ...

و بالفعل ... تمّ كل هذا فى وقت قصير، و عادت المياه إلى مجاريها.

و مما يجب أن نشير إليه .. أن المرشد تاج الدين كان هندی الأصل و كان يسمّى «برلهار» و ذريته فى الهند تعرف باسم «بيراج برلهار» توفى الإمام محمد بن إسلام سنة ٨٦٨ هـ. فى بلدة بابك، و دفن فيها.

المستنصر بالله (الثانى) الامام الثانى و الثلاثون

ولد سنة ٨٠٦ هـ. فى بلدة بابك، و تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة سنة ٨٦٨ هـ و كان مسكنه فى بلدة «بابك» المعروفة فى بلاد فارس ... اسمه «على شاه» ... كان شابا و سيمًا، و عاش حيا الترف و الجاه، و الجلال و العظمة، كما يعيش الملوك، و فى عهد إمامته أسند مهام التبليغ إلى «بير محمد نور نجش» و هذا ينحدر من سلالة بير حسن كبير الدين، و كان مجتهدا و ذكيا، و قد استطاع تقديم أحسن الخدمات، و أدى كافة الواجبات الملقاة على عاتقه، و حصر نشاطه فى مقاطعة كشمير الهندية، و فى عهده كان يسكن فى هذه المقاطعة عالم وثنى اسمه «بهرتى ناته» و كان ساحرا عجيبا، و لكن «ميتها» و هو الاسم الذى كان يعرف به «محمد نور» تمكن من إبطال سحره، و فضح أفاعيه، مما قربه من قلوب الناس، و جعلهم يتهافتون على الانضواء تحت لواء دعوته، أو فرقتة التى اتخذت لها اسم «النور بخشية» فكانت على العموم فرعا من الدعوة الإسماعيلية، و لكنها تميزت بإدخال بعض التعاليم الخارجة عن تعاليم الإسلام، و المستمدة من الطقوس الهندية، و هذا لم يكن يرضى الإمام مستنصر بالله، و لكنه اضطر إلى التغاضى.

حكم الإمام المستنصر بالله مدة اثنى عشر عاما، و توفى سنة ٨٨٠ هـ فى بلدة بابك

##PAGE=105##

عبد السلام شاه الامام الثالث و الثلاثون

ولد سنة ٨٣٤ هـ. فى بلدة بابك، و تسلّم شؤون الإمامة سنة ٨٨٠ هـ.

بعد وفاة والده مستنصر بالله الثانى ... سمّاه والده «محمود شاه» عند ولادته، و لكن اسم عبد السلام غلب عليه أخيرا لأنه كان محبا للسلام، و مؤمنا بالمحبة و التسامح مع كل الناس.

وجّه اهتمامه لبلاد الهند، و خصها بعنايته، و لهذا فإن الوفود لم تنقطع عن المثول بين يديه، و فى عهده أطلقوا على جماعة الإسماعيليين النزاريين فى الهند أسم «خوجه».

و فى عهده أيضا جرت تغييرات هامة فى الدعوة، و استغنى عن كثير من دعاة الأقاليم لأنهم ذهبوا إلى حد الدعوة لأنفسهم ... الجدير بالذكر أنه أضيف إلى مناصب الدعاة ألقاب «وارث» كما أضيف لقب «الوكيل» و كانت مهمته محصورة فى الأقاليم.

و ممّا تجدر الإشارة إليه .. أنه كان معاصراً لملك إيران الشاه إسماعيل الصفوى، و كان الشاعر «خاكي الخراسانى» صديقا له.

توفى سنة ٨٩٩ هـ فى بلدة بابك.

غريب ميرزا الامام الرابع و الثلاثون

ولد سنة ٨٤٥ هـ. فى بلدة «بابك»، و تسلّم شؤون الإمامة سنة ٨٩٩ هـ. سمّاه والده عند ولادته «عباسا» و لكن أتباعه أطلقوا عليه فيما بعد اسم «غريب ميرزا» و تذكر المصادر التاريخية أنه ترك موطن آباءه بابك، و انتقل إلى قرية «انجدان» فى مقاطعة «كاشان» و هى قرية جميلة هادئة تقع فى سفح جبل عال، مجلل بالأشجار، و تتفجّر منه الينابيع، و تبعد أربعة و عشرين ميلا عن بلدة «محلات»، و أهلها جميعهم من المزارعين.

عاش غريب ميرزا أيامه القصيرة جدا بالزهد و التقشف، و الانقطاع للعبادة، و لهذا لقبوه «بغريب ميرزا».

كان له أخ يسمّى «نور الدين» و قد انصرف إلى أعمال الزراعة و البناء، فأنشأ المزارع، و أسّس البنائيات فى قرية انجدان، كما عمّر

##PAGE=106##

تكية للدراويش الذين يأتون لزيارة الإمام، و قد سمّاه «نور أباد» فكانوا فيها يمارسون العبادة و الرياضة الروحية.

و فى عهده وقعت أحداث خطيرة، و انقلابات، و حروب بين الصفويين و التركمانيين و غيرها و لكن أيامه القليلة على مسند الإمامة لم يعترضها أى عارض.

كان على اتصال بأتباعه فى الهند، و أفغانستان و آسيا الوسطى و كانت الوفود تأتى لزيارته و نيل بركاته. مات سنة ٩٠٢ هـ. و دفن فى قرية انجدان.

أبو الذر على الامام الخامس و الثلاثون

ولد سنة ٨٧٢ هـ. فى قرية انجدان، و جلس على سرير الإمامة بعد وفاة والده سنة ٩٠٢ هـ. اسمه: «نور الدين» أمّا لقبه الذى عرف به فهو «أبو الذر على».

كان مثل والده يعيش حياة البساطة، و ينقطع للعبادة، و أداء الصلوات.

فى عهده أيضا وقعت حروب و انقلابات، و ازداد ضغط الصفويين الحاكمين على الإسماعيلية، و لكنهم عرفوا فيما بعد بأنهم كانوا على خطأ، و لهذا تقدموا من «أبى الذر على»، و اعتذروا عن سوء تفاهم حصل لهم، و بعد ذلك زوجه فتاة من أسرته اسمها «صابرة خاتون» و هى قريبة من «السلطان طهماسب» و هذا الزواج كان له شأنه و أهميته بالنسبة

للإسماعيلية، إذ مكنتهم من الظهور فى الحياة العامة، و الا تنساب إلى الجيش، كما دعى العديد منهم إلى الوظائف، و خدمة الدولة. توفى فى انجدان سنة ٩١٥ هـ.

شاه مراد ميرزا الامام السادس و الثلاثون

ولد سنة ٨٨٤ هـ. و تسلّم شؤون الإمامة سنة ٩١٥ هـ. و لما كانت والدته من أسرة ملوك الصفويين الحاكمة، فإنها وجهته للعمل فى السياسة و لمصلحة الأسرة التى تنتمى إليها و لهذا بدأ يقوم بأعمال لمصلحة الدولة الصفوية كما ذكرنا و هذه البادرة جعلت ملوك

##PAGE=107##

الصفويين يستجيبون إليه و يتقربون من الإسماعيلية، و يعملون على إيصالهم إلى وظائف الدولة و مؤسسات الجيش و الإدارة و المالية.

كان اسمه «مراد على» و فى عهده ازداد النشاط و خاصة فى السند و كجرات .. توفى سنة ٩٢٠ هـ. و دفن بمقبرة الأسرة، و أقيم عليه مزار عظيم يؤمه السواح لمشاهدة الآثار و التحف الثمينة الموجودة فيه.

ذو الفقار على الامام السابع و الثلاثون

ولد سنة ٨٩٧ هـ. فى انجدان، و تولّى الإمامة سنة ٩٢٠ هـ. أى بعد وفاة والده مباشرة، و لكن مع كل أسف فإن المنية لم تمهله إذ أنه لم يمر عليه سوى عامين حتى انتقل إلى رحمة الله.

كان يسمّى فى فارس و بلاد الهند «خليل الله» و كان على جانب كبير من الثقافة، و قد أولى التعليم، و المعارف، و نشر الدعوة، و الصحة و العمران اهتماما خاصا بالرغم من المدة القصيرة التى عاشها و هو يقوم بشؤون الإمامة.

و من الواضح أنه أولى الفقراء و المحرومين عطفًا خاصا، و كان يزودهم و يرفه عنهم و يرفع شأنهم . أمّا بالنسبة للهند فإنه ظل على اتصال بأتباعه يرسل إليهم الدعاء و الأوامر و يتلقى وفودهم فى مقره، و أمّا بالنسبة لعلاقته بالدولة الصفوية فإنها ظلت بين مد و جزر، و قد عاصره السلطان عباس الصفوى و توفى سنة ٩٢٢ هـ.

شاه نور الدين الامام الثامن و الثلاثون

ولد سنة ٨٩٣ هـ. فى انجدان. جلس على كرسى الإمامة سنة ٩٢٢ هـ.

فى بلاد فارس و الهند. كانت ألقابه «فرد حق» و «مرد حق» و «شاه زمين و زمان».

سكن انجدان ... و انصرف إلى العبادة و النظر فى شؤون أتباعه الذين كانوا يفدون إليه من بلاد الهند باستمرار.

كان معاصرا للسلطان الصفوى عباس الثانى، و تذكر المصادر التاريخية الإسماعيلية بأنه كان عدوا للإسماعيلية، و الإمام شاه نور الدين.

ساءت العلاقة بين الإسماعيلية وبين هذا السلطان بعد ما أقدم على قتل الشاعر الإسماعيلي «خاكي الخراساني» الذي اتهم بأنه يمدح الأئمة الإسماعيليين مدائح تخرج عن الحد المألوف و تتضمن الغلو في الاعتقاد و كل هذا أوجب غضب أع دائه الذين قابلوا السلطان و طالبوه بإعدام هذا الشاعر. و عند ما قتل حدثت اضطرابات عنيفة.

خليل الله على الامام التاسع و الثلاثون

ولد سنة ٩٣٢ هـ. في انجدان. و جلس على مقعد الإمامة سنة ٩٥٧ هـ. و في عهده كان الداعي الكبير «سيد داؤد» يقوم بشؤون التبليغ و إدارة أمور الدعوة في مقاطعة السند، و كان يحمل من الإمام رتبة «الوكيل» و هو بالأصل هندي الجنسية. و من مقاطعة السند. و قد جاء من وطنه سنة ٩٦٢ هـ إلى إيران و قام بزيارة الإمام خليل الله في قرية «انجدان» فباركه و فوضه و ألبسه تاج الوكالة لعموم بلاد الهند.

و هكذا عاد و قام بمهمة التبليغ على أكمل وجه، و قد وصف بأنه كان على مستوى عظيم من البلاغة و الرجولة و بعد النظر و الإخلاص، و في عصره كان يحكم السند «محمد سمره» و هذا الحاكم أظهر العداوة للإسماعيلية دونما سبب، و كان أول عمل قام به أن أصدر أمره بالقبض عليه، ممّا جعله نفيّاً إلى بلاد «كجه» و كان حاكم تلك المقاطعة يسمّى «شري مهاروا»، فاستقبله أحسن استقبال، و أفسح له المجال للعمل و قد تمكن بعد فترة من ادخال أربع قبائل هندية في الدعوة الإسماعيلية و أحد رؤساء هذه القبائل كان يسمّى «بير داؤد» و الآخر «باوا هاشم» و هذا خدم الإسماعيلية خدمات كبرى، و كان حضرته يقوم بالدعوة مند عهد إمامة إسلام شاه. و كان له شقيقان قتلا في سبيل عقيدتهما.

يعتبر عهد خليل الله على من أزهر العهود، و هو من هذه الجهة كان على جانب عظيم من العلم و الفضل، و قد ازدهرت الدعوة في عهده أزدهارا كليا، و بلغت درجة عليا من التقدم في مجال الدعوة، و إدخال المستجيبين.

توفى سنة ٩٩٣ هـ. و دفن في مقابر أجداده في قرية انجدان.

شاه نزار الثاني الامام الأربعون

ولد سنة ٩٧٢ هـ. في انجدان، و تسلّم شؤون الإمامة بعد والده سنة ٩٩٣ هـ ... و عند تسلمه كانت هناك رابطة من الثقة و المحبة المتبادلة

بين ملوك إيران الصفويين و الإسماعيليين، و كانوا يطلقون على شاه نزار الثاني اسم «عطا الله»

ذكر أنه شيّد قرية قرب جبل «بندی» و سماها قرية «شاه نزار» و لا يزال حتى الآن تسمّى «الكهك» و لكن الهنود كانوا يلفظونها بالتخفيف فيقولون: «كيك»

الجماعة الإسماعيلية في الهند أى «الخوجة» كما يسمونهم حتى اليوم كانوا يفدون بأعداد كبيرة من الهند إلى مقر الإمام لنيل بركاته و مقر الإمام كان يدعى «باب» أو «درخانه».

أمّا اسماعيلية إيران فكانوا في عهد شاه نزار الثانى يسمون «عطاء الهى» و كانوا يتعاطون أعمال الزراعة في منطقة «كوهك»، و من الجدير بالذكر أنهم عمروا البنايات، و الحدائق الغناء عند كوهك، و سميت هذه الحدائق باسم «نزار اباد» كما أنه شيّد روضة عظيمة لمقابر أئمة الإسماعيلية، و تشاء الظروف أن يقع الخلاف من جديد بين الصفيين و الإسماعيليين، فأعمل الصفيون السيف في رقاب الإسماعيليين، و شردوهم من المدن، و طاردوهم في كل مكان، كما امتلأت السجون بهم.

و مما تجدر الإشارة إليه أنه في عهد شاه نزار الثانى قتل الصفيون الشعراء الإسماعيليين منهم «قاسم أميرى» و «داعى عبد الغنى» و قد اتهموا بالكفر و الإلحاد.

و من الأمور البارزة في عهد شاه نزار الثانى ظهور أحد كبار الصفيين الإسماعيليين و اسمه «قبله مين شاه» و لهذا العلامة الكبير مقام عال في مقاطعة «كرمان» ببلدة «ماهيون».

و مهما يكن من أمر ... و بالرغم من كل ما وقع للإسماعيليين من ضغط و إرهاب، فإن عهد شاه نزار كان عهدا مزدهرا و ذهبيا، و قد تمكن الإسماعيليون من اكتساب العديد من المستجيبين لدعوتهم.

توفى سنة ١٠٣٨ هـ. و دفن في «كوهك».

شاه سيد على الامام الواحد و الاربعون

ولد سنة ١٠١٥ هـ. في بلدة «كوهك» و تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده أى سنة ١٠٣٨ هـ.

##PAGE=110##

انصرف إلى الشؤون السياسية المتعلقة بالقضايا الفارسية، و على الأخص قضايا السلطنة، و من ألقابه «اسماعيل آغا» و كنيته «سيد أبو الحسن بيك» عرف أتباعه باسم «عطا الهى» و قد انخرطوا في سلك البوليس و الإدارات الحكومية.

مسكنه كان في بلدة «بابك» و لكن الحكومة الصفوية عينته حاكما على مقاطعة «كرمان» و تشاء الظروف أن يموت السلطان عباس شاه في وقت تسلّمه منصبه المذكور فجلس ابنه صفى ميرزا على عرش إيران بموجب وصية والده، و لكن تصرفاته و أعماله كانت مدعاة إلى قيام معارضة من قبل الشعب، و فى سنة ١٠٥٢ هـ. جلس شاه عباس الثانى على كرسى الحكم فقام بالمهمة خير قيام، فسنّ القوانين و المراسيم، و قاد الرعية خير قيادة، و أثبت مرونة و ذكاء عند ما فكر الأتراك و الأفغانيون بشن هجوم على إيران، و كان إلى جانبه الإمام سيد على يساعده و يمدّه بالمعونة و بالآراء، و خاصة تنظيم الجيش الذى ضمّ العديد من القواد و الجنود الإسماعيليين.

و بالرغم من انشغاله بالأمور السياسية العليا، فإنه خصّ جانباً من أوقاته لأتباعه، و العناية بهم، و الإشراف على شؤونهم، و خاصة الهنود الذين كانوا يتهافون على مقره.

امتدت امامته اثنتين و ثلاثين سنة و مات فى مدينة «كرمان» و دفن فيها و ذلك سنة ١٠٧١ هـ.

حسن على الأول الامام الثانى و الاربعون

ولد فى بلدة كوهك سنة ١٠٣١ هـ. و جلس على مسند الإمامة بعد وفاة والده سنة ١٠٧١ هـ. و من الجدير بالذكر أنه وجّه كافة اهتمامه إلى شؤون أتباعه، و إلى الدعوة، و كان يعاونه أفراد من عائلته و يؤدون له أحسن الخدمات.

كان معاصرا للشاه «سليمان الصفوى» و كان على علاقة جيدة به، و فى عهد، الشاه المذكور أصبحت قلعة «الموت» سجنا للسياسيين، كما أنه أعاد ترميم بعض القلاع الإسماعيلية و حولها إلى سجون.

فى عهده أصبح «الشاه حسين الصفوى» سلطانا على إيران، و لم يكذب

##PAGE=111##

يتسلّم شؤون الملك حتى عيّن «حسن على الأول» حاكما على «كرمان» و قد ظلّ فى منصبه مدة عام، حيث أدركته المنية.

مات سنة ١١٠٦ هـ. و دفن فى «النجف».

قاسم على الامام الثالث و الاربعون

ولد فى كرمان سنة ١٠٩٠ هـ. و تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة أى سنة ١١٠٦ هـ.. كان محبوبا و مقدّرا من قبل ملوك إيران الصفويين لدرجة أنهم كانوا يلجأون إلى آرائه، و قد أسندوا إليه وظيفة الحاكمية على كرمان.

فى عهده أخذ الإنحطاط يتسرب إلى الدولة الصفوية، و ظهرت بوادر الضعف و الإنهيار جلية و ذلك عند ما قام «نادر شاه الافشارى» بمعارضته و تطلعه للحكم، و قد نجح فى مساعيه، و قامت القبائل القاجارية باندفاع سياسى و عسكرى نحو عرش الصفويين، فتمكنوا من النجاح، و الاستيلاء على العرش.

توفى سنة ١١٤٣ هـ. و دفن فى مدينة «كرمان».

أبو الحسن على الامام الرابع و الاربعون

ولد فى كرمان سنة ١١١٥ هـ. و جلس على مقعد الإمامة سنة ١١٤٣ هـ، و فى إيران يلقبونه «بالسيد حسن شاه» و «حسن بيك» سكن فى قرية «قياب» قرب «دركان».

تم فى عهده انقراض الأسرة الصفوية الحاكمة، و قيام الأسرة «الافشارية» مكانها، و تنصيب «نادر شاه» سلطانا.

انصرف إلى العناية بشؤون أتباعه، و قد عيّن «على شاه» وكيلا فى الهند، و قامت حروب مستمرة بين «نادر شاه» و «محمد شاه» و لكن الإمام أبا الحسن على وقف بجانب نادر شاه ممّا جعله يعجل بتعيينه حاكما على كرمان.

و بعد وفاة نادر شاه بمدة وجيزة ضاعت السلطنة من يد «الإفشارية» واستولى على الملك «كريم خان زند» و هو من عائلة «الزندية» المشهورة بالشجاعة و الحرب، و كان الإمام أبو الحسن علي على علاقة طيبة به،

##PAGE=112##

و لهذا اتخذه مستشارا و كان لا يقوم بعمل من الأعمال إلا بعد الرجوع إليه.

بعد تسلّم «كريم خان» الملك قام بوجهه «محمد حسين خان» من قبيلة «القاجارية» و أراد الإستيلاء على الملك، و لكن كريم خان تمكن من الانتصار عليه و قتله ثم سجن ولده «محمد خان آغا»، و هكذا أخضع كريم خان بلاد إيران بمجموعها إليه، فكرّس دولته و وضع الإمكانيات بتصرف الإمام أبي الحسن و ذلك مكافأة له على موآزرته و على المساعدات التي قدمها له و خاصة الجنود الإسماعيليين الذين أبلوا البلاء الحسن في الحرب ..

توفى السلطان كريم خان سنة ١١٩٢ هـ و بعد وفاته بعام واحد توفى الإمام أبو الحسن على سنة ١١٩٣ هـ. و قد نقل جثمانه إلى النجف الأشرف بناء على وصيته.

ازدهرت الدعوة الإسماعيلية في عهده ازدهارا قويا و خاصة في الهند، و كان يقوم بشؤون التبليغ ذرية «بيرسيد رحمة الله و داؤد» و في تلك الفترة أنهى الإمام اسم «الوكلاء» في الهند، و استعاض عن ذلك باسم «باوا».

شاه خليل الله الامام الخامس و الاربعون

ولد سنة ١١٥٣ هـ. في مدينة «كرمان» و تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة أى سنة ١١٩٤ هـ.

منذ أن كان صغيرا كان يرافق والده إلى مقاطعة «محلّات»، و من المشهور عنه طيبة قلبه، و ترفعه، و أخلاقه العالية، و محبته لكافة الناس، و هذا ما قرّبه إلى القلوب، و جعل السلطان يصدر أمره بتعيينه حاكما على مقاطعة «محلّات».

تزوّج في سن مبكرة من ابنة عمه «بى بى سركار» بنت «ميرزا محمد باقر خان» و بعد فترة ماتت، فتزوج شقيقتها «إيماني خان».

و تشاء الظروف أن يسافر في تلك الفترة إلى بلدة «يزد» لبعض الأعمال، و لتفقد بعض أتباعه، و هناك تشاجر خادمه مع أحد الباعة، فذهب البائع و شكأ أمره إلى متسلم البلدة «نواب ميرزا جعفر»، فطلب «نواب المذكور الخادم لمعاقبته، و لكن الإمام رفض تسليمه،

##PAGE=113##

و هذا الرفض دفع أحد أعداء الإمام المقربين من الحاكم فأخذ يحرّضه على الإمام، و على الأثر أرسل الحاكم فرقة مسلحة و على رأسها «ملا حسين» فأحاطوا بدار الإمام، و دخلوا إليه، و لمّا كان رجال الإمام غير مسلحين، فإن مقاومتهم لم تستمر فسقطوا قتلى، كما سقط الإمام نفسه قتيلا.

و عند ما علم «زمين خان» حاكم «يزد» بهذه الواقعة ألقى القبض على المهاجمين و أرسلهم إلى السلطان «فتح على شاه القاجارى» مع تقرير يتضمن التفاصيل.

و بعد أن اطلع السلطان على الحقيقة أمر بإبعاد «نواب جعفر ميرزا» بعد أن أجبره على دفع الديّة، كما أمر بإعدام «ملّا حسين اليزدى».

بعد هذه الواقعة هاجت نفوس الإسماعيليين، و فكروا بالتأثر، و لكن السلطان «فتح على شاه» طيب خاطرهم، و قربهم، و أحسن معاملتهم، ثم طلب ابن الإمام و ولى عهده «حسن على شاه» و قربّه و منحه لقب «آغا خان»، ثم زوجه بابنة من عائلة أسرة السلطان الحاكمة، و كان عمره و قتلته سبعة عشر عاما.

فى عهد «شاه خليل الله» انتهى حكم قبيلة «الزندية»، و تسلّم «القاجاريون» شؤون السلطنة الإيرانية. و بالنسبة للدعوة فإن العلاقات ظلّت قائمة مع الهند، و كان يقوم بها كل من «بير غلام على شاه» و «بير محمد شاه» فى بومباى، و من الملاحظ أنهما ماتا قبل استشهاده .. كان للإمام خليل الله أربعة أولاد هم: «شاه حسن على (آغا خان)» و «سردار محمد تقى خان» و سردار محمد أبو الحسن خان» و سردار محمد باقر خان ... توفى سنة ١٢٣٣ هـ و دفن فى النجف الأشرف.

شاه حسن على آغا خان الأول

ولد شاه حسن على سنة ١٢١٩ هـ فى بلدة «محلّات»، و تسلّم شؤون الإمامة سنة ١٢٣٣ هـ. بعد وفاة والده، و كان لا يعرف إلّا باسم «آغا خان»، و هذا اللقب طغى على اسمه الأصيل.

كان معاصرا للسلطان فتح على شاه القاجارى كما عاصر السلطان «محمد شاه» بعد وفاة جده «فتح على شاه»، و من الجدير بالذكر أن آغا خان عاونه و شجعه و أمده بالاستشارات، و لكن الوزير الأعظم

##PAGE=114##

«الآقاسى» خاف من آغا خان، و تذكر بعض المصادر الإيرانية التاريخية أن رجلا فارسى الأصل، و ضيع الأرومة، كان يخدم الوزير المذكور، فلما ارتفعت درجته طلب يد إحدى كريمات الآغا خان فلما رفض طلبه راح يوغر صدر السلطان على آغا خان و يحرضه عليه، و يحذره منه، ممّا جعل السلطان يخضع لوشاية «الآقاسى» و أصبح ينظر للإمام آغا خان نظرات مريبة.

وقعت بعض المعارك بين جنود السلطان و الإسماعيلية فى بعض المناطق و ساءت الأحوال لدرجة أن «آغا خان» علم بأن بقاءه فى إيران لم يعد جائزا، فأعدّ عدة السفر مع أسرته و غادر إيران بطريقه إلى الهند، و عند وصوله إلى «بلوجستان» استقبل استقبالاً منقطع النظير من قبل الأهلىين ثم تابع سفره بعد ذلك إلى الهند، و كان قد تعرّض لكثير من المصاعب و الأهوال التى أقامها سلطان إيران و وزيره فى طريقه.

كانت «بريطانيا العظمى» فى ذلك الوقت فى الهند تضع قدمها لاستعمار هذه البلاد الواسعة، و من الغريب أن هذه الدولة قد رحبت به و استقبلته استقبالاً رسمياً عند وصوله إلى حدود الهند و وضعت تحت تصرفه كافة الوسائل التى تؤمن له الراحة

والاطمئنان . و ممّا تجدر الإشارة إليه أن أمراء و ملوك السند كانوا في تلك الحقبة يبدون معارضةً عنيفةً للدولة المستعمرة، و يجهزون أنفسهم للدفاع و القتال. فتقدم آغا خان و توسّط بين الطرفين، فتمكن من إصلاح ذات البين و إيقاف كل نزاع. و هذا ما جعل «بريطانيا» تضاعف تقديرها لجهوده و ولاءه و خدماته . و لكن النزاع لم يلبث أن ظهر من جديد بين الدولة المستعمرة، و أمراء السند بشأن مدينة «كراتشي» فبريطانيا طلبت الإستيلاء عليها لتحويلها إلى قاعدة بحرية، و مرفأً تجارى فى آن واحد، على أن تؤدّى إلى خزائن السند كافة العائدات الجمركية، و عند ما رفض أمراء السند هذا الطلب، تقدم آغا خان منهم و نصحهم بالقبول و الموافقة على طلب الدولة الصديقة، و عند ما أصروا على الرفض بدأ القتال، تمكن الإنكليز خلال مدة قصيرة من تحقيق الانتصار الساحق على الجيوش الهندية بقيادة «سير جاكسن» و هذا ما حرّك آغا خان ثانية فذهب إلى «كلكتا» و عقد اجتماعا مع أمراء الهند، و مهّد إلى اجتماع عام مع

##PAGE=115##

البريطانيين انتهى بعقد صلح طويل الأمد . قابل الإنكليز هذه الجهود و الخدمات بكل تقدير و احترام و اعتبروها ولاءً جديراً بالثناء و المكافأة و عندئذ أصدر حاكم السند البريطانى أمره بمنح آغا خان لقب «ssenhgiH» «siH أى «صاحب السمو» كما عيّن له راتبا ضخما، و اتفقوا معه أن يكون مقره الدائم فى مدينة «بومباى».

و قد حافظ آغا خان طيلة حياته على صداقته للبريطانيين، و من مجالى التكريم و التأييد أن الملك أدوارد السابع، و كان لا يزال وليا للعهد قام بزيارته فى منزله عند ما زار الهند، و تحادث معه طويلا فى كل ما يتعلق بشؤون الهند و سياستها الداخلية و الخارجية.

توفى آغا خان سنة ١٢٩٨ هـ. أى سنة ١٨٨١ م و دفن فى محلة «مجاون» فى مدينة بومباى، و أقيمت له روضة تسمّى «حسن أباد».

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنه أقيمت له جنازة رسمية اشترك فيها كافة أمراء الهند و السفراء الأجانب و الدولة.

ترك آغا خان بعد وفاته أربعة أولاد هم:

«على شاه» الذى اصبح إماما بعد وفاة والده، و «جنكى شاه» و «جلال شاه» و «أكبر شاه».

على شاه آغا خان الثانى

ولد سنة ١٢٤٦ هـ فى بلدة «محلّات» الإيرانية و تسلّم شؤون الإمامة سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١ م).

والدته هى: سرو جهان بيجوم و هى كريمة «فتح على شاه» القاجارى ... زوجته سيّدة عراقية اسمها «مريم سلطان» و قد ولدت له ولدين.

كان من الرماء المعروفين المشهورين فى عموم الهند. أمّا هوايته فكانت صيد الحيوانات المفترسة، و يذكر تاريخه أنه قتل ما ينيف على الأربعين أسدا قتلها فى غابات الهند وجها لوجه.

بعد وفاة زوجته مريم سلطان، تزوج بس يده إيرانية من أهالي شيراز كانت تسكن في مدينة بومباي، و بعد وفاتها تزوج بصاحبة العزة و التقوى السيدة «عالية شمس الملوك» ابنة «ميرزا علي محمد خان، نظام الدولة ابن عبد الله خان أمين الدولة ابن الحاج محمد حسين

##PAGE=116##

خان الأصفهاني» و كان والدها مقربا و محترما لدى شاه إيران الفاجاري . و من الجدير بالذكر أن السيدة عالية شمس الملوك ولدت صاحب السمو «سلطان محمد» آغا خان الثالث و هو الذي تسلّم شؤون الإمامة بعد والده.

من الجدير بالذكر أن «علي شاه» تزوج خمس نساء فكان له منهن ثلاثة أولاد أحدهم : «شهاب الدين» مؤلف رسالة «حقيقة الدين» و كان عالما فذا، و الثاني هو «نور شاه».

سار علي خطى والده فيما يختص بعلاقته مع الدولة البريطانية . ففي زمن حاكمية «سرجيمس» صدرت الأوامر إليه ليكون السفير العام لإيران في الهند، كما كان يضطلع برئاسة «جمعية الاتحاد الإسلامية». مضافا إلى ذلك أنه كان يتمتع بشعبية عظيمة في الهند.

و كانت الحكومة البريطانية توليه ثقته التامة، مما ساعده على النهوض باتباعه.

توفي في بومباي سنة ١٣٠٢ هـ. و نقل جثمانه إلى النجف حيث دفن و كان عمر الذي تولى الإمامة بعده «سلطان محمد» «آغا خان الثالث» ثمانية أعوام.

سلطان محمد شاه آغا خان الثالث

لم يكن آغا خان الثالث شخصا عاديا تسهل دراسته، أو النفاذ إلى واقعه، أو الوصول إلى أعماق حياته، و دقائق أسراره، و معرفة كل خفاياه. فهذه الشخصية لعبت دورا مهما على مسرح الحياة العالمية، فكانت مرموقة في كل حركاتها و سكناتها، و موفقة في كافة مراحل حياتها، و بارعة في تمثيل أدوارها . حلقت في الأعلى، فوصلت إلى القمم الشاهقة، و تفيأت ظلال المثل العليا تحوطها هالة من التقدير و الجلال، و تحجب حقيقتها عن العيون سحابة كثيفة من غموض أثارت حولها المزاعم و جعلتها هدف الناس و شاغلهم، و موضع تخميناتهم.

و عندي أن آغا خان لم يكن للإسماعيليين أو للمسلمين فحسب، بل كان للإنسانية جمعا ... فهو من الذين عرفوا الحياة، و تفيأوا ظلها الوارف، و عبروا عنها تعبير ناطق حكيم بصير، و ساروا باتجاه الكمال المطلق يعرفون من ينابيعه الخيرة، و يمرون على مسرح الحياة مرور

##PAGE=117##

سحابة عابرة فوق بادية جدباء، يوحون إليها بالأمل، و يعطرون أرجاءها بالحياة، و يبشرونها بالخير و الرجاء.

كان آغا خان الثالث تاريخاً قائماً بذاته ... لا تزال صفحاته مطوية، ولم تنزل سرّيته عميقة، وبعيدة الغور .. كان يعمل للخلود، و يترقّع عن صغائر الأشياء، و يتطلّل بروحية خالدة .. و إيمان مطلق يضيفان عليه سحابة من السمو و الإجلال . و ذهب إلى الغرب، و ضرب لهم مثلاً أعلى ... علمهم أن فى شرقنا الجميل نبوغاً و أن الشرق منبع الحضارات و الفنون، و مهبط العبقريات و الإلهام، و إنى أجلّه عن مستوى السياسى المحنك، و أرفعه عن نطاق الزعيم الاجتماعى الكبير.

أجلّه عن مستوى هذين، لأضعه فى مصاف الفلاسفة و المصلحين الأفاضل، و القوآد العباقرّة و الحكماء الباصرين الذين سبقوا عصرهم بمراحل، و تعمقوا بدراسة الحياة، فساروا بأمتهم إلى الغاية المثلى و الهدف الأسمى و الكمال المطلق.

و قبل أن تندلع نار الحرب الكونية الثانية سنة ١٩٣٧ م. رأيناه يهرع مدفوعاً بإيمانه إلى «بيرختشغادن» فى ألمانيا، مقر زعيم ألمانيا النازية «هتلر» ليثنيه عن عزمه و يقنعه بعدم إشعال نار الحرب، و كانت الدول الحليفة قد انتدبت له هذه المهمة.

سمعته فى القاهرة سنة ١٩٥٦ يقول لأتباعه الذين جاءوا لزيارته:

«علّموا أولادكم العلوم العملية و أبعدهم عن العلوم النظرية . فالعالم قادم على انقلاب خطير، و تطور سريع فى ميدان الاستنباط و الاختراع».

و رأيته فى القصر الجمهورى فى دمشق سنة ١٩٥١ ... عند ما قلّد و شاح أمية المرصّع، يباحث كل وزير من الوزراء بشؤون وزارته، و يسأله أسئلة دقيقة و محرّجة، ثم يعطيه بعد ذلك الآراء و التوجيهات بالأرقام ... و يومها قال أحد المسؤولين الوزراء:

«ما رأيت مثل آغا خان ... إنه يفهم كل موضوع، و يلم بكل فن، و لا تفوته شاردة أو واردة».

و قرأت وصيته إلى أتباعه فى أفريقيا الشرقية، عند ما أمر بإنشاء المستشفى الكبير فى نيروبي، كينيا التى يقول فيها:

«يجب أن يكون هذا المستشفى للجميع على اختلاف الملل و النحل».

يصنّفه البعض على أنه من أنصار السياسة الإيجابية «اللاعنفية»

##PAGE=118##

بالنسبة لبريطانيا العظمى فى الهند، و قد تكون هذه السياسة مستوحاة من معرفته بأن سياسة العنف لا توصل الهند إلى استقلالها.

و أيّد «آغا خان» الثالث «محمد على جناح» بحملته التى قام بها لإيجاد دولة باكستان الإسلامية، و فصلها عن الهند، فدعم كيان باكستان فى المجال الدولى، و قدم العون للمسؤولين فيها لا شىء إلّا لأن فلسفته و اعتقاده بأن ذلك قد يضع حداً للمذابح الأهلية، و للمعارك الدموية الدينية، بين الهندوس و المسلمين.

و قرأنا عنه ما قاله للوفد الإسلامى الذى جاء يطالبه بالمساهمة ببناء «معهد مومباسا للتربية الإسلامية» فى مدينة «مومباسا» كينيا:

«إننى لا أساهم إلّا بإنشاء مدرسة صناعية كبرى لتعليم الصناعات المختلفة و المهن الحرة ... فقد كفانا، نوما و ركضا وراء الخيالات و الأحلام».

و من اقواله المأثورة:

لو كان لدينا جميعا وعى صحيح لما وقعت الحروب ... إن العقل الكامل ينقص بنى الإنسان

و قال:

لا أرى حلا للقضية الهندية إلّا الاستقلال التام، و إلغاء التمييز العنصرى الذى هو أشد اعداء الإنسانية.

و قال:

إن الشجاعة لا تكون فى ميادين القتال، و إنما فى عقيدة الإنسان، بغض النظر عن لونه و عقيدته.

و قال:

إن المهاتما غاندى لم يكن فى يوم من الأيام حائلا دون التفاهم و التعاون ...

و لسوف يعترينى حزن عميق إذا مات. لأن غيابة عن الهند كغياب الشمس عن الأنظار.

و قال:

يخطىء من يظن أن اهتمامى ينحصر بالسياسة وحدها، فإن أعظم أوقاتي و أعمقها خلودا فى نفسى هو يوم «الجمعة» حيث أفضى ككل مسلم ساعة صلاة و تأمل و انقطاع.

و قال للوفد الأفريقى الذى جاء للترحيب به فى مدينة دار السلام بأفريقيا الشرقية:

إننى أو من بعظمة الله، و لسوف يأتى يوم يعم النور فيه كافة القارة الأفريقية، و ذلك حينما تعيش جميع الملل و الشعوب و الألوان و العقائد دون أى تمييز مع بعضها لتحقيق العدالة و الحرية و المساواة.

##PAGE=119##

و أخبر مرة أن شابا إسماعيليا متحمسا اغتال ثلاثة من الإسماعيليين الذين تركوا عقيدتهم، و قد ظن هذا الشاب أن عمله يرضى آغا خان، فما كان منه إلا أن أصدر أمره بطرده و حرمانه من كافة الحقوق، حتى أنه منع دفنه فى المقبرة العامة

الخاصة بالإسماعيلية، ثم أعطى أمرا إلى أتباعه بأن هذا الحادث إذا ما تكرر فإنه سيكون سببا رئيسيا لتخليه عن القيادة العامة و عن الإمامة أيضا.

لا أدري ... ما ذا أقول بعد كل هذا عن آغا خان ... عن الشخصية التي برزت في حقل التقدم الفكرى بروزا واضحا، و كان يبعد نظره و صدق حدسه، و براعته فى التنظيم، و فصاحته فى القول من أنبل من عرفته البشرية، و كان عظيما بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، و قد عمل لخير الإنسانية كافة و للسلام العام، و فهم الحياة من خلال واقعية صادقة قائمة على الحقيقة و الصدق و الإيمان.

ولد «سلطان محمد، شاه آغا خان الثالث» يوم الجمعة فى ٢ تشرين ثانى سنة ١٨٧٧ م فى محلة «شهر العسل» بمدينة كراتشى، و منذ طفولته كان يبدى اهتماما بالغا بمختلف الألعاب الرياضية، فيسير مسافات طويلة على قدميه، و يتحجب إلى الحيوانات.

و لما بلغ الخامسة من عمره توفى جده «حسن على شاه» آغا خان الأول، و بعد أعوام ثلاثة مات والده «على شاه، آغا خان الثانى» و فى هذه السن المبكرة اجتمع رجال الدعوة الإسماعيلية فى الهند، و احتفلوا بتسلمه شؤون الإمامة، و قد كان هذا التدبير من الأسباب التى حفزت والدته على مضاعفة السهر على حياته، و إحضار المربين الاختصاصيين و الأساتذة الماهرين الذين عملوا على تعليمه اللغات الأجنبية التى أصبح يجيدها كأبنائها و هى : الإنكليزية و الإفرنسية، و العربية، و الفارسية، و لغات الهند الدارجة ... مضافا إلى قراءة الكتب و دراسة كل ما يهم المثقف كتاريخ الهند، و فارس، و إنكلترة و فرنسا، و التاريخ العام، فضلا عن الفقه الإسلامى، و الآداب الشرقية، و الشعر الفارسى لحافظ، و الخيام، و خسرو، و الفردوسى، و الرومى و غيرهم من أعلام الشعر و الأدب.

و يقول:

«عند ما كنت أدرس الأدب، و التاريخ الإسلامى، و الفارسى فى أيام طفولتى،

##PAGE=120##

كانت و مازالت لى رغبة خاصة بالدراسات التاريخية المتعلقة بالخلفاء الأولين، و الملوك الغابرين، و لقد اكتسبت على أيدى أساتذتى تعلقا بكتاب «أبلغ المؤرخين» و «أشهر الروائيين السابقين» و كتب التاريخ، و علم الحياة و الفلسفة و علم اللاهوت».

و فى سنة ١٨٩٣، و كان قد بلغ السادسة عشرة من عمره ... حصل نزاع بين الهندوس و المسلمين فى بومباى، الهند، بشأن ذبح بقرة، و كان من جملة الضحايا اثنان من أتباعه، فأصدر أمره المشدد إلى أتباعه بالكف عن الخصام، و مساعدة السلطات على إعادة الهدوء و الاطمئنان.

و فى سنة ١٨٩٧ وقعت مجاعة كبيرة فى الهند فساهم فى تخفيف الكارثة و وضع المخيمات فى كل مكان لتخفيف المجاعة التى كان يموت من جرائها ألوف من الناس فى اليوم الواحد، و كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت العالم الجرائمى البروفسور «هوفكين» ليشرف بنفسه على مكافحة الوباء فأحضر مصلا فيه الوقاية ضد المرض، و أراد استعماله، و لكن

الأهلين نظروا إليه نظرة شك و ارتياب، و علت الاحتجاجات فى كل مكان بأن المصل فيه سم زعاف، فتدخل آغا خان و جرب المصل فى نفسه، ليزيل الشكوك، و يكذب الإشاعات و الأقاويل.

تزوج فى سن العشرين ابنة عمه «شاه زاده» وزار الغرب لأول مرة سنة ١٨٩٨ و عند ما وصل إلى لندن منح لقب «كومان دور» للأمبراطورية الهندية، فكان أول هندي ينال، هذا اللقب الرفيع.

و فى سنة ١٨٩٩ زار «زنجبار» لتفقد أتباعه، و منها عاد إلى أوروبا، فزار ألمانيا و منح لقباً من الأمبراطور، و كان آغا خان قد طالبه بأن يمنح أتباعه حماية خاصة و بعض الامتيازات فى مقاطعة «تانكانيكاف» فى أفريقيا الشرقية، و هم لا يزالون حتى الآن يمارسون الأعمال الحرة الواسعة النطاق، و زار بعد ذلك فرنسا فقابل فيها شاه إيران المخلوع عن العرش ثم زار القسطنطينية و حلّ ضيفاً على السلطان التركي عبد الحميد الذى منحه و سام «قمر تركية» و عرف ما زار أفريقيا الشرقية مرة ثانية منح و سام زنجبار المتألىء، و عند ما توج الملك إدوارد السابع انتدبته حكومة الهند لتمثيلها فى حفلات التتويج.

و فى سنة ١٩٠٦ م أنشأ الهيئة الإسلامية العامة و تولى رئاستها سنة

##PAGE=121##

١٩٠٧. و فى سنة ١٩١٠ م ساهم بإنشاء جامعة «عليكوه»، و فى سنة ١٩٠٨ تزوج الأميرة الإيطالية «بتريسا ما غليانو» فأنجب منها «الأمير على خان».

و فى سنة ١٩٢٦ ماتت زوجته المذكورة. فتزوج من «أندريه كارون» الإفريقية و ولدت له «الأمير صدر الدين خان» و فى سنة ١٩٤٤ تزوج «بايغيت لايروس» الإفريقية الأصل و فى سنة ١٩٣٦ وزن بالذهب فى بومباى و فى سنة ١٩٢٧ وزن بالذهب فى نيروبي بأفريقيا الشرقية، و فى سنة ١٩٤٦ وزن بالألماس فى بومباى الهند، و فى العام نفسه وزن بالألماس فى دار السلام بأفريقيا الشرقية. و فى سنة ١٩١١ قام بجمع تبرعات لمساعدة جامعة «على غرة» بلغت ثلاثة ملايين روبية. و فى سنة ١٩٣٢ مثل الهند فى مؤتمر نزع السلاح، و فى سنة ١٩٣٧ ترأس عصبة الأمم فى جنيف باعتباره ممثل الهند الدائم فى هذه المؤسسة الدولية. و فى سنة ١٩٣٠-١٩٣١ ترأس الوفد الهندي إلى مؤتمر الطاولة المستديرة، و فى العام نفسه قام بالوساطة بين الحلفاء و ألمانيا، و قابل هتلر فى بيرختسغادن.

و فى سنة ١٩٢٩ رغب إلى الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر بإرسال بعثة إسلامية لتدريس الدين الإسلامى فى اليابان على أن يتكفل هو بالإنفاق عليها. و فى سنة ١٩٤٩ منح لقب مواطن إيراني، و فى سنة ١٩٥١ زار باكستان بعد استقلالها، و استقبل فيها استقبالاً حافلاً.

و فى سنة ١٩٥١ زار دمشق و منح و سام و شاح أمية المرصع، ثم زار إيران فى العام نفسه و منح أعظم و سام فيها، و فى سنة ١٩٥٤ وزن بالبلاطين، و فى سنة ١٩٥٧ أنشأ كرسيًا للدراسات التاريخية الإسلامية فى جامعة «هارفارد» فى الولايات المتحدة الأميركية.

فى ١١ تموز سنة ١٩٥٧ توفى فى سويسرا، و نقل جثمانه إلى «أسوان» فى مصر حيث دفن فيها باحتفال مهيب، و كان هذا بناء على وصيته.

تعتبر مذكرات آغا خان التي وضعها باللغة الإنكليزية، و قد ترجمت إلى بعض اللغات العالمية، تؤلف فتحاً جديداً في أسلوب المذكرات، بلنظر لما تضمنته من حقائق دامغة و حوادث شيقة صاغها بأسلوب واضح جذاب . و قد ترجمت سنة ١٩٥٩ إلى العربية و طبعت في بيروت - لبنان.

##PAGE=122##

عاصر الملكة البريطانية «فيكتوريا» التي دعته إلى الولايات و الحفلات أكثر من مرة و بعدها الملك إدوارد الذي منحه أرفع أوسمة الأمبراطورية العظمى .

نصّب نفسه مدافعاً عن القضايا الإسلامية بصورة عامة، و اهتم بها و تبرع لأجلها . كان مغرماً بالألعاب الرياضية و خاصة «الغولف» و له هواية كبرى بسباق الخيل، و كان يمتلك أكبر إسطنبول للخيل في العالم . و كان يهوى الموسيقى و الفنون الجميلة و يحب مطالعة كتب التاريخ و الفلسفة.

الأمير علي خان

هو الابن الأكبر لآغا خان، ولد في ١٣ حزيران/ يونيو سنة ١٩١١ م في مدينة تورينو الإيطالية و تنقّف في لندن حيث حصل على إجازة في القانون الدولي.

كان رياضياً مغامراً يهوى ركوب الخيل و قيادة السيارات، و تسلق الجبال و التزلج على الثلج، و كان لطيفاً و ذكياً، و وسيماً، و بارعاً في الحديث، و اكتساب الأصدقاء و المعجبين.

تطوّر في الحرب العالمية الثانية مع الحلفاء برتبة ملازم ثم أصبح «كابتن» و مهمته ضابط ارتباط بين القيادتين الفرنسية و الإنكليزية في بيروت، و المسؤول عن الأمن الع سكري، و عين في الخمسينات مندوباً للباكستان لدى الأمم المتحدة و سفيراً للباكستان في البرازيل و كان معروفاً عنه دفاعه الدائم عن القضايا الإسلامية و العربية.

كانت تربطه صداقات كبرى مع الشخصيات العربية الكبرى في مصر و سورية و لبنان و العراق فضلاً عن صداقاته في أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية.

قضى أياماً طويلة بين أتباعه في سورية، و كان يوليهم عطفه الخاص.

تزوج لأول مرة من السيدة «تاج الدولة» و هي بريطانية و قد أنجب منها ولدين هما : كريم و أمين محمد ... ثم طلقها و تزوج الممثلة العالمية «ريتا هيوارث» فأنجب منها ابناً سمها «ياسمين».

قتل بحادث سيارة في باريس سنة ١٩٦٠، و دفن في «سلمية» بناء على وصيته.

كريم آغا خان الرابع

ولد سنة ١٩٣٦ م، والده هو «علي خان» ابن آغا خان الثالث و أصبح إماماً للإسماعيلية بنص شرعي من جده.

درس فى جامعة «هارفارد» فى الولايات المتحدة الأمريكية، و تخرج منها متزوج من البيجوم سليمه، و له منها ثلاثة أولاد هم: الأميرة زهراء و الأمير رحيم و الأمير حسين .

الإمام نزار بن الإمام المستنصر بالله

القاسم شاهيه

على الهادى

المهتدى

القاهر

حسن على ذكره السلام

أعلا محمد

جلال الدين حسن

علاء الدين محمد

ركن الدين خير شاه

شمس الدين محمد

المؤمينة

الحسن بن نزار (الهادى)

محمد بن الحسن (سنان راشد الدين)

الحسن بن محمد (جلال الدين)

محمد بن الحسن (علاء الدين)

محمود بن محمد (ركن الدين)

محمد بن محمود (شمس الدين)

الإمام شمس الدين محمد

قاسم شاه

اسلام شاه

محمد بن إسلام

المستنصر بالله الثاني

عبد السلام شاه

غريب ميرزا

أبو الدر علي

شاه مراد ميرزا

ذو الفقار علي

شاه نور الدين

خليل الله علي

شاه نزار الثاني

شاه سيد علي

حسن علي الأول

قاسم علي

أبو الحسن علي^٣

شاه خليل الله

^٣ تامر، عارف، تاريخ الاسماعيلية، 4 جلد، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

شاه حسن على - آغا خان الأول.

على شاه - آغا خان الثاني.

سلطان محمد شاه - آغا خان الثالث.

كريم شاه - آغا خان الرابع.

كياشاه مؤمن شاه

محمد بن مؤمن

رضى الدين بن محمد

طاهر بن رضى الدين

رضى الدين بن طاهر

طاهر شاه الحسينى الدكنى

حيدر بن طاهر

صدر الدين بن حيدر

معين الدين بن حيدر

عطية الله بن معين

عزيز بن عطية الله

معين الدين الثانى بن عزيز

محمد بن معين الدين

حيدر بن محمد

محمد الباقر بن حيدر

##PAGE=125##

هو الابن الأكبر للإمام شمس الدين آخري «الموت» النزارية و صاحب النص الشرعي لدى المؤمن شاهية بينما يرى أتباع القاسم شاهية كما ورد سابقا، بأن قاسم شاه، هو صاحب النص الشرعي و صاحب الحق بالإمامة.

ولد سنة ٦٧٩ هـ. في أذربيجان، و أخذ العلوم و الفقه و مبادئ الفلسفة عن والده الإمام شمس الدين، و عن الدعاء الذين تجندوا لخدمة هذه الأسرة بعد نكبة الموت. و بعد وفاة والده اتخذ من «تبريز» دارا للهجرة، و مقرا للإمامة.

يعتبر رأس الأسرة «الخدائندية» كما تسميها مصادر التاريخ الفارسي، و الهندي، و من الواضح أن هذه الأسرة اتخذت في عهد والده شمس الدين من قرية «خوند» في مقاطعة «مازندران» الفارسية مقرا، و ذلك بعد خراب «الموت» على يد هولوكو، و بعد انتقال والده من قونية.

كان مؤمن شاه على مستوى رفيع من الثقافة و العلم، متعمقا في العلوم الفلسفية و الفلكية خاصة و في عهده بدأت الإسماعيلية النزارية تتجمع بعد نكبة الموت في بعض البلدان الفارسية، و كان قد ذهب إبان النكبة عدد كبير منها إلى قلاع الدعوة في بلاد الشام.

و الإمام مؤمن شاه لم يتوان أبدا عن إرسال دعواته إلى مختلف الديار الإسلامية لنشر الأفكار و التعاليم، و كان يوجه عناية خاصة إلى إسماعيلية بلاد الشام الذين هرعوا إلى مبايعته و الانضمام تحت لوائه، و كان هذا يتم بصورة سرية، لأن الدعوة النزارية بعد نكبة «الموت» اتخذت خطة عامة بالابتعاد عن السياسة، و الانصراف إلى إقامة صرح الدعوة الدينية.

توفي الإمام مؤمن شاه في مدينة شيراز سنة ٧٣٨ هـ. و دفن فيها، و يؤرخ أحد الدعاء ذلك بقوله:

و هو المكنى بعلاء الدين

و السبط مؤمن شاه باليقين

هجرته شيراز في الأعاجم

مولده تبريز ذي المعالم

ولد سنة ٧٢٩ هـ. هو الابن الأكبر للإمام الأكبر مؤمن شاه . كان يلقب في بلاد فارس بلقب «خداوند»، و كان أيضا على جانب كبير من المعرفة بالعلوم الفلكية، و الفقه، و التأويل، و الفلسفة، و خاصة بالطب . و يروى أنه كان يذهب بنفسه لمعالجة المرضى من أتباعه و العناية بهم، كما اشتهر بتشفه، و انقطاعه إلى التأمل و العبادة، و كان يتردد كما ذكر على بدخشان و قلاع الدعوة في بلاد الشام، لتفقد أتباعه، و تنظيم شؤونهم و إقامة الندوات العلمية، و تشجيع العلماء و الدعاء.

عاش مدة طويلة، و ترك عددا من المؤلفات باللغتين العربية و الفارسية، توفي سنة ٨٠٧ هـ. و دفن في بلدة «دار سلطانية».

«رضى الدين ابن محمد» (٢٨)

ولد سنة ٧٨٧ هـ. في بلدة «دار سلطانية» في بلاد فارس. هو الابن الأكبر للإمام محمد بن مؤمن ... و من ألقابه «ضياء الدين».

وقعت في عهده اضطرابات عنيفة في صفوف أتباعه في بلاد فارس، و خاصة بين الدعاة و سببها مناصب الدعاة الدينية . فاضطر إلى اعتزالهم، و ترك بلاد فارس، و الحضور إلى قلاع الدعوة في بلاد الشام حيث اتخذ من قلعة «الكهف» القريبة من بلدة «القدموس» مقرا له أو دار هجرة. ثم عاد إلى بلاد فارس بعد أن عادت المياه إلى مجاريها.

بعض المصادر الإسماعيلية النزارية السورية تؤكد : أنه لم يعد إلى بلاد فارس، و إنما الذي عاد هو ولي عهده و تضيف قائلة:

إنه مات سنة ٨٣٨ هـ. و دفن في قرية «الجماسة» التي تبعد عن القدموس ما يقارب الخمسة عشر ميلا إلى الجنوب حيث لا يزال ضريحه قائما هناك و يعرف «بالمولى رضى الدين».

كان على اتصال دائم بإسماعيلية بلاد الشام قبل وفوده على ديارهم و بعده و يستنتج ذلك من الأوامر، و الرسائل، و الوصايا التي كان يرسلها إليهم. و قد عثرنا على نص في أحد الكتب السرية في مدينة مصياف نشره هنا بكامله:

من الحضرة العلية إلى أتباعنا المؤمنين في بلاد الشام بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى لا يحول، و لا يزول، و لا تحيط بمعرفة كنه ذاته العقول ...

##PAGE=127##

و بعد فهذا تشريف من عبد الله، و حجته على خلقه الإمام رضى الدين بن محمد بن مؤمن . إلى أتباع دعوتنا المقيمين في قلاع الدعوة الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، و إلى إخوانهم المتفرقين في كافة الجهات.

أيها المؤمنون.

أدعوكم إلى التمسك بأهداب الدين، و الورود على عين اليقين، و الحافظ على أصول و أحكام الشريعة المحمدية، و القيام بفروض الصلاة فى أوقاتها، و الاقتداء بإمامكم، و الرجوع إلى دعواتكم «حجج» و حججكم لشرح القضايا، و الإبانة عن الأمور الصعبة.

و أطلب إليكم إطاعة أوامر حجة إقليمكم «برهان الدين» فعليكم أن تأخذوا عنه أصول العلوم و أن تقفوا عند أو امره و نواهيه. فنحن قد أعطينا إرشاداتنا، و أوامرنا، و فوضناه، و جعلناه نائبا لنا، و قائما، و داعيا.

أيها المؤمنون.

إعلموا ... أنه ستمر بكم فترات عسيرة، و ستتعرضون للحروب و للاعتداءات من قبل أعداء يتربصون بكم، و كل هذا فى سبيل محبتنا، و الولاية لنا . فاصبروا و لا تهنوا، فإن لكم حسن المآب، و تماسكوا، و وحدوا صفوفكم، و أكثروا من شراء المعدات الحربية، و عززوا المواقع الدفاعية فى قلاعكم و حصونكم، و علموا أولادكم الفروسية، و أرضعوهم من لبن علمونا و معارفنا، و لا تنهونوا بالتضحية فى سبيل أوطانكم، و الدفاع حتى الموت عن كل شبر منها، فهى ستظل لكم رمزا و حصنا و درعا و شرفا.

ستصل إليكم أوامرنا بلا انقطاع، و سيتصل بكم دعائنا باستمرار، و نحن نرنو من هنا بأبصارنا إليكم، و إلى كافة أتباعنا المخلصين أينما كانوا ...

داعين الله العلى القدير أن يلهمكم الصواب و السلام عليكم، و رحمة الله.

و الحمد لله رب العالمين.

«كتب فى دار سلطانية سنة ٨٣٤ هـ. فى الخامس من شهر ذى القعدة».

التوقيع «صاحب الدعوة النبوية على صاحبها أفضل السلام و التحية»

«طاهر ابن رضى الدين» (٢٩)

ولد سنة ٨٢١ هـ. فى دار سلطانية بفارس. كان يلقب «بالعزيز».

أقام فترة طويلة فى قلاع الدعوة الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام، حيث أشرف على شؤون أتباعه، و لكن حصول بعض الاضطرابات فى صفوف أتباعه جعلته يسرع بالعودة إلى بلاد فارس.

من دعائه فى بلاد الشام العالم الكبير «شهاب الدين أبو فراس»

##PAGE=128##

صاحب المؤلفات العديدة فى الفلسفة و التصوف . و هذا الداعى كان يقيم فى قلعة «المينقة» الواقعة فى منطقة قلاع الدعوة على بعد خمسة و عشرين ميلا إلى الشرق من مدينة «جبله» الساحلية و من أشهر كتب هذا الداعى «سلم الصعود إلى دار الخلود» و «سلم الارتقاء إلى دار البقاء».

و بعد عودته من بلاد الشام، اتخذ الإمام طاهر شيراز مقرا له فأنصرف فيها إلى تنظيم أمور أتباعه و إصلاح حالهم و رأب صدعهم.

حتى توفى و دفن فيها سنة ٨٦٨ هـ.

رضى الدين ابن طاهر (٣٠)

هو الابن الأكبر للإمام طاهر الأول. ولد سنة ٨٥٧ هـ. فى بلدة «دار سلطانية» فى بلاد فارس. كان يلقب «شمس الدين».

ازدهرت الدعوة فى عهده ازدهارا كبيرا و خاصة فى مجال العلم و الثقافة و الدعاية، فقد نشط الدعوة إلى العمل لإدخال الراغبين و المستجيبين فى الدعوة الإسماعيلية و كان أبرز هذا النشاط فى نواحي الهند، و السند، و بدخشان .. مما جعل الصفويين (ملوك إيران) يخافون على ملكهم فوجهوا اهتمامهم للحد من نشاط الإمام رضى الدين، و خططوا لقتله، مما جعله يبادر إلى التخفى و الاستتار، و خاصة أثناء تنقلاته و ذلك حتى لا يقع بين أيدي الأعداء . و قد ذكره أحد دعاة الإسماعيليين فى مصياف فى قصيدة له فقال:

مبدل الإجحاد بالإيمان

و بعده المولى رضى الثانى

ليس له فى عصره مباح

و بعده الولى طاهر شاه

تذكر المصادر: بأنه كان على جانب كبير من العلم، و أنه كان يخصص القسم الأكبر من أوقاته للتأليف و الكتابة.

توفى سنة ٩١٦ هـ. فى بلدة «دار سلطانية» بفارس.

طاهر شاه الحسينى أو «الدكنى» (٣١)

علم من الأعلام، و عظيم من عظماء الأئمة الفاطميين لعب دورا بارزا على مسرح السياسة، و فى مجال الفكر، فكان مضرب الأمثال بمغامراته، و تفوقه، و عبقريته، مما يعيد إلى الأذهان سيرة العباقره الذين تخرجوا من مدرسة هذا البيت الفاطمى العريق.

##PAGE=129##

يكاد يكون الإمام طاهر شاه الحسينى أو «الدكنى» كما ورد اسمه فى المصادر التاريخية الهندية و الفارسية مجهولا فى التاريخ العربى، حتى و فى المصادر التاريخية الإسماعيلية التى لا تذكر عنه إلا القليل، و الذى أعتقد أن سبب ذلك هو فقدان الكتب و المصادر الإسماعيلية التى كتبت فى ظروف استثنائية جائرة، على أن كل هذا لم يمنعنا من تقصى الحقائق، و التنقيب عن المصادر النادرة، و هى و لا شك تطفح بالمحاحات و الخطرات عن تاريخ هذه الشخصية الفذة التى لعبت دورا مهما فى المجالات العالمية، و استطاعت أن تحقق انتصارات كبرى و احتلت مركزا مرموقا فى بلاد الهند عند ما لجأت إليها فرارا من ملوك إيران المستبدين الظالمين، دون أن يكون له ما يعتمد عليه من مال أو رجال.

هو الإمام الواحد و الثلاثون لجده الإمام على بن أبى طالب، و رأس الأسرة «الخدائىة» الإسماعيلية النزارية المؤمن شاهية.

فى سنة ٩٢٧ هـ. حدث فى تاريخ الهند حدث كبير لم يلبث أن صار مدعاة إلى التعجب و الاستغراب فى الأوساط السياسية و الاجتماعية، و الدينية، و هذا الحدث يعرفه كل من قرأ بإمعان تاريخ الهند، و اطلع على وقائعه و أخباره، ففى ذلك العام أعلن الملك «برهان الدين نظام شاه الدكنى» الذى تسلّم الملك صغيرا من «أحمد نظام شاه» و الذى عمل على فصل دولته عن مملكة «بهادر شاه» فى «كجرات» فصارت دولة إسلامية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، و كانت عاصمتها مدينة «أحمد نكر».

أعلن هذا الملك فجأة أن المذهب الإسماعيلى هو دين الدولة الرسمى، و قد هزّ هذا الحادث أرجاء المملكة، و أثار حفيظة الكثيرين من المؤرخين، و رجال البلاط لمعرفة الأسباب و الدوافع التى أدت إلى هذا الانقلاب الخطير المفاجىء.

ظهر للمطلعين أن هناك اعتبارات سياسية أخرى أدت إلى ذلك و أهمها وجود مهاجر فارسى الأصل، غامض الشخصية، عظيم الأهمية، تمكن من الوصول إلى بلاط الملك، و التحدث إليه، و منذ اللقاء الأول، أعجب به، و اتخذته صديقا و مستشارا ثم وزيرا.

أثر هذا الرجل فى الملك، أثرا جعله يتحوّل عن مذهبه. بعد ما قدّم إليه

##PAGE=130##

البيانات الدامغة، و الحجج الصحيحة المدعومة بالأدلة و البراهين . و لم يكن هذا الرجل الغريب سوى «طاهر شاه الحسينى» الذى ينتسب إلى الإمام «مؤمن شاه».

إن دراسة تاريخ و حياة هذا المهاجر العظيم من كافة الجوانب تنطوى على فوائد كثيرة بالرغم من الصعوبات التى تكتنفها و فقدان المصادر

طاهر شاه هو رأس الأسرة «الخدائىة» المعروفة فى العالم الإسلامى بتقواها، و صلاحها، و محافظتها على الإسلام، و هذه الأسرة بعد سقوط «الموت» بيد المغول لجأ من سلم منها و هو الإمام «شمس الدين بن ركن الدين» إلى «قونية» ثم تنقل فى مدن و بلدان فارس إلى أن استقرّ أخيرا فى قرية «خوند» فى مقاطعة «جیلان». أمّا سلالته فهناك من يقول إنها استترت عن الأنظار منذ مئة و سبعين عاما لاعتبارات مكانية و زمانية، و هناك من يقول إنها تقيم فى إحدى مقاطعات الهند حيث تتمتع بكل تقدير و احترام.

ذكر «طاهر شاه الحسينى» فى عدد كبير من كتب التاريخ، و سير ملوك الهند المسلمين، و أكثرها لخصت أعماله فى مجال السياسة و التعليم و التأليف، و لكن يبدو أن آثاره العلمية و مخلفاته الفكرية قد ضاع أكثرها ككل المخلفات من التراث الإسماعيلى الذى وضعه و اقتناه هو و أسلافه و أفراد أسرته.

إن أهم مصدر تاريخى يمكن الاعتماد عليه، عند بحث حياة الإمام طاهر شاه الحسينى هـ و تاريخ «فرشته» الذى يذكر لمحة و جيزة عن كيفية مغادرته قرية «خوند» فى مقاطعة «مازندران» إلى بلدة «أحمد نكر» الهندية، و من الواضح أنه كان صغيرا عند ما غادر إيران، و أن وصوله إلى مدينة «أحمد نكر» كان قبل وفاة الملك بعشرة أو بخمسة عشر عاما، فقد ظهر

فيما بعد أن الكثيرين من أسرة طاهر شاه كانوا يحظون في مدينة أحمد نكر بعطف الأسرة المالكة و إينارها، و أن العلاقة بين الأسرتين كانت وديّة، و متينة، و أنها استمرت طويلا.

تبدأ قصة الإمام طاهر شاه الحسيني في تاريخ فرشته بذكر سلسلة نسبه ثم يقول:

##PAGE=131##

بعد سقوط ألموت بيد هولوكو ... جاءت أسرة طاهر شاه، و سكنت في قرية «خوند» الواقعة على حدود «جبلان»، و هذا بعد خروجها من «أذربيجان» ثم عودتها ... و قد ثبت أن هذه القرية غير موجودة الآن، أو ربما تكون المنطقة كلها قد تغيرت تماما أو عفت آثارها .. و لا ندرى فيما إذا كانت القرية المذكورة هي نفسها الواقعة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من زنجان.

المهم هو أن جميع المصادر تجمع على القول بأن طاهر شاه الحسيني قد غادر فعلا بلاد فارس مع أسرته، بعد أن تعرّض إلى ضغط شديد من قبل الشاه إسماعيل الصفوي ملك بلاد فارس، و كان قد اعتبره خطرا على م ملكته. و هناك ما يشير إلى أن أقطاب البلاد و عظماءها في بلاد الهند كانوا ينظرون إليه، و إلى أسرته نظرات الاحترام و التقديس و الإعجاب، بالنظر لسمعتها الطيبة، و أخلاق أفرادها، و عراقه نسبه، و حبهم لعمل الخير، و العطف على الفقراء و الضعفاء و المحرومين، و الانصراف إلى العلم، و التربية، و التزود بالمعارف ... أما طاهر شاه نفسه فكان موهوبا فوق العادة، و على جانب كبير من العبقرية و الفهم و الذكاء و الرجولة حتى أنه تفوّق على كل أسلافه في كافة المجالات، و حاز شهرة واسعة لم يحصل عليها أحد منهم قبله، و كل هذا كان من الأسباب التي أثارت الغيرة، و الحسد، و الخوف في نفس شاه إيران إسماعيل الصفوي، و هو الذي كان يطمح إلى سيادة روحية كالتى للإمام طاهر شاه، و ذلك بالإضافة إلى السيادة الزمنية، فأخذ يشعر بالخوف على الملك من هذا الرجل الذى ملك القلوب، و أثر في الأفكار، و جعل رجال البلاط و قواد الجيش، و العلماء و الأشراف، و الأغنياء، و كل الناس ينحنون أمام عظمته.

و لكن جميع هؤلاء لم يستطيعوا الوقوف في وجه أوامر الملك العليا التي قضت بإبعاده إلى إحدى المقاطعات الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية و هي «كاشان» التابعة «لأصفهان» حيث أسندت إليه مهمة التدريس، و إلقاء المحاضرات في إحدى الكليات الدينية المشهورة في ذلك العهد ... فذهب، و في خلال مدة قصيرة تمكن من اجتذاب كافة الطلاب، بل لقد أصبح قدوتهم، و مثلهم الأعلى، و معلمهم الكامل، فكان هذا من الأسباب التي جعلت الحسد يدب في قلوب الأساتذة الآخرين. فأرسلوا تقريرا إلى الملك يتهمون فيه طاهر شاه بميول

##PAGE=132##

هرطوقية، و اتصالات مريبة مع بلاطات الملوك الأجانب، فأصدر الملك الصفوي عندئذ أمره بإعدامه، و لكن أصدقاء الشاه إسماعيل الصفوي، و الوزراء دخلوا عليه و نصحوه و حذروه، بأن أى تدبير من هذا النوع سيفقده الملك، و يعرض الدولة إلى الانهيار.

في تلك الأثناء تمكن طاهر شاه و أسرته من الهرب، و الذهاب إلى الهند، و لكنه لم يستقر طويلا فيها، و قيل أنه أنذر بمغادرة الهند، فعاد إلى وطنه، و لكن الملك الفارسي الصفوي أمر بإلقاء القبض عليه، ممّا جعله يعود ثانية إلى الهند بطريقة

سريّة، فوصل إلى عاصمة مملكة «بيجاور» و لكن الملك لم يوله أى اهتمام، و عندئذ ذهب إلى الديار المقدسة، و من هناك تفقّد أتباعه الكثيرين فى قلاع الدعوة فى بلاد الشام، و عاد بعد ذلك إلى «بيجاور» و كان ينوى إحضار عائلته و الرجوع إلى بلاد الشام، و تشاء الظروف أن يلتقى فى الميناء بالوزير خواجه جهان و هو الوزير الأول لملك بهمن، و كان يعرفه، و يقدر مزاياه، فأقنعه بالبقاء، ثم أخذه حيث مهّد له للإقامة فى مدينة «أحمد نكر» فعاش فيها حتى آخر يوم من حياته. و يحدثنا مؤلف تاريخ «فرشته» عن قصة مداوا ته للأمير عبد القادر بن الشاه الصغير، و إبرائه من مرض مزمن خطير، و هذه القصة تعطينا الدليل على أنه كان يتقن الطب، بالإضافة إلى تفوقه فى كافة العلوم، و إلى المواهب التى كان يتمتع بها كقوة الشخصية، و تأثيره على السامعين ببيانه الساحر، و حجّته القويّة.

سكن طاهر شاه كما تذكر المصادر التاريخية الهندية ستة و عشرين عاما فى مدينة «أحمد نكر» و فى خلال تلك المدة احتلّ مناصب سياسية عليا، و كان جميع الوزراء و القواد و أعيان البلاد يجلبونه، و يحترمونه، و يقدرّون مزاياه . أمّا الملك فكان يؤثّره، و يستشير، و يقدم إليه الهدايا و الأوسمة العظيمة، و يرافقه فى رحلاته، و بالرغم من مشاغله السياسية الكثيرة فإنه كان يتولّى إلقاء المحاضرات فى النوادي، و المجمع، و المساجد، و قد وصفوه بأنه من أبرع المتكلمين.

ولد الإمام طاهر شاه سنة ٨٩٢ هـ، و مات سنة ٩٥٦ هـ. فى مدينة «أحمد نكر» ثم نقل جثمانه إلى كربلاء بناء على وصيته. كان يلقب ببلاد فارس، و الشام، و الهند، ب «حجة الله».

ترك الإمام طاهر شاه عددا من المؤلفات أهمها:

##PAGE=133##

ديوانه الشعرى، و مجموعة من المقالات فى مواضيع مختلفة، و شرح لبعض النظريات الفقهية الجعفرية، و كتاب فى الفقه الشيعى عامة، و كتاب فى التعليق على تفسير البيضاوى للقرآن الكريم، و كتاب فى الفلسفة، و عرض بعض المقالات، و الإشارات، و النقد للمجسطى، و له كتاب الشفاء المطول، و كتاب «غلشن راز»، و تحفة شاهى، و رسالة بلاكى التى ألفها و هو فى طريق السفر، و له شرح التهذيب، و مقالة فى آداب اللغة الفارسية، و رسالة دار المعاد، و له مؤلفات أخرى يرجح فقدانها، أو أنها لا تزال فى مكتبة الأسرة.

مات الإمام طاهر شاه عن أربعة أولاد، و ثلاث بنات . أمّا الأولاد فهم حيدر شاه، و رفاه الدين شاه، و أبو الحسن شاه، و أبو طالب شاه، و جميعهم كانوا يح تلون مناصب عليا فى مملكة برهان نظام الدين، و عادل شاه . و من الثابت أن الإمام طاهر شاه كان على اتصال مستمر بالإسماعيليين السوريين، و هذا ثابت فى المصادر الإسماعيلية.

يقول إيقانوف، المستشرق الروسى المعروف فى مقالة بالإنكليزية.

«حدث سنة ١٥٣٨ م حادث غريب و وحيد بالنسبة لتاريخ السلالة الملكية السنيّة فى الهند معروف لدى طلباب التاريخ فى الهند. ففى ذاك العام أعلن الملك «برهان نظام شاه» فى «دكن» بأن دين الدولة الرسمى سيكون الجعفرى الشيعى، و ينسب المؤرخون الهنود هذا الإعلان المهم إلى غيرة الملك الدينية، و إلى خوفه ا لخرافى. و هذا الأمر و بالرغم من أنه عادى، فإنه يعطى انطبعا بأنه كان مستمدا من عاطفة الملك الدينية، و من اتصالاته، و قد تكون هناك دواع أخرى مهمة أوجدت هذا التبدل الفجائى، و لعلها اعتبارات سياسية بالنسبة لسلالة ملكية فى بلاد فارس . و فى تلك الفترة كان مهاجر

عجمي، غامض الشخصية، عظيم الأهمية يحط الرحال في تلك البلاد، واسمه «طاهر شاه الحسيني أو الدكني»، ولا شك أن دراسة أعماله من كل النواحي شيقة لأنها اكتشاف عجيب و حديث، و تفيد المعلومات بأنه كان من سلالة الأئمة النزاريين في الموت، و مع أن هذا الفرع يكاد يكون منسياً الآن، فإنه يترك أثراً مهماً في تاريخ الطوائف في آسيا الوسطى، و في الهند».

ذكر طاهر شاه في عدد من الكتب التاريخية، و كتب سير الحياة، و من الممكن تلخيص سيرته في عالم السياسة، و لكن يبدو أن أعماله العلمية ضاعت كلها، و قد أفلحت في اكتشاف اثنين منها فقط، و أن أى واحد يسمح له منصبه بالتنقيب و التقصي في أقطار الهند عن أحد

##PAGE=134##

من سلالة طاهر شاه، أو عن بعض كتبه الخطية فيكون في ذلك فائدة تاريخية كبرى.

إن أفضل بيان عن شاه طاهر، ورد في تاريخ «فرشته» و من الجلى أن عائلة «فرشته» و عائلة طاهر شاه كانت بينهما صداقة متينة. حيث يظهر مؤلف الكتاب احتراماً عميقاً، و عطفاً كبيراً على هذه الأسرة، و يبدو أن «فرشته» قد رجع إلى مصادر أخرى سابقة و هي:

«برهان المعاصر» تأليف «على الساماني الطباطبائي» ... و «هفت اقليم» تأليف «أمين الرازي» و «مجالس المؤمنين» تأليف «نور الله الشستري»، و «طرائق الحقائق» تأليف «معصوم على شاه نعمة الله».

يبدأ «فرشته» حديثه عن طاهر شاه بتعداد أجداده، و يظهر أن السلسلة المحفوظة في عائلة الإمام طاهر لم تتغير، و هذه السلسلة شيقة جداً لأنها مجهولة، و ليس هناك من يعرف التفاصيل عنها.

يقول فرشته:

«إنه بعد سقوط الموت، كان أجداد طاهر شاه يسكنون في قرية «خوند» في مقاطعة «قزوين» على حدود «جیلان»، و في الوقت الحاضر لا يوجد على ما يظهر قرية اسمها «خوند»، و يبدو أن المنطقة قد تغيرت، و لعها القرية التي نطلق عليها اسم «خوند» الواقعة في جهة جنوب غربى «زنجان».

و قبل أن يصبح طاهر شاه إماماً، و رأس السلالة العريقة، احتراماً أقطاب البلاد الأسرة احتراماً عظيماً، و هي أيضاً تمتعت بسمعة عالية فيما يختص بالعلم و التدین، و لكن طاهر شاه الذى كان موهوباً فوق العادة، و تفوق على كل أسلافه، و حاز شهرة واسعة، فأثارت هذه الشهرة الغيرة و الحسد فى قلب «شاه إسماعيل الصفوى» الذى كان علاوة على وصوله للسلطة الزمنية. يطعم بالسيادة الروحية، و كان لطاهر شاه أنصار كثيرون فى بلاط الملك، و فى مقدمتهم «ميرزا حسن أصفهاني»، و كان طاهر شاه قد تسلّم أمر الشاه بالذهاب إلى «كاشان» الواقعة فى الجهة الشمالية الشرقية من أصفهان، بحيث يقوم بالتدريس فى الكلية الدينية المشهورة، و هناك تمكن من جذب الطلاب . فأعلنوا ولاءهم و احترامهم له ممّا سبب حسد الأساتذة الآخرين، فأرسلوا كتاباً إلى الملك يذكرون فيه ميول طاهر شاه الهرطقة، و مراسلة بلاطات الملوك الأجانب، فأمر الملك و كان يفتش عن عذر ليتخلص من الرجل المخيف، بالقبض عليه و إعدامه، و لكن أصدقاء

و وزراء الدولة حذروه من هذا الأمر .. و عند ما علم طاهر بما يضمه له الملك الصفوى توجه إلى عاصمة «عادل شاه بيجابور» و لكن الأمير الحاكم لم يهتم به فقرّر عندئذ أن يذهب لتأدية فريضة الحج، و فى طريقه إلى الميناء التقى بالوزير «خواجه جهان» فى بلاط ملوك «البهمن» و كان يقدر مزاياه، فجااء به إلى مدينة «أحمد نكر» و هكذا استقرّ فيها حتى موته».

و يصف «فرشته» فى تاريخه قصة معالجته و شفائه للأمير عبد القادر بن الشاه، و كان يشكو من مرض خطير.

و فى مدينة «أحمد نكر» كان يشغل مناصب دبلوماسية لدولة برهان شاه، و هذا ما شغله عن متابعة التأليف، و إلقاء المحاضرات فى الجوامع و النوادى و المدارس.

و يقول المستشرق إيقانوف : زرت الإسماعيليين فى سورية . فوجدت أن إيمانهم لا يزال سراً حتى الآن، و لكن يظهر أن إسماعيلية «القدموس» و «مصيف» و بعض القرى الصغيرة المجاورة لهم هم من أتباع هذا الفرع المنسى المذكور فى هذا المقال.

«حيدر ابن طاهر» (٣٢)

ولد فى مدينة «أحمد نكر» سنة ٩٣٧ هـ، و تسلّم شؤون الإمامة بعد أن نصّ عليه والده قبل وفاته . أتباعه فى فارس كانوا يطلقون عليه لقب «خداوند» و هو من جهته كان على مستوى رفيع من الثقافة و العلم، و قد سهر على شؤون دعوته، و نظمها، و أرسل دعواته إلى كل مكان، و خاصة فى قلاع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الشام حيث بلغت شأوا بعيدا و ازدهرت إزدهارا عظيما . فى عهده أرسل ملك فارس «طهماسب» الصفوى إليه يدعوه لزيارة بلاده، فقبل الدعوة و قام بزيارة بلاد فارس، كما تفقّد أتباعه، و هكذا زالت تلك الجفوة، و قد ذكر أن الملك عرض عليه فكرة الرجوع إلى إيران، و لكنه رفض العودة، ممّا جعل الملك الفارسى يعهد إليه برتبة السفارة لدى عموم الإمارات ال هندية فى الهند، و قد ظلّ فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ٩٩٤ هـ.

من المعروف أن الإمام حيدر شاه لعب دورا بارزا فى سياسة الهند العليا، و كان يدافع، و يرفع شؤون المسلمين الذين أحبوه، و سلموه قيادتهم كما كان مقربا من بلاطات الملوك غير المسلمين، و كان محل احترامهم و تقديرهم.

توفى فى مدينة «أورنك أباد» و كان قبل وفاته قد نصّ على خليفته «صدر الدين» كما هى العادة.

«صدر الدين ابن حيدر» (٣٣)

ولد سنة ٩٧٧ هـ فى بلدة «أورنك أباد» الهندية ... تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده، و لقب «بمعز الدين».

كان على جانب كبير من العلم و الفضل و الكرم، و قد حذا حذو والده، و سار على خطواته فى معاملته للناس، و حرصه على الإحسان للفقراء، و السهر على شؤون المسلمين عامة، و أتباعه المسلمين التزاريين خاصة.

من الجدير بالذكر أن إسماعيلية بلاد الشام كانوا على اتصال به، يتلقون أوامره و نواهيهم، و يرسلون إليه أموال الزكاة كالمعتاد، أما بالنسبة للصفويين فى بلاد إيران، فإنهم ظلوا على عهدهم، و تفتهم به، فأوكلوا إليه بعد وفاة والده مباشرة شؤون السفارة، و هى المرتبة التى كانت لوالده، فقام بها خير قيام.

فى عهده ازداد إقبال الناس فى بلاد «بامير» و ما يجاورها على اعتناق المبادئ الإسماعيلية بواسطة الدعاة الذين انتشروا فى كل مكان.

يعتبر عهده من العهود الزاهرة. توفى سنة ١٠٣٢ هـ. و دفن فى مدينة «أورنك أباد» الهندية.

معين الدين ابن صدر الدين (٣٤)

ولد بمدينة «أحمد نكر» سنة ١٠٠٣ هـ. لقبه «القاهر» اتفقت كافة المصادر التاريخية الإسماعيلية على أن الإمام «معين الدين» كان على جانب كبير من التفقه بالعلم، و الفلسفة، و الأدب، و كان أيضا يقوم بنشاط فكرى شامل . أما النشاط السياسى فلم تذكر المصادر أنه مارسه، كما لم يسجل عليه أنه اضطلع، أو تولى أى منصب سياسى كأجداده.

سهر على شؤون أتباعه فى الهند خاصة، و جاءته الوفود من جميع البلدان تنهل من علمه و تنزود بإرشاداته، و ذكر أن له عددا من المؤلفات، و لكن حتى الآن لم يعثر على أى منها ... تذكر المصادر أيضا أنه قام بعدة رحلات إلى بلاد فارس، و قلاع الدعوة فى بلاد الشام، ثم عاد بعد ذلك إلى مقره ...

##PAGE=137##

توفى سنة ١٠٥٤ هـ. فى مدينة أحمد نكر و دفن فيها.

عطية ابن معين الدين (٣٥)

ولد سنة ١٠٢٧ هـ. فى مدينة أحمد نكر، و تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة فى «بدخشان» و ما يتبعها كانوا يطلقون عليه لقب «خدای بخش» و معناها باللغة الفارسية «عطية الله».

تذكر المصادر الإسماعيلية بأن هذا الإمام ترك بلاد الهند لأسباب لم تتوضح بعد و انتقل إلى «بدخشان» حيث أقام فيها مستترا، و بعيدا عن الأنظار.

و تذكر المصادر : بأنه كان على جانب كبير من المعرفة بالفلسفة و العلوم الدينية، و قد ترك عدا من المؤلفات باللغة الفارسية، و يحتفظ حتى الآن علماء الإسماعيلية فى بدخشان ببعض الكتب من مؤلفات الأئمة.

مات فى بلدة «بدخشان» بأفغانستان و دفن فيها سنة ١٠٦٧ هـ.

عزیز ابن عطیة (٣٦)

ولد سنة ١٠٤٧ هـ. في بدخشان، و تولى شؤون الإمامة بعد وفاة.

والده، كان يلقب «الخدائند عزيز شاه». له شهرة كبرى في بدخشان، و في قلاع الدعوة ببلاد الشام . و المصادر التاريخية تذكر بأنه عاد من «بدخشان» مع أسرته، و استقرّ في أورنك آباد، و لكنه كان كثير التنقل بين فارس، و بلاد الشام، و بامير، و بغداد، و بدخشان بحيث لم يكن يستقر في مكان حتى يغادره، و كل ذلك في سبيل تنظيم الدعوة و السهر عليها، و من المشهور عنه أنه خصّ قلاع الدعوة في بلاد الشام بزيارات عديدة، كما أقام فيها مدة طويلة، و الإسماعيليون في بلاد الشام يحتفظون بعدد من رسائله و أوامره الإمامية ... و تشيد بعض المصادر بكتابه المسمى «مذكرات الخدائند عزيز شاه» و في هذا الكتاب تاريخ الأسرة المؤمنية، و من الجائز أن يكون لهذا الإمام مؤلفات أخرى، و لكن حتى الآن لم يعثر عليها. توفي في مدينة أورنك آباد سنة ١١٠٣ هـ.

معين الدين الثاني ابن عزيز شاه (٣٧)

ولد سنة ١٠٨٧ هـ. في بلدة أورنك آباد. لقبه: المنصور بالله .. عمل في

##PAGE=138##

الأمر السياسي، و تولى مناصب عليا في دولة حيدر آباد الهندية، كما اهتم بمصالح الدولة الفارسية، و كان يحظى بعطف ملوك فارس، و من الملاحظ أنه لم يتوان عن القيام بإحداث المشاريع الخيرية كالمدراس، و المصحات، و المساجد، و التكايا، و من جهة ثانية كان على اتصال مستمر بإسماعيلية قلاع الدعوة في بلاد الشام يوليها عطفه و عنايته، و هم لا يزالون يحتفظون ببعض وصاياه، و أوامره الإمامية.

مات في بلدة أورنك آباد سنة ١١٢٧ هـ.

محمد ابن معين الدين (٣٨)

ولد سنة ١١١٣ هـ. في مدينة أورنك آباد. كان يعرف في الهند، و بلاد فارس «بالأمير المشرف»، و بالنسبة لقلاع الدعوة في بلاد الشام و إسماعيليتها فإنهم انقطعوا عن الاتصال به حيث اضطرته ظروف استثنائية إلى الاستتار عن العيون، و كانت هناك «فترة» كما يسميها الإسماعيليون وقعت خلالها اضطرابات، و انقسامات في قلاع الدعوة ببلاد الشام أخذت أبعادا خطيرة.

في آخر أيامه عاد إلى الاتصال من جديد بإسماعيلية بلاد الشام، و رجعت المياه إلى مجاريها.

تذكر المصادر التاريخية:

أن الدعوة ازدهرت في آخر عهده ازدهارا عظيما، وانتظمت انتظاما لم يسبق أن جرى مثله، وخاصة في الشؤون العلمية و الأدبية. وقد وضع أحد الدعاة الكبار في ذلك العهد كتابا باللغة الفارسية سماه «لمعات الطاهرين»، و ذكر أنه كتاب فلسفي و فيه تأييد للكثير من الآراء و التعاليم الصوفية العميقة، و كان الإمام المشرف قد أملاه على الداعي المذكور.

كان للأمير المشرف شقيق اسمه «الأمير لطف الله» و قد هاجر من مقاطعة حيدر آباد في الهند إلى بلدة «جنكلي» ثم انتقل إلى «ميسور» ثم إلى «منكروور» ثم إلى «إيروور» وأخيرا إلى «أركات» و تقع هذه البلدان في مقاطعة مدراس جنوبي غربي الهند، و هذا الأمير اتصل به بعض الدعاة الذين سافروا من ق لاج الدعوة في بلاد الشام للاتصال بالإمام المشرف. و من جهة ثانية كان له ولد آخر يسمى «الأمير علي» و هو غير ولي العهد «حيدر».

##PAGE=139##

مات الأمير المشرف سنة ١١٧٨ هـ. في أورنك آباد و دفن فيها.

حيدر ابن محمد (٣٩)

ولد سنة ١١٥٨ هـ. في مدينة أورنك آباد . و جه اهتمامه للشؤون السياسية الهندية العامة، و أسندت إليه وظيفة عليا في السلك الدبلوماسي في مملكة دكن.

بالرغم من كل هذا فإن اهتماماته بالشؤون السياسية، لم تقف بوجه تفرغه في أوقات خاصة لشؤون أتباعه في كافة الجهات.

ازدهرت الدعوة في عهده ازدهارا قويا، و أقبل الناس من كافة الجهات على الانتساب إليها، و خاصة في بلاد أفغانستان و بامير و إيران.

أنجب الإمام حيدر ثلاثة أولاد هم «محمد» و هو أكبرهم و صاحب النص الإمامي بولاية العهد، ثم «المظفر» و «حسام الدين».

لم ينقطع عن الاتصال بأتباعه في قلاع الدعوة ببلاد الشام، و كانت الوفود تقوم من هذه القلاع بزيارة الهند للتشرف بلقائه من حين لآخر.

ذكر أنه وضع عددا من الكتب الأدبية، إذ أن اهتماماته كانت متجهة نحو الأدب.

توفي سنة ١٢٠١ هـ. في مدينة أورنك آباد .. ثم نقل جثمانه إلى مدينة «أحمد نكر» بناء على وصيته.

محمد بن حيدر أو الأمير محمد الباقر (٤٠)

ولد في أورنك آباد سنة ١١٧٩ هـ .. عرف في قلاع الدعوة الإسماعيلية بديار الشام «بالأمير محمد الباقر».

هو آخر إمام من أسرة مؤمن شاه عرفه إسماعيليو بلاد الشام، هذا و بينما رفض بعض اسماعيلي مصياف و القدموس و قسم من سلمية و توابعها الاعتراف. أو مبايعه أى إمام بعده لا يكون متحدرا من شجرة مؤمن شاه ..

فإن الأكثرية الساحقة من الإسماعيليين فى سوريا يؤمنون بالقاسم شاهيه و يدينون بالولاء إلى الآغا خان الحالى الأمير كريم آغا خان و يعتبرونه الوريث الرسمى لإمامة جده سلطان محمد شاه الذى توفى فى ١١ تموز ١٩٥٧.

##PAGE=141##

الاسماعيليون و الحركة الثقافية

##PAGE=143##

الأدب الاسماعيلي عبر العصور

غير خاف على كل مؤرخ و باحث و متتبع للتاريخ و للآداب الإسماعيلية، أن هذا النظام الفكرى النشط الذى لعب دورا مهما فى تاريخ الشرق الأوسط، و فى حياة الأمة الإسلامية السياسية و الفكرية و الدينية، قد بدأ نشاطه، و انطلق من بلاد الشام ليغزو الأفكار .. فكانت بلدة «سلمية» القاعدة التى انبثق منها الشعاع الأول، ثم برز فى المجال حاملا معه نفحات المعرفة، و مهمة تنوير العقول، و إخراجها من عالم الجمود إلى التحرر، و الانطلاق، و ا لحرية، بالقول و العمل، أيضا انتقل النشاط الفكرى الآنف الذكر إلى بلدان المشرق و المغرب، و قد قام بنقله، و تولّى التعبير عنه و رعايته علماء أفاضل كان لهم الأثر البارز فى عالم الفكر، بما خلفوه من مؤلفات قيمة تمثل الفلسفة، و الأدب، و العلوم أصدق تمثيل، و هكذا بالنسبة لليمن و المغرب، فإن النشاط المذكور وصل إليهما، و فى فترة وجيزة تمكن من تحقيق أهم الانتصارات.

كانت الحياة السياسية فى العالم الإسلامى و خاصة فى القرن الرابع للهجرة مضطربة أشد الاضطراب، و بعيدة عن كل ما يسمّى هدوءا، و استقرارا، و اطمئنانا. فالخلافة الإسلامية كما هو واضح كانت موضع أخذ ورد تنازعها دولتان كبيرتان هما الدولة «العباسية» فى بغداد و الدولة «الفاطمية» فى القاهرة.

و من الثابت أن كلتا الدولتين كانتا تحشدان القوى و تعدان العدة الواحدة ضد الأخرى لاستلام الخلافة ... و لم يحل هذا النزاع دون قيام دول إسلامية أخرى أو «دويلات» صغيرة متفرقة الأهداف و الغايات كانت

##PAGE=144##

من جهتها أيضا تتنازع على الحكم و الجاه و النفوذ ... فتارة تميل إلى المشرق، و أخرى تتحول إلى المغرب، و الهدف الأول من كل هذا هو كسب التأييد و الرغبة بالبقاء، و الاستمرار بالحكم.

و قد كان مركز الخليفة العباسى فى بغداد فى تلك الفترة حرجا و خاصة بعد أن أصبح هذا الخليفة يلتمس من صغار الملوك حمايته، و رد الأذى عنه، و تثبيتته فى خلافته «كالبويهيين» أو «السلجوقيين» أو غيرهم ... و إننا نرى أن الدولة «الصفارية» كانت تخطط للاعتداء عليه، بينما تبادر الدولة «السامانية» لحمايته.

و تأتى الدولة الفاطمية فتبعث دعواتها إلى «السامانيين» و «الغزنويين» و «البويهيين». و تدل الوقائع أن دعاء الفاطميين أثروا في قلب الدولة العباسية تأثيرا بالغا. و حققوا انتصارات عظيمة، بينما عجز العباسيون عن تحقيق أى انتصار، و التاريخ ينوه بالانتصارات الفاطمية حينما انضم إليها أمير الرى «أحمد بن على» و «حسين بن على المروزي» الذى رغب إلى الداعى «النسفى أو النخشى» أن يسافر إلى ما وراء النهر للعمل على استمالة «نصر بن أحمد السامانى». و بالفعل فقد نفذ النخشى الطلب، و تم كن من استقطاب نصر و إدخاله فى الدعوة الإسماعيلية، و عندئذ بادر إلى دفع دية أحد الدعاء الإسماعيليين للإمام «القائم بأمر الله» الذى كان يجلس على كرسى الخلافة و الإمامة الفاطمية فى شمال أفريقيا، و كان نصر قد قتله قبل أن يستجيب للدعوة الإسماعيلية، و قدر المبلغ بمئة و خمسين ألف دينار.

فهناك الانقسام الخطير فى الدولة العباسية بين الخليفة العباسى السادس و العشرين، و القائد العام للجيش العباسية «أبو الحارث ارسلان البساسيرى» الملقب «بالمظفر» و الذى عاش فى كنف أمراء «بنى بويه» الزيديين الشيعة، مما اضطر الخليفة المذكور إلى الاستنجاد بالقائد السلجوقى التركى الأصل «طغرل بك»، و فى هذه الأثناء يفد داعى الدعوة للدولة الفاطمية «المؤيد فى الدين - هبة الله الشيرازى» إلى العراق فيتصل بالبساسيرى، و يشجعه على الثورة، و بالفعل فقد وضع تحت تصرفه كافة الإمكانات المادية و المعرفية التى مكنته من الانتصار و دخول بغداد، و تسلّم الملك، و لم ينس

##PAGE=145##

المؤيد إغراء القبائل العربية المجاورة و تشجيعها على شق عصا الطاعة، و الثورة على نظام الحكم العباسى القائم، و الانضمام، إلى جيوش البساسيرى التى دخلت بغداد و الموصل، و الكوفة، و أعلنت الخطبة باسم الإمام الفاطمى الخليفة المستنصر بالله، و لقد ذهب خليفة بغداد إلى مكان ما، بعد أن وقع صك التنازل، و انتزعت عمامته و شرفه من قصره «و كرسى الخلافة و الإمامة» و برده النبى محمد (ص) التى كان يحتفظ بها، و أرسلت جميعها إلى القاهرة إشعارا بتحقيق الانتصار.

و فى هذه الفترة يستولى «تمال بن صالح بن مرداس» تاج الأمراء على حلب و يباشر حربا شعواء مع «منيع بن شبيب النميرى» صاحب «حران» و ذلك بشأن «الرقّة». أمّا البيزنطيون و السلجوقيون فقد وقعوا معاهدة صداقة و تحالف تقضى بغزو أملاك الدولة الفاطمية فى الشام و أعالي الجزيرة. ثم ما لبث أن دب الإنقسام فى جيوش البساسيرى فانقسمت إلى شيع و أحزاب و أخذت الأحقاد الطائفية و العنصرية تذر قرنها معلنة بدء الفتنة العمياء، مما مهد «لطغرل بك» الانتصار على «البساسيرى» و إجباره على الهرب و الاعتصام فى الكوفة حيث قتل.

بينما هذا يجرى فى بغداد، و بلاد الشام، كان الاضطراب، و الفوضى و الفساد يندر القاهرة مهددا إياها بأوخم العواقب، فتضطرب شؤون الوزارة، و يتعاقب الوزراء واحدا بعد واحد، فمنهم من يمكث شهورا، و منهم من كانت مدة وزارته أياما، و منهم من يمكث يوما واحدا، إلى أن استدعى الخليفة الفاطمى «المستنصر بالله» «بدرا الجمالى» و كان حاكما عسكريا فى «عكا» ففوض إليه جميع الأمور، و فى الوقت نفسه كانت أمصار الفاطميين فى أفريقيا تمتنع عن تأدية ما عليها من ضرائب، و تعلن استقلالها لتعود إلى طاعة العباسيين، و تحركت قبائل «بنى هلال و سليم» العربية النجدية الأصل من مصر العليا نحو المغرب لتعيث فسادا فى طرابلس مدة طويلة، و يغشى (النورمانديون) «صقلية» و كانت من أملاك الفاطميين.

كانت الأوضاع العامة في الشام في شبه فوضى، و الولاة و الوزراء لا يكاد أحدهم يستقر فيها حتى يخرج معزولا أو مذعورا، و الأمور

##PAGE=146##

تزداد سوءا، و أهل البلاد أحزاب يثورون بالقواد و الولاة، و في هذه الفترة أيضا تم استيلاء «معلّى بن حيدرة الكتامي» على دمشق، فاضطر للهرب بعد أيام من دخوله بسبب الفتنة التي وقعت بين عسكر المدينة و بينه، ثم انقطعت خطبة الفاطميين نهائيا من الشام كما تم فتح القدس من قبل «أسد بن أوق الخوارزمي» و هو أحد أمراء السلجوقيين، و بدأ الصليبيون زحفهم باتجاه القدس، و تمكنوا من فتح معرة النعمان و أنطاكية.

في خضم هذه الأحداث، الزاخرة بالقلق الفكري نشأ الشاعر الكبير و الرحالة العبقري و الداعي الكبير «ناصر خسرو» و من هذه الأحداث الخطيرة استمد خطوط حياته، و قام برحلته الكبرى المشهورة التي تحدثت بها الركبان، و استقرّ ثلاث سنوات على مقربة من «الإمام الفاطمي» و هذه كانت أمنيته الغالية التي طالما منى نفسه بها.

و بمناسبة الكلام على الرحلات العربية و الرحّالين فإن أهمها رحلة «ابن فضلان» رسول الخليفة «المقتدر بالله» العباسي إلى «بلغاريا» القديمة، و هذه الرحلة تمت في القرن الثالث للهجرة، و قد نقلها «ياقوت الحموي» و جاء على ذكرها في معجم البلدان، و من الرحلات المشهورة رحلة «ابن جبير» في القرن السادس الهجري، و رحلة «أبي الحسن الهروي الموصلي» في القرن السادس نفسه، و رحلة «البلّوي» المغربي، و رحلة «ابن بطوطة» في القرن الثامن أمّا رحلة «ناصر خسرو» فوالت بين سنة ٤٣٧ و سنة ٤٤٤ هـ. فهي قبل رحلة ابن جبير بمائة عام، و قد سجلت في «مرو»، و في «خراسان» ثم «بأذربيجان» و «أرمينيا» و «بلاد الشام» و «فلسطين» و «مصر» و «الحجاز» و «نجد» و جنوبي العراق، و خاصة الخليج العربي و مناطق «القرامطة».

ناصر خسرو

هو الحكيم «أبو المعين ناصر بن خسرو بن الحارث القبادباني المروزي البلخي البدخشاني» ... نشأ في أسرة متوسطة الحال لا هي بالغنية و لا هي بال فقيرة، و تتقف ثقافة واحدة، ثم التحق بخدمة السلطانين الغزنويين «محمود» ثم ابنه «مسعود»، و بعد أن أفلح السلاجقة بالقضاء على الدويلات الشرقية و الإمارات الصغيرة، و أصبح الأمر لهم التحق بخدمة «جعري بك السلجوقي» حاكم

##PAGE=147##

خراسان و تولّى أمر خزانته في «مرو» و في تلك الفترة كان يدأب على قراءة «آراء» الفارابي و «ابن سينا» و يشتغل بدرس العلوم النقلية و العلوم العقلية و البحث في الأديان و العقائد و الاطلاع على الأدب و شعر الشعراء العرب و الفرس، و يأخذ من كل فن طرفا حتى بلغ درجة عليا في العلم و الحكمة و المعرفة.

ولد سنة ٣٩٤ هـ. فى قباديان، و توفى صبيحة يوم الجمعة فى الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ ببلدة «يمكن» من مواضع «بدخشان» و كان قد نرح إلى هذه البلدة فرارا من أمراء السلاجقة الذين ناهضوه و طلبوه، بعد أن وشى به أعداءه حسدا.

عاش طيلة حياته تحت ستار «التقية» و قد لاقى من التشريد و الفرار فى الجبال ما لا يمكن وصفه . و من المشهور أن أخاه أبا سعيد رثاه بالأبيات التالية:

طويت بلاد الله علمت حكمة	و صيرت بين الناس قرما ممجدا
و قد قفت بيلاغوس بأسوأ حاله	و ألزمت أفلاطوس لهفا مسددا
تحليت بالتقوى و ما يعتري بها	و رقيت معراج السلاطين بالندى
و جاهدت خمسا و عشرين ليلة	و سافرت بالأبطاح كالطير تعتدى
ملأت الدنيا بالمدح و الذم شاهدا	و صادفت مأمول البرية سرمدا
فأسكنت غور الغار غير مغائر	سوى رحمة الله الكريم و قد بدا
فعاقبة الدنيا خسار و ذلة	و فرقة أحباب إذا ما تأبدا
سقاك إله الناس سقيا مرويا	و ألسك الغفران يا ناصر الهدى

لناصر خسرو من المؤلفات:

الديوان، و يبلغ ثلاثين ألف بيت، و لكنه أصبح الآن اثني عشر ألف بيت، و قد حققه نصر الله التقوى «طهران» سنة ١٩٢٩ م و طبعه على الحجر فى تبريز سنة ١٢٨٠ هـ.

«سفرنامه» و هو كتاب رحلاته، و قد ترجمه المستشرق «شيفر» باريس سنة ١٨٨١ م و قد طبع الكتاب أيضا سنة ١٣٠٤ هـ. و ترجمه إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب سنة ١٩٤٥ م.

«وجه الدين» طبع فى برلين سنة ١٩٢٤ م. منشورات كافيانى.

«زاد المسافرين» حققه بذل الرحمن و طبع فى كافيانى سنة ١٩٢٢ م.

##PAGE=148##

«خوان الإخوان» حققه الدكتور يحيى الخشاب و طبع سنة ١٩٤٠ هـ بالقاهرة.

«روشنائی نامہ» أو «رسالة الضوء» نشره «اتيه» و ترجمه إلى الألمانية و علّق عليه في مجلة المستشرقين الألمان سنة ١٨٧٩ «شيش فصل» حققه و ترجمه إلى الانكليزية «إيقانوف» و نشرته الجمعية الثقافية الاسماعيلية - بومباي - الهند سنة ١٩٤٩ م.

«كشایش و رهايش» تحقيق سعيد نفيسي « ليدن سنة ١٩٥٠ م. من منشورات الجمعية الثقافية الإسماعيلية - بومباي - الهند.

«جامع الحكمتين» حققه «هنرى كوربان» و «محمد معين» نشره المعهد الإفرنسى للدراسات الإيرانية في طهران سنة ١٩٥٣ م.

«سعدت نامہ» أو كتاب السعادة نشره «فانين» في الجزء الرابع و الثلاثين من مجلة «المستشرقين الألمان».

«بستان العقول»، المفتاح و المصباح، دليل المتحيرين، لسان العالم، اختيار الإمام، و اختيار الإيمان، و هى مفقودة . و ما أظرفه حين يقول عن نفسه:

و لا تنظر إلى جسدی الضعیف الواهن و انظر إلى أقوالی ذات الرواء

فلی آثار كثيرة یزید عددها على نجوم السماء و كان یقول:

فلم یبق نوع من العلوم إلاً استفدت منه قليلاً و كثيراً

و من منتجات شعره:

«العلوی و السفلی»

فنهش النسر لحمه، و طعم منه الغراب

رأیت فی الفلاة رجلاً مزقت جسده الذئاب

و تبرّز الغراب، فتبرّز فی قاع الینابیع و الآبار

و تبرّز النسر، فتبرّز فی قنن الجبال و القفار

«موعظة المزبلة»

خرج ناصر خسرو ليتنزه فى يوم من الأيام

##PAGE=149##

مثقل الرأس و لكن بغير الكأس و المدام
فنادته المزبلة و قالت له: لا تنظر إلىّ فى فتور
فمرّ بمزبلة إلى جوارها جملة من القبور

و تأمل حال الدنيا، و ما أعدت من نعم لضحاياها المساكين فقد اشتمل جوفى على نعمها، و اشتملت القبور على الآكلين
الجاهلين

«بلغنى يا ربح ...»

يا رباح الصبا ... تحملى منى إلى خراسان السلام
كما حملت أخبارى الصحيحة إليهم
و قولى لهم: إن الدنيا قد أحتت عودى المستقيم
فحذار أن تدع عهدى توقعك فى الغرور و
الآتام
إلى أهل الفضل و العقل منها، لا إلى العوام و
الطعام
أحملى إلىّ ثانية أخبارهم، و حدثنى بينهم
و حطمتنى بمكرها المعروف و غدرها المقيم
فإنها لا ترعى لأحد عهدا، و لا تعرف الوفاء و
الدوام

«كشجرة طيبة»

فكرى شجرة مورقة طيبة الثمرات
و إذا شئت أن تعرف حالى على الحقيقة و فى
جلاء
أوراقها العفة و ثمارها العلم و الطيبات
فانظر إلىّ بعين البصيرة، كما يفعل العقلاء

و لا تنظر إلى جسدى الضعيف الواهن، و انظر إلى أقوالى ذات الرواء

فلى آثار كثيرة يزيد عددها على نجوم السماء
و فتح لى على مصاريعه أبواب الرحمة و اليقين
لأنى عرفت بحبى «لآل الرسول» و الأئمة
الأصفياء

و شكرا لله .. إنه هدانى إلى طريق العلم و الدين
و جعلنى أشهر من الشمس فى أوج السماء

«دليان»

و أنت أيها الجسد الجاهل ... ليس لك عمل إلا
النوم و الطعام

و لكن العقل لدى خير من الأكل الطيب و طول
المنام

##PAGE=150##

٤

و فى رأى العقلاء أن لا عمل للحمير .. إلا النوم و
الغذاء

و من العار أن يكون حالى كالحمار مع ما لى من
عقل و ذكاء

و أنت يا جسدى .. سوف لا أقيم معك فى هذه
الدنيا الفانية

لأن الله يدعونى إلى داره الثانية.

حيث المجد بالأعمال و الفضائل .. لا بالنوم و
الأكل

فليكفك النوم و الأكل، و ليكفنى الفضل و العقل

و قد ذهب قبلى ما لا يعد من الناس و الأنام
و سأطير بجناح الطاعة ذات يوم، فأخرج من
هذه القبة العالية
و جميع الناس يحذرون ضربات القضاء و القدر
و «القضاء» اسمه «العقل» و «القدر» اسمه
«الكلام»
فلم الحذر و الخوف من نفسى، و ما يجيش به
صدى
إذا ظننت نفسك دابة، فلا تظن أنى من الأنعام
و مهما طال بقائى فاعتبرنى ممن أودت به الأيام
و كأنتى طائر يضرب بجناحيه فى أطباق الهواء
الخالية
و مع ذلك فهما دليلا طريقى فى هذا السفر
و قد أصبح عقلى و نفسى أفصح من يحدثنى
الآن بأمرى
و يا من قنعت من القضاء و القدر بالاسم و الكلام
صدى

عمر الخيام

لم يكن «عمر الخيام» بنظرى ذلك الشاعر «الأبيقورى» الذى وهب حياته للذات، و تسكع على أبواب الحانات، و أكثر من
ترديد اسم الخمرة و الكأس و العود و الندمان، كما أنه لم يكن كما وصفوه زنديقا خارجا على السنن و الشرائع، و ملحدا
كافرا بالأديان و رسالات الأنبياء، بل كان حكيما من حكماء العالم الإسلامى، و فيلسوفا متعمقا (درس العلوم فى مدرسة
فكرية كان لها الفضل فى تخريج عباقرة العلم و أساطين الفلسفة ممن لا تزال آثارهم تنبىء بفضلهم على الإنسانية)، و أنه
لمن المؤسف حقا أن تغمط تل ك العبقرية الفذة التى سبقت عصرها بقرون، و أن تدرس دراسة سطحية عابرة من خلال
«رباعيات» لعبت بها أيدى النساخ و المترجمين فجاءت مضطربة متباينة يظهر الخيام من خلالها و كأنه مجموعة آراء
متناقضة لا ارتباط بينها و لا انسجام، و هذا ما أوجد نوعا من الارتباك و وقف حائلا أما تكوين فكرة صحيحة عنه، و قد
يكون من

##PAGE=151##

العسير جدا إيراد الشواهد الكثيرة فى الصفحات القليلة، بالرغم من أن الرباعيات طبعت و ترجمت أكثر من ثمانمائة مرة،
حتى أن عدد النسخ المنتشرة منها فى كثير من لغات العالم.

تعريفه: هو: «أبو حفص عمر بن إبراهيم الخيام»، و لعل كلمة الخيام تدل على أنه كان فى أجداده من يحترف هذه الصناعة
الناجحة التى كان أصحابها فى ذلك العصر يعتبرون من الأثرياء، و من أعلى طبقة فى المجتمع بحيث كانت ثرواتهم تمهد
لهم السبيل لتتقيف أبنائهم و إرسالهم إلى المدارس الكبرى للتخصص بعلوم العقلية و الفلسفة و الأدب، و المنطق .

و يعتبر القرن الرابع للهجرة من أزهى العصور بالنسبة للعالم الإسلامي، فقد فتحت فيه صفحات مشرقة بالنشاط الفكري، و التعبير عن الحياة العقلية الإسلامية و ذلك بفضل جهود علماء و فلاسفة عالميين لعبوا دورا مهما على مسرح ا لحياة الفكرية، و سجلوا في تاريخ الفكر الإنساني أقدم الروائع و البحوث بحيث لا تزال الأمم الأخرى تستقي منها ما ينير الطريق، و يهدى السبيل حتى يومنا هذا.

و عند ذكر هؤلاء العباقرة يتبادر إلى ذهننا الغزالي، و الكرمانى، و السجستاني، و الرازيان (أبو بكر) و (أبو حاتم)، و الفارابي، و ابن سينا، و جميعهم من أصحاب العلم، و الفلسفة، و المنطق (الذين نهلوا من ينابيع المدرسة اليونانية الفلسفية، و المشائية، و ما خلفه أرسطو، و أفلاطون، و أفلوطين، و فيثاغوريوس، و حكماء الإسكندرية ...) و استخدموها في التعبير عن تعاليمهم الدينية و الخيام الذى رافق نهضة ذلك العصر اعتبر فى عداد من ذكرناهم يدلنا على ذلك ما جاء فى إحدى رسائله عند ما تعرض لذكر ابن سينا فقال:

«معلمي أفضل المتأخرين الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخارى أعلى الله درجته».

و هذا البيان يظهر لنا الخيام و كأنه تتلمذ على ابن سينا، و أعجب به، و اتفق معه بالأفكار، و استمد منه الآراء.

للخيام مؤلفات عديدة ضاع أكثرها، و لم يعثر له حتى الآن إلا على أربعة عشر كتابا و رسالة فى الحكمة و العلوم العقلية و الرياضية

##PAGE=152##

و الطبيعية، و عند ما نعلم أن الخيام عمّر مائة عام و نيف ندخل فى حسابنا أن هذا العدد من الكتب قليل بالنسبة لعمره المديد. فأين ضاعت إذن هذه الثروة الفكرية النادرة، و ما هو القصد من ضياعها و كيف؟

أما كتبه المعروفة فأهمها:

كتاب «الجبر و المقابلة» و قد شرح فيه طرق حل مسائل من الدرجة الثانية بواسطة الجبر و الهندسة و المقابلة، و أوضح فيه ثلاث عشرة مسألة من المعادلات، و له كتاب فى العلوم الطبيعية عن الذهب و الفضة، و قد عين فيه مقدار الذهب و الفضة المتخذان من الجواهر، و له رسالة عن اختلاف الجو فى المناطق المختلفة و قد سماها «لوازم الأمكنة»، و رسالة فى بيان مصادر «أقليدس»، و رسالة فى الوجود، و رسالة فى الكون و التكليف، و أخرى فى المسائل الحسابية المشككة، و إذا علمنا أنه فى سنة ٤٩٩ هـ اختير مع الفلكيين المشهورين «أبو مظفر الإسفرازى» و «ميمون الواسطى» لإصلاح التقويم المعروف بالجلالى نسبة إلى «جلال الدين ملكشاه السلجوقى» أدركنا تضلعه فى علم الفلك بالإضافة إلى العلوم الأخرى.

إننى فى هذه الصفحات لا أنفى وجود رباعيات الخيام، و لكنى أؤكد كما ذكرت بأن أيدى النسخ و المترجمين قد عبثت بها و غيرت و بدلت و أضافت و حرّفت فيها و منها، ممّا لا يصح معه و الحالة على ما ذكر إعطاء فكرة صحيحة عن الخيام من خلالها، و ما دام الخيام نفسه قد اعترف بأنه من تلاميذ ابن سينا، و من السائرين على نهجه، و تبنى أفكاره، فلا ضير عليه.

و يجب أن لا يسهى عن البال بأن من يدرس الرباعيات دراسةً موضوعيةً يرى فيها أفكاراً للخيام تسمو به و تدنيه من مراتب العارفين ... و فى هذه المناجاة يتجلّى ذلك:

إلهى و مجرى كل حىّ و ميت
و رب السما ذات النجوم الطوالع
لئن كنت ذا سوء فإنك خالقي
و ما هو ذنبى إن تكن أنت صانعى؟

و ما أروعه حين يكشف عن نفسه، و يشكو عجزه عن جلاء أسرار المبدأ و المعاد، و هو السر الإلهى المغلق أو الغيب الذى لم يطلع عليه أحد:

حلّ فكرى فى الكون كل معمى
من حضيض الثرى لأوج النجوم

##PAGE=153##

قد تبينت كل فكر و سرّ
فيه إلّا سرّ الردى المحتوم

أما خمرة الخيام ... فإنى أجلها عن خمرة الحانات التى تذهب بالعقل و الحجى ... إنها بنظرى الخمرة التى تسكر الروح، و تنير طريق المعرفة، و توصل إلى السعادة السرمدية، و خاصة حين يتعاطاها مع ندمان صفت نفوسهم، و تجردوا عن الشهوات ... إنهم خلّان الوفاء كما يسميهم.

أرى كل خلّان الوفاء تفرقوا
فبين صريع للردى و قتيل
شرباً شراباً واحداً غير أنهم
به ثملوا من قبلنا بقليل

قضى الخيام قسماً من حياته فى «بلخ» ثم انتقل إلى «مرو» حيث عمل فى بلاط الملك سنجر السلجوقى، و منها ذهب إلى «اصبهان» حيث التحق ببلاط الملك ملكشاه أيضاً، و فى هذا الدليل على أنه كان نديماً للملوك و سياسياً بارعاً تنهافت الملوك على التزود من نصائحه و آرائه و فى آخر أيامه عاد إلى مسقط رأسه «نيسابور» حيث ظلّ فيها إلى أن

أدركته الوفاء. و تذكر بعض المصادر التاريخية أن المؤرخ «البيهقي» زاره فيها سنة ٥٠٧ هـ. كما التقى به في «بلخ» المؤلف العالم «نظامي العروضي» و ذلك سنة ٥٠٦ هـ.

و أيدت المصادر التاريخية أيضا أن الغزالي قد عقد معه عدة اجتماعات، و لمّا لم يستطع زعزعته عن عقيدته تركه و مضى في سبيله، هكذا روى المؤرخ «الشهرزوري» في كتابه «نزهة الأرواح». و ذكر «القفطي» في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»: بأن فلسفة الخيام قد نقلها بعض أقطاب الصوفية، و هم يتحاضرون بها في خلواتهم، و أمّا المتصوف «نجم الدين الرازي» فقد أشار إليه في كتابه «مرصاد العباد» بأنه فيلسوف دهرى طبيعي، و هكذا فإنه نفى عنه نسبة الصوفية التي خلعا عليها البعض.

هذا غيض من فيض عن الخيام و رباعياته و مؤلفاته .. ذكرناها في هذه الموسوعة اعترافا بهذا الشاعر الكبير و الفيلسوف العميق.

«جلال الدين الرومي»

ولد جلال الدين الرومي في بلدة «بلخ» الفارسية سنة ٦٠٤ هـ، و يضيف أتباعه و المعجبون بأدبه و فلسفته كلمة «مولانا» إلى اسمه

##PAGE=154##

إجلالا و تعظيما. أما كلمة «رومي» فأصبحت مرادفة لاسمه على اعتبار أنه قضى بقية حياته في مدينة «قونية» و هي من بلاد الروم في آسيا الصغرى.

عاش جلال الدين الرومي منذ صغره حياة طافحة بالقلق و الآلام و التشرد . فأسرته تعرضت إلى الاضطهاد من قبل «علاء الدين محمد خوارزمشاه» لأسباب قد يكون وراءها معارضتها لهذا الحاكم الجائر و أساليب حكمه، و هذا ما جعل والده يغادر «بلخ» إلى «نيسابور» مصطحبا ابنه جلال الدين، فأقاما فيها مدة ثم انتقلا إلى بغداد، و منها إلى مكة و ملطية حيث أمضيا فيها أربع سنوات، ثم غادراها بعد ذلك إلى بلدة «لارنده» التي تعرف اليوم باسم «قرمان» فأقاما فيها سبع سنوات.

و في سنة ٦٢٨ هـ. مات والده. فحزن عليه حزنا بالغا، و قرّر الهجرة إلى حلب، و منها ذهب إلى دمشق طلبا للعلم، و سعيًا وراء التزود منه، و بعد إقامة طويلة في دمشق سافر إلى «قونية» متخفيا، لأن حكام دمشق سعوا في طلبه، و ذلك لوشايات مغرضة قدمها بحقه بعض الحساد، و هناك التقى «شمس تبريزي» الذي كان يعيش في قونية بسرية تامة بعد فقدان أهله و دمار دولته «الموت» الإسماعيلية، و بعد أن نفذ هولاء التتري قراره بالقضاء على الأسرة الحاكمة للإسماعيلية، و من المعلوم أن هذه الشخصية الفذة لعبت دورا مهما في حياة جلال الدين الرومي و أثرت في تفكيره، و نقلته إلى عالم جديد من الحب و الشعر و الفلسفة، و قد ظلّ جلال الدين ملازما هذا المعلم الغريب إلى أن أدركته الوفاء سنة ٦٧٢ هـ.

شغل جلال الدين الرومي بالرياضة الروحية، و محاربة الشهوات، و إماتة الجسد، و عمّل على إيقاظ الفضائل العقلية، فشغف بالاستماع إلى الموسيقى و الغناء و نظم الشعر و الاستغراق و الإنشاد و الانقطاع إلى الذكر، و التأمل، و حرمان

النفس من الم لذات الفانية، و يعتبر الرومى من أشهر شيوخ التصوف و الشعراء الذين انتجبتهم فارس، بل أكثرهم إنتاجا، و أغزرهم مادة، و أعمقهم تفكيراً. فديوانه «المثنوى» و ديوانه المسمى «كليات شمس تبريزى» اعتبرهما النقاد و الأدباء من الملاحم النادرة، و يكفى أن يكون ديوانه قد جاء فى ستة أجزاء و خمسة و عشرين ألفاً و سبعمائة

##PAGE=155##

بيت من الشعر . و قد ظهر جلال الدين فيه قوى ال بيان، فياض الخيال، عميق التفكير، بارع التصوير، بعيد النظر، يوضح المعنى الواحد، و يصوره صوراً مختلفة، و يسوق المثل تلو المثل، و تأتبه المعانى إرسالاً، و تواتبه الألفاظ إتياناً، و يطاوعه الشعر مزهوا مسترسلاً، و بين هذا و ذاك يظل قلبه يفتح بالحب و الشوق و الاستغراق الطويل. فكل شىء يذكر فيه، و كل فكر يفيض إليه مرتكزا على الفلسفة السامية، و الغناء الإلهى، و العشق الروحى، و تتجلى قوة الرومى فى المناداة بالاختيار، و حفز الناس على العمل، و السير قدماً، بل هو يرى الحياة جهاداً مستمراً ينبغى أن لا يكمل المجاهد فيها ساعة. فلألم عنده وسيلة للذة، و البكاء سبباً للضحك و قد رأيناه يتساءل .. كيف يضحك المرح إذا لم يبك الربيع، و كيف ينال الطفل اللبن بغير البكاء ... فالغناء أحرى، و الكد أنفع.

غنى لى يا منيتى لحن النشور	إبركى يا ناقتى تم السرور
إبلعى يا أرض دمعى قد كفى	إشربى يا نفس وردا قد صفا
عدت يا عيدى إلينا مرحبا	نعم ما روحت يا ريح الصبا
صرت، إذا متّ جمادا ناميا	متّ نبتا صرت حيا ساعيا
متّ حيوان إذا بى بشر	كيف أخشى الموت ما ذا أذر

هنا ... يتوغل الرومى فى صحارى الفلسفة الواسعة حيث يعزف فى أرجائها لحن النشور، و حيث ينعم بالسرور الدائم ... و نراه بعد هذا يطلب من ناقتة أن تبرك بعد عشوره على أمانيه، و بعد أن قضى أياماً طويلة بالتفتيش عليها. ثم ينتقل ليخاطب الأرض، طالبا منها أن تبلع دموعه، ثم ليطلب إلى النفس أن تشرب عصير الورد ... و ينتهى أخيراً إلى الحديث عن مفارقة الروح للبدن، و عن انتقال الروح فى القوى الأربع لتتهذب و تصقل، ثم تعود إلى الصعود حيث بدايتها و وجودها، و حيث الراحة الأبدية، و الديمومة السرمدية. و ينتقل ليتحدث عن جمال الخلق و تكوين البنية، فيضرب مثلاً الطفل الرضيع الذى يبقى مدة دون طعام، و دون أن يتمكن من الرطق، لكنه يسمع النطق فيؤثر فى جنانه و يقول:

لو أنه لم يؤت سمعاً لظلّ طوال العمر أبكم، لأن السمع دليل النطق، و على المتيقن أن يأتى البيوت من أبوابها، و يطلب الأغراض فى أسبابها ... أى على الإنسان أن يسمع ليتمكن من تمييز الأشياء و الموجودات.

##PAGE=156##

أنظر الطفل رضيعا لم بين
ثم يبقى مدة لا ينطق
و إذا لم يرع سمعا تمتما
و الذى قد صمّ فى خلقته
ليس إلا السمع للنطق دليل
و ادخلوا الأبيات من أبوابها
كلّه فى ذلك الحين أذن
منصتا كيما يواتى المنطق
و ثوى فى الناس دهرا أبكما
كيف يلفى النطق من حيلته
فاطلب المنطق من هذا السبيل
و اطلبوا الأغراض فى أسبابها

لقد عرف جلال الدين الرومى بالرقّة و السلاسة يسكبهما فى شعره، و عرف بأفكاره الفلسفية، و نزعتة الصوفية «المعتدلة»
يضمنها الملاحم الطويلة الرائعة، و تفوق على أقرانه بابتكاراته الشعرية و صورته الجديدة ممّا اعتبر فتحا جديدا فى عالم
الفكر فى ذلك العصر المضطرب البعيد، و عند ما نذكر شعراء فارس و فلاستها و رواد الأدب فيها، فيتبادر إلى الأذهان
جلال الدين الرومى صاحب الغزل الروحى العميق و المناجاة الإلهية البديعة.

يا ندامى دمية فى مرح
اشربن كأسا على ذكرى الكسير
أو بذكرى مدنّف حلف عذاب
أين هذا العهد أين القسم؟
إن يكن عبدك بالبعد أساء
فهل الفضل قصاص و جزاء؟
إننى أسقى دمي فى القدح
إن ترد انصاف ذا المضى الأسير
فاسكبن لى جرعة فوق التراب
و وعود من شفاه تبسم

هذه المناجاة الطافحة بالرقّة و العذوبة، و هذا الوصف يرسله الرومى على سجيته من قلب النشوة و الطرب، يحملنا إلى
عالم تمور فيه القدسية و السحر و الجلال و الجمال.

أنها أفكار عاطفية نابعة من فلسفة صوفية أصيلة رسم الرومى خطوطها بعناية، و ضمنها الألحان الموسيقية المؤثرة، و
الأناشيد العذبة تنزل فى الأعماق و تحرك المشاعر.

قفص للروح هذا البدن
بين غشّ ظاهر أو يبطن

من مناد: أنا خلّ أصطفيك
و مناد: بل أنا نعم الشريك
و مناد: أنت فرد في الوجود
بين إفضال و إحسان و وجود
و مناد: لك ما في العالمين
أعبد أرواحنا من غير مين
ذاك يدعوه لأوقات السرور
ذاك يدعوه لعيش و حبور

هذه الأبيات تخفى وراءها معاني عميقة و رموزا يكمن وراءها اعتقاد

##PAGE=157##

جلال الدين الرومي القائل بخلود النفس و فناء الجسد، فالجسد هو سجن الروح أو قفصها كما يصفه، و في هذا يعطى الرومي الدليل على أنه نهل من الفلسفة التي كانت سائدة و قائمة في أوساط الفكر الإسلامي ما طاب له، ثم صاغ هذه الفلسفة بقالب شعري ينبض بالموسيقى، و الغناء، و الحياة الرغيدة، و يفيض بالنشوة الروحية التي لا تلبث أن تسيطر على المشاعر، و تحدث فيها عاطفة و شعورا.

كلّ حين سائرات من عدم
لوجود، أمم إثر أمم
هذه الأوراق إبان الخريف
تختفي في لجة الموت المطيف
تندب الغربان فيها صائحه
في الثياب السود مثل النائحه
فكرن يا صاح في هذا الصنيع:
دائم فيك خريف و ربيع
أنظرن في القلب روضا ناضرا
من رباحين و سرو، زاهرا
حجب الأغصان فيض الورق
و اختفى المرح بورد مونق
فيض عقل الكل هذا الكلم
رياح هذا الروض. هل من يفهم؟
رياح ورد حيث لا ورد يرى
فورة الخمر و لا خمر ترى

في هذه المقاطع يقدم الرومي آراء فلسفية مدروسة و معروفة، و قد سبقه إليها العديد من الفلاسفة الإسلاميين، و لكنهم لم يصوغوها هذه الصياغة، إلّا أن يرخى عليه أكاليل الجمال و الأغاريد العذبة التي تبشر بالعزلة و التأمل و التجرد.

إنه يستفسر و يتساءل ... كيف تعبر الأمم هذا العدم بعضها وراء بعض تارة في ظلام دامس، و تارة في ضياء ... و يضيف إلى قوله:

إن الإنسان في هذه الحياة كالزهرة يمرّ من الطفولة إلى ال شباب إلى الكهولة و أخيرا ينتهي إلى الموت، كما تنتهي أوراق الشجر في الخريف، فعلينا أن نستمر بإدامة النظر في هذا الكون، و التمتع بأسراره، و كيفية تنقله من حال الربيع إلى حال الخريف.

##PAGE=158##

الاسماعيلية و التصوف

لا بد من بعض التفسيرات باديء ذي بدء لمعنى كلمة «صوفية» فهذه الكلمة مشتقة من الصوف ... إشارة إلى التزام الصوفيين بارتداء الألبسة الصوفية البيضاء - التي كانت تميز مجموعة النساك الذين يشتغلون بالرياضيات و بالعبادات الانقطاعية الخيالية، و بالزهد في كل ما في الحياة من مباحج و مسرات.

لقد ظهرت الحركة الصوفية في العالم الإسلامي ظهورا تميّز بالسريّة المطلقة أحيانا، و بالعلنية تارة، فهذا الظهور كان يخضع في كافة المراحل إلى تقلبات السياسية، و إلى التيارات التي كانت تعصف في المشرق الإسلامي حيننا بعد حين حاملة معها أدوات التغيير، و التبديل، و التمهيد لأوضاع أخرى تقوم على أنقاضها.

ففي المشرق، و خاصة في فارس ... نشأت هذه الحركة، و نمت و ترعرعت، و تخرج من مدرستها أعلام كان لهم أكبر الأثر في مجال الفكر، و في إدخال فكرة «الفناء».

و هنا يجب علينا أن نشير بأن للصوفية مدارس، تختلف عن بعضها في المنهج و السلوك و الآراء، و ربما وصل اختلافها إلى حد الدخول في جدل و نقاش أديا في كثير من الأوقات إلى تكفير بعضهم البعض، و الدخول في معارك فكرية لما تنتهي حتى اليوم، و لم تستطع الفرق الإسلامية الأخرى التي سارت على خطى الإسلام الصحيح كبح جماح المتحمسين من أصحاب «الشطحات» الصوفية الغريبة التي تخرج عن دائرة العقل.

لقد نشطت هذه الحركة نشاطا منقطع النظير في أواخر العهد الفاطمي خاصة، ثم ازداد نفوذها عند زوال الدولة الفاطمية، و في بداية عهد «الأيوبيين». و يحدث المقرئ:

أن الخليفة الفاطمي العاشر «الآمر بأحكام الله» أقام في القاهرة

##PAGE=159##

مصطبة للصوفيين تحت قصره في القرافة - فكان يجلس في الطابق الأعلى المطل على المصطبة ليشاهد كيف يرقص أهل الطريقة الصوفية - و المجامر في أيديهم - و الشموع الكثيرة من حولهم . و قد مدّت لهم البسط فوق الحصر، و وضع عليها الأسطة ذات الألوان الشهية من الحلويات، و الفاكهة و الأطعمة .

مما لا جدال فيه أن بعض العلماء المصريين ورجال الفكر كانوا طوال العصر الفاطمي ملتزمين بالأفكار والمبادئ الإسماعيلية وحدها، لأن الخلفاء الفاطميين كانوا يعتنقونها ويدعون إليها، ويشجعون الدولة لنشرها وتعميمها - ويرسلون الدعاء إلى الأقطار الإسلامية للتبشير بها ولمكاسرة أصحاب المذاهب والفرق الأخرى، وهؤلاء الدعاء كما عرف عنهم كانوا على جانب كبير من المعرفة والذكاء والتضلع بأنواع العلوم، يظهرون الورع والزهد والتقوى - ويقلدون الصوفيين ببعض المظاهر والتصرفات دون الاختلاف عنهم إلا بالتمسك في العبادة «العملية» التي تعرف عندهم بعلم الظاهر. أما الخاصة فكانوا يخصوصونهم بالعبادة «العلمية» المعروفة بعلم «الباطن» أو «التأويل» ... وهنا يلتقون على صعيد واحد في الآراء مع الصوفية بغاية استقطابهم إلى دعوتهم، والسيطرة على أفكارهم.

إننا حين نقرأ كتاب «راحة العقل» للفيلسوف الإسماعيلي «الكرمانى» نرى فيه بعض الآراء التي هي من صميم التصوف كقوله:

«النفس شرفها في نيل كمالها الثانى، الذى هو السعادة الأبدية، والفوز بالبقاء في جوار البارى عز وجل، و نيلها الكمال الثانى في شيئين:

أحدهما التهذيب من إمارات الطبيعة و ظلمتها التى هى الغضب و الظلم و الطمع و قلة الرحمة، و غير ذلك مما هو طبيعى لها من الرذائل لتصير بخلوها من هذه الدنيا مطابقة لما يرد عليها من ذاتها عند التصور - بالصورة الإلهية فينجع فيها وفاء لها ... و ثانيهما ...

التصور فى المعالم الإلهية التى هى الإحاطة بما سبق عليها فى الوجود من أعيان: العقول الإبداعية، والانبعاثية، والأجسام العالية،

##PAGE=160##

و السفلية لتصير فى ذلك الحد الذى تقوم بما تصوره عقلا كعين المتصوف لا فرق بينهما من تلك الجهة ... و يقول الكرمانى:

و إن من يقرأ رسالتنا «الوحيدة فى المعاد» ... فإنها تصور له أمورا فى التقديس. فيقدس الله تعالى فى خلواته، فإن اتفق له رفيق موافق و أنيس مصادق فهى النعمة الكبرى و يواظب على ما يلزمه من العبادتين العملية و العلمية أى «الباطن و الظاهر»، و هكذا فإن هذه الآراء الإسماعيلية تعكس آراء الصوفية، و قد تكون تسربت إلى حرم دعوتهم حين كانت تعانى ضغوطا سياسية كثيرا ما كانت تضطر أصحابها إلى الركون إلى «التقية» و اعتماد المظاهر التى يتطلبها الوضع الراهن، فلا غرابة بعد ذلك إذا ما رأينا أحد كبار المستشرقين و هو «ماسينيون» يذهب إلى القول بعلاقة «الحلاج» المتصوف «بالقرامطة» الإسماعيليين.

فلما تم لصالح الدين الأيوبي الاستيلاء على مصر، و استئصال شأفة الدولة الفاطمية اهتم بالصوفيين، فأقام لهم الحمامات، و الخوانق، و بنى لهم الزوايا، كما عين لهم الموائد اليومية، و أجرى على رؤسائهم الأرزاق و المعاشات.

من الواضح أن النصوص الإسماعيلية اعتمدت العقل أساسا لحركتها ونظامها، فالعقل عندهم هو الدليل الذى يقود إلى المعرفة، و إلى الله و هذا بعكس الصوفية التى تعتمد الرياضة الروحية ...

فالمتوسطة يرون:

أن الفناء وحده هو الكفيل بانتقال القدرة الإلهية كلية في كيانهم الذاتى في الذات الأولى، و كأنى بالأبوين قد رأوا في فكرة الرياضة الروحية خير قاعدة للانطلاق إلى تحطيم الآثار الإسماعيلية و إلهاء الشعب المصرى باعتقادات قد تكون أقرب إلى واقعه و مزاجه، و ساعد على ذلك ظهور عدد من أعلام الصوفية على مسرح الفكر، و كان أبعدهم ذكرا، و أشدهم أثرا «محي الدين بن عربى» الذى دافع عن آرائه بجرأة نادرة و خاصة «وحدة الوجود» ففي كتاب «فصوص الحكمة» يعطى التعبير الأسمى للعقائد الصوفية في صورتها النهائية، و يضع مصطلحا صوفيا كاملا استمدته من القرآن الكريم و الحديث، و علم الكلام، و الفلسفة المشائية، و الافلاطونية، و الرواقية ... و من الجدير بالذكر أنه انتفع بمصطلحات فلسفية

##PAGE=161##

إسماعيلية وردت في رسائل «إخوان الصفاء» فجاءت فلسفته مزيجا من عدد من الآراء و الفلسفات التى عرفها الفكر الإنسانى قبله، و فى هذا يتفق مع الإسماعيليين و أفكارهم التى جعلوها مقبولة، و مرغوبة في مجتمعهم، و هكذا فإن «ابن عربى» أخضع آراء الذين سبقوه لمذهبه في التصوف ... فهو يقول فى كتابه «الفتوحات المكيّة» مناديا بوحدة الوجود:

سبحان من خلق الأشياء و هو عينها ... و قال:

فإن للحق في كل خلق ظهورا ... فهو الظاهر في كل مفهوم، و هو الباطن عن كل فهم إلا عن فهم من قال إن العالم صورته و هويته ... و قال:

أحديّة كل شيء معقولة بحيث لا يمتري فيها من له مسكة عقل، و نظر صحيح ... و أنت إذا نظرت إلى هذا الوجود فلا بد أن تحكم عليه بأن له رتبة يكون عليها في الوجود، فيما أن يكون مؤثرا أو مؤثرا فيه، و إما أن لا يكون واحدا منهما، و إما أن يكون المجموع، فالمؤثر هو الفاعل و المؤثر فيه محل الانفعال، و ما في الوجود إلا المجموع.

و الإسماعيلية يذهبون في توحيدهم مذهباً مخالفا لما يقوله ابن عربى ... يقولون:

إن الله ليس كمثل شيء ... فلا يمكن أنه «أيسا» و باطل أن يكون «ليسا» أى لا نفى و لا إثبات، فهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول، و لا يمكن أن يوصف بصفة توصف به مخلوقاته . فالله عند الإسماعيلية هو «مبدع الوجود» و لكنه عند أصحاب وحدة الوجود هو عينها، و العين واحدة.

و يظهر الخلاف على أشده بين الصوفية و الإس ماعيلية، عند ما يهمل ابن عربى منهج العقل الذى هو منهج التحليل و التركيب، و يأخذ بمنهج التصوير العاطفى و الرمز و الإشارة و الاعتماد على أساليب الخيال فى التعبير ما لا يتفق مع آراء الإسماعيلية التى تدعو إلى أعمال العقل و التفكير.

و فى نظام المراتب لدعاة الإسماعيلية جاء:

إن حجج الجزائر عندهم: إثنا عشر حجة، و لكل حجة جزيرة أربعة و عشرون داعيا مآذونا- و يدخل في عدادهم الدعاء المطلقون و الأجنحة و يرأسهم «داعى الدعاء» الذى يقيم مع الإمام أو على مقربة منه، إضافة إلى باب الدعوة، و هذه المرتبة الكبرى تكون عادة مستورة.

##PAGE=162##

أما الصوفية فيقولون:

إنهم يعومون فى عشرة أبحر هى : محمد، ابو بكر- عمر. عثمان- على، جبرائيل- ميكائيل- إسرافيل- عزرائيل- و الروح الأكبر، و يقسمون هذه الحدود إلى علوية و جسدية، و يظهر اختلاف آخر بين الفريقين، و هو من الأهمية بمكان، و خاصة فى ترتيب الحدود العلوية و السفلية.

فالإسماعيلية يقولون:

إن الرسول الكريم محمد (ص) أخذ عن خمسة حدود علوية، و هذه الحدود وضعت لها مصطلحا هو : الجد- و الفتح- و الخيال- و السابق- و التالى، و إن الرسول عدّ خمسة حدود هى: الأساس، الإمام، الباب، الحجة ثم الداعى.

أما الصوفية فيأخذون بمبدأ «القطب» الذى يصل إلى هذه المرتبة عبر الاجتهاد و الفناء ... و هذه الفكرة تناقض فكرة الإمام عند الإسماعيلية . فالإمام عندهم مثل كامل، و الولي هو الحاكم بكل ما فى الكلمتين من معنى، بينما القطب عند الصوفية هو المربي الذى يأخذ بيد السالك خطوة خطوة فى الطريق الوعر المحدقة به الأخطار و الانحرافات، و ذلك لكى يوصله إلى مرتبة الكمالات الإنسانية.

و تتفق الصوفية مع الإسماعيلية بالقول «بالبنوة الروحية» فالابن الروحي أعظم منزلة من ابن الجسد عند الصوفية، و يدعم هذا رأى إخوان الصفاء عند ما يقولون:

«إن النسبة الجسدية تنقطع إذا اضمحلت الأجسام- و تبقى النسبة النفسانية- لأن جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد- و إن كان يظن أن الابن الجسداني يحى ذكر أبيه بعد موته، فالابن الروحاني أيضا يحى ذكر أبيه فى مجالس العلماء، كما نذكر نحن معلمينا أكثر مما نذكر آباءنا».

و من الآراء التى تتفق فيها الإسماعيلية و الصوفية «الأدوار و الفترات» فالإسماعيليون يقولون:

إن الله تعالى يرسل رسولا ليدعو الناس إلى الصراط المستقيم . و لكن تأتى بعد الرسول فترات تكثر فيها البدع و الأهواء- فيرسل الله رسولا آخر للهداية- و النبى محمد (ص) هو خاتم الرسل، و لكن الأئمة من بعده هم الذين يقومون مقامه، و هم حجج الله على عباده،

##PAGE=163##

إلى أن ينقضى الدور الأكبر بظهور قائم القيامة ... و حول هذا يقول محمد بن أبى جمره، و هو من أعلام الصوفية:

لما كان العلماء والأولياء هم ورثة الرسل والأنبياء، فلا بد من حصول فترات تقع بين العالم والعالم والولى والولى، فإن اندثرت طريقة الداعى اتى بعد زمان من يجددها، ولما كان يحصل فى فترات الأنبياء عبادة الأصنام من دون الله، كذلك تقع فى فترات الأولياء عبادة البدع والأهواء و تبدل الأفعال بالأقوال .

و ما دمنا فى صدد التحدث عن الإسماعيلية و الصوفية، فلا بد من التطلع إلى ما قاله ابن خلدون فى مقدمته حول هذا الموضوع:

«ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف، و فيما وراء الحس، توغلو فى ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول و الوحدة، و ملأوا صفحات الكتب.

و تبقى «السياسة» و هى أهم من كل ما ذكرناه ... فالإسماعيلية عرفوا فى مراحل حياتهم بأنهم كانوا يمثلون نظاما فكريا أمميا، أو حركة ثورية من مبادئها إقامة دولة كبرى تحقق الخير و الحياة الفضلى للإنسانية، و قد عرفها «إخوان الصفاء» و وضعوا دستورها، و بشروا بها و سموها «دولة أهل الخير» و من مبادئها أيضا قلب الأنظمة الفاسدة السائدة، و إصلاح المجتمع و تعميم الأمن و الرخاء و العدالة، بينما الصوفية لم تخرج عن كونها حركة رياضية تقوم على الزهد، و العبادة و الانقطاع، و الابتعاد عن كل ما يسمى سياسة أو دولة ...

فهذه عملت للتفريق بين العلم و الدين، فى حين دعت الإسماعيلية إلى التوفيق بين العلم و الدين.

إن المدارس الفكرية التى كانت قائمة فى بعض الجهات من العالم الإسلامى كانت تعترضها مدارس صوفية تنافسها لاستقطاب الأنصار و المؤيدين، و قد يحتدم الجدل، و تبرز المناقشات الكلا مية، و تتطور فيتدخل الحكام و الأمراء ... و هنا تكون الغلبة للفريق الذى تؤيده السلطة الحاكمة، و فى هذا الحال يضطر الفريق الثانى إلى السكوت و الاستتار.

من هنا ... نستطيع أن نستخلص أمورا كثيرة أبرزها ... إن افكارا صوفية عدة، و عبارات أخرى إلى جانبها استعمالها الإسماعيليون فى

##PAGE=164##

كتبهم و مؤلفاتهم تحت وطأة الظروف السياسية القاسية التى كانت تلزمهم بذلك، و هكذا بالنسبة للمتصوفين، و هذا يحتاج إلى درس و تدقيق و معرفة و تمييز بين الثابت و الدخيل.

الأفكار الإسماعيلية

هذه الدعوة التى شغلت الناس فى العصور الغابرة ... لا نكاد نعرف دعوة من الدعوات كان لها هذه الأهمية و الاعتبار فى عالم الفكر أو الاجتماع أو السياسية . عند ما نقرأ تاريخها بإمعان و تجرد نلمح إشارات كثيرة، و ظواهر و بيانات و نحن نعطى الدليل على بعد النظر و العبقرية و التنظيم و تحدد المراحل التى مرت به، و الأدوار التى لعبتها على مسرح الشرق و الغرب، و كان هذا مدعاة إعجاب و تقدير و ثناء حتى من أعدائها.

... إن أهم ما يمكن ملاحظته عند ما نكون فى صدد دراسة تاريخها ...

ذلك الهجوم الذي تعرضت له من قبل أعدائها الكثيرين الذين تطوعوا و تجندوا لمحاربتها و للحد من نشاطها و تشويه سمعتها و تعاليمها و أفكارها ... و نحن كباحثين حياديين لا بد لنا من القول:

«إن الناس أعداء ما جهلوا»

فهذه الدعوة التي قامت على دعائم فكرية حملها دعاة ضربوا بسهم وافر في عالم الفكر ... كان من العسير على الحكام و الدول الأخرى التسليم لها ... لأنهم كانوا يعلمون بأنها ما جاءت إلا لكي تزيحهم عن عروشهم لتقيم على أنقاضها دولة فاضلة يتحقق فيها كل ما يسمّى عدالة و إخاء و حرية و مساواة ... و من جهة أخرى فإن الوصول إلى أعماق هذه التعاليم لم يكن بالأمر السهل، بل على العكس كان يحتاج إلى المزيد من الوقت يصرفه المستجيب في سبيل ذلك . من هنا بدأت الدعوة ضدها، و قامت الحروب في سبيل إزالتها، و لكنها ظلت قائمة و سائرة في طريقها دون أن تتراجع.

لا شك أن الدعوة الإسماعيلية مرّت بمراحل عديدة، و طرأت عليها أحداث جعلتها في بعض الأوقات مطابقة للظروف السياسية المتقلبة، فمذ عهد الستر إلى عهد الظهور، و من بلاد عربية إلى بلاد بربرية، ثم إلى بلاد فارسية و يمنية و هندية .. فهل نستطيع بعد كل هذا أن نوحّد بين التطلعات و الأفكار، و أن نقول إنها ما زالت واحدة دون تأثير و إنها لا تختلف عن بعضها البعض.

##PAGE=165##

لقد سبق لي أن قلت في الصفحات السابقة من هذا الكتاب ... بأن إحدى مراحل الدعوة الإسماعيلية ولدت في بلدة «سلمية- سورية» و يسمّى عهدها الأول «عهد الستر» و في تلك الفترة البعيدة كان عدد دعواتها و مفكريها لا يحصى و لكن الحروب و الثورات و الأحداث العنيفة التهمت كل تراثها، فلم يبق منه سوى رسائل إخوان الصفاء و خلّان الوفاء، و بعد انقضاء هذا الدور ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر و ظهرت كتب و مؤلفات عديدة وضعها دعاة كان أبرزهم القاضي النعمان بن حيّون و جعفر بن منصور اليماني و غيرهما ... فهل نستطيع أن نقارن بين هذه الكتب المختلفة؟ ... و عند المقارنة هل بالإمكان القول إنها لا تختلف في معناها و مضمونها عن سابقتها أي الكتب التي وضعت في عهد الستر؟

نصير الدين الطوسي بين الاسماعيلية و المغول

هو: محمد بن محمد بن الحسن .. و يكتنّى بأبي جعفر، و ينسب إلى طوس، و بعضهم ينسبه إلى «جهرود» و هي من أعمال طوس. ألقابه:

المولى، و الخواجه، و هي ألقاب كانت شائعة في بلاد فارس و تطلق عادة على كبار العلماء . أمّا لقبه الحقيقي فهو : فخر الحكماء، و مؤيد الفضلاء، و هناك من كان يطلق عليه لقب الفيلسوف، و سلطان المحققين، و أستاذ الحكماء و المتكلمين، و أفضل المتأخرين بينما أطلق عليه الإسماعيليون لقب الداعي الأكبر، و حجة الإمام.

عرف الأوروبيون «نصير الدين الطوسي» كما عرفوا قبلًا ابن سينا، و قد حظى بتقدير العلماء و كبار المستشرقين و خاصة : هورتن، و روسكا، و مينورسكي، و بروكلمان، و سارتون، و شتروطمان، و إيقانوف، و براون، و روزنشال ... و غيرهم.

قال عنه جورج سارتون:

إنه أعظم علماء الإسلام، و من أكبر رياضيينهم

و قال عنه بروكلمان:

إن نصير الدين الطوسي أشهر علماء القرن السابع، و أشهر مؤلفيه على الإطلاق.

##PAGE=166##

و قال عنه إيقانوف:

إن نصير الدين الطوسي ولد إسماعيليًا، و ظلّ حتى آخر حياته مواظبا و عاملا لها ... و لا شك بأن الفضل في تنقيفه و تربيته كان لوالده الذي كان من كبار دعاة الإسماعيلية.

ولد يوم السبت في الحادى عشر من جمادى الأولى، وقت طلوع الشمس سنة ٥٩٧ هـ، و هناك مصدر آخر يذكر أنه ولد سنة ٦٠٧ هـ. و قد يكون التاريخ الأول هو الأصح.

درس على والده و خاله، و كان والده ذا اعتبار خاص بين العلماء، و هكذا خاله الحكيم «فاضل بابا أفضل الكاشى» الذى وصف بأنه كان فيلسوفا كبيرا أيضا، و يبدو أن دروسهما و توجهاتهما انطبعت فى نفس نصير الدين، فجعلته ملازما و منكبا على العلم منذ الصغر، و عاملا و مجاهدا فى سبيله فى الكبير ... و لكن و بعد هذه الفترة من حياته يبدأ الغموض . فالمصادر لم تذكر عنه سوى القليل القليل ...

و كل ما ذكر: هو أنه عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره ظهرت عليه الرغبة بمتابعة تحصيل العلوم و المعارف، فانتقل إلى «نيسابور» حيث انتسب إلى مدرستها الشهيرة التى كان لها الفضل فى تخريج عدد من الفلاسفة و الرياضيين و الفلكيين أمثال: الحسن بن الصباح، و عمر الخيام. و غيرهما ...

و هناك، قضى مدة ستة أعوام فى نهايتها تمّ اجتياح المغول الأقطار الإسلامية، كخوارزم و سمرقند، و بخارى، ثم نيسابور ... و يذكر: أن نصير الدين كان واحدا من الأربعمائة شخص الذين كتبت لهم النجاة من الاجتياح المغولى الذى وقع سنة ٦١٩ هـ. و لا ندرى بعد هذا عنه إلا ما ذكرته المصادر التاريخية من أنه لجأ إلى طوس حيث عكف على الدرس و التأليف . و تفيدنا المصادر: أنه لازم «معين الدين المصرى» طيلة تلك الفترة، فدرس عليه الحكمة، و الفقه، و الرياضيات، و علم الفلك. فمن هو هذا المعين؟ و إلى أية مدرسة فكرية ينتسب؟ ... هذا ما يجب علينا معرفته.

من الواضح ... أن شهرة نصير الدين قد ذاعت فى أنحاء طوس فى تلك الفترة، فأخذ الناس يتحدثون و يش يدون بعلمه و تفوقه فى مختلف العلوم، و أقبل الناس عليه من كل حدب و صوب ينهلون من علمه، و يعبون من معينه، و لم تلبث شهرته أن وصلت إلى أسماع الداعى

##PAGE=167##

الإسماعيلي: «ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور» حاكم قوهستان من قبل الإمام النزارى، علاء الدين م حمد بن جلال الدين حسن، فوجه إليه الدعوة لزيارته فى قوهستان، وهى قصبه من خراسان، فلبى الطلب، ونزل عليه سنة ٦٢٥ هـ، و يبدو أنه أعجب به و بعلمه . فأقنعه بالإقامة عنده، و أمده بإمكانات ساعدته فى مجال التأليف و التحصيل، و هنا لا بد من التساؤل ... لماذا استقدم ناصر الدين القهستاني نصير الدين، و شجعه، و مهّد له أسباب الإقامة بين ظهرائه، إلّا أنّه كان إسماعيلياً، أم لأسباب أخرى فى حين تؤكد المصادر أن النصير كان وقتذاك ضليعا فى العلوم الإسماعيلية حافظا لها، و قادرا على الكتابة و التعبير عنها . و من الثابت أن ناصر الدين لم يقدم لنصير الدين كل هذه المساعدات إلّا بعد أن وثق بقدرته على تقديم الخدمات للدولة، و للدعوة الإسماعيلية، و إعطاء البيانات الصحيحة، و الصور الواضحة فى الكتب و المعاهد و فى مجال المناقشة و الدعاية ... يدلنا على ذلك كتابه الأول «أخلاق ناصرى» الذى كتبه باللغة الفارسية ثم ترجم بعد ذلك إلى العربية فهذا الكتاب يمثل الأفكار الإسماعيلية أصدق تمثيل، و يعطى الدليل على أن نصير الدين كان عريقا و بالغا فى فهمها و التعبير عنها . أمّا القول: بأن نصير الدين قد عدّل بعض فصول و مقدمة هذا الكتاب، و أزال كل ما يدل على إسماعيليته قبل وفاته ببضعة أعوام . فهذا القول مرفوض، و لا يقبله العقل، و لا يوجد ما يدل عليه أو يبرره . فنصير الدين الطوسى الذى بلغ ما بلغ من علو المنزلة سياسياً، و اجتماعياً، و علمياً، و وصل إلى الذروة فى مجال الأدب و العرفان لم يكن مغفلا و لا مجنوناً حتى ينقض اليوم ما كتبه بالأمس، دون أن يكون هناك سبب يوجب ذلك.

... و جدير بهذه الأسطورة أن تضاف إلى الأساطير الكثيرة التى حاكها بعض الناس عنه كقولهم: إن الإسماعيليين قد خطفوه من أحد البساتين، و جاءوا به إلى ألموت حيث ظلّ مدة ثلاثين عاماً سجيناً . و لا أدرى بعد ذلك كيف استطاع هذا الفيلسوف كتابة كتبه و هو فى مثل هذه الحالة القلقة، ثم لماذا لما ذا لم يطالب أهله و عشيرته بالإفراج عنه طيلة هذه المدة؟ و لست أدرى أيضاً لما ذا يلجأ الإسماعيليون لمثل هذه الأساليب، و هل كان ينقص دولتهم العلماء و الفلاسفة و الشعراء و علماء الفلك؟

##PAGE=168##

و نعود إلى سيرة نصير الدين. فالمصادر التاريخية تذكر:

أن ناصر الدين أرسله فيما بعد إلى ألموت بناء على طلب صاحب ألموت الإمام النزارى علاء الدين محمد، و بعد فترة عهد إليه بوظيفة استشارية و هى لا تقل عن الوزارة ... و هنا تبدأ حياته الجديدة فى ظلّ الدولة الإسماعيلية النزارية، و ذكر أيضاً أنه بعد مقتل الإمام علاء الدين محمد، اتخذته ولده الإمام ركن الدين خير شاه وزيراً ثم أناط به مهمة داعى الدعوة و هى أعلى وظيفة فى الدعوة، و كان ذلك سنة ٦٥٠ هـ . و من الواضح أنه ظلّ قائماً بمهمته بنجاح حتى حين اجتياح هولوكو للقلاع الإسماعيلية .. و بعد أن تمّ للمغول القضاء على الدولة النزارية الإسماعيلية التحق نصير الدين الطوسى بهولوكو و اتخذته مستشاراً خاصاً، و منحه الصلاحيات الواسعة.

و فى سنة ٦٥٥ هـ. بدأ فتح المغول لبغداد، و كان نصير الدين الطوسى مع هولوكو، و قد شهد اجتياح بغداد و استباحتها سنة ٦٥٦ هـ. كما شهد أيضاً مقتل الخليفة العباسى المستعصم، و بعد موت هولوكو أصبح نصير الدين وزيراً لولده أبا قاخان، و قد ظلّ قائماً بمنصبه هذا مدة تسعة أعوام و أخيراً:

مات نصير الدين الطوسى فى بغداد سنة ٦٧٢ هـ، و دفن فيها، و كان له من العمر خمسة و سبعون عاماً.

هذا الفصل خصصناه لمناقشة بعض الآراء - و للرد على المزاعم و الأقوال التي دونت عن نصير الدين الطوسي .. و حينما تقرر ذلك ...

نضع أمامنا مبدأ تجاوز ذكر الأسماء و التخصيص . فغايتنا الابتعاد عن المهاترات، و وضع النقاط على الحروف، و الاستعانة بالعقل و المنطق، و هما الاداء الفعالة للوصول إلى الحقيقة.

قيل أن نصير الدين الطوسي كان يقوم بالدراسة في نيسابور عند ما اقتحمها جحافل المغول بقيادة «جنكيز خان»، و إنه تمكن من الفرار، و الوصول إلى موطنه الأول طوس.

هذا صحيح ... و يبدو أن هذه العملية العدوانية أعطت نصير الدين درسا مفيدا و قربت إلى ذهنه ما يقترفه الأقوياء ضد الضعفاء، و كيف تذهب الشعوب الضعيفة طعما للفتاء، و تدوسها سنايك خيول الغزاة؟

و جاءت المصادر التاريخية لتؤكد: أنه اعتزل الناس في طوس، و فاء

##PAGE=169##

إلى ظلال الدرس و التأليف و عكف على مؤلفات ابن سينا، و إخوان الصفاء يعبّ من معينها، و يرشف من رحيقها، و يبني خطوط فلسفته و علومه و حكمته على أسس عقلانية فلسفية قيمة، و قد ظلّ على هذا الحال حتى عمّت شهرته الآفاق، و تجاوزت الحدود، و لكن هل كان نصير الدين راضيا عن أوضاعه و حياته تلك، و هل رأى في هذه الحياة المحدودة، ما يرضى طموحه و تطلعاته، و ما كان ينتظر مستقبله و مصيره؟

إنني على يقين بأن نصير الدين لم يكن راضيا عن أوضاعه، و لا قانعا بما كان يشاهده على الساحة العامة للدول الإسلامية التي كانت تسقط الواحدة إثر الأخرى أمام ضربات المغول و دون أن يتحرك في داخل العالم الإسلامي الضمير و الوجدان فتهب للاتحاد، و الوقوف بوجه الخطر الداهم.

و أتقل إلى موضوع آخر متسائلا عن الأسباب التي كانت تلزم نصير الدين الطوسي باتباع نهج ابن سينا الفلسفي، على الرغم من بعد المسافة الزمنية بينهما، و لما ذا اختار كعلم و راح يسير على دربه، و يتمثل به، و يقلده في أفكاره، و دراساته، و أعماله، و كلنا يعلم أن ابن سينا لم يكن سوى تلميذ مجدد في مدرسة «إخوان الصفاء».

إننا نعتقد بوجود رابطة روحية بين أتباع هذا النظام الفكري الذي كان يغزو العقول في تلك العصور البعيدة، و هذه الرابطة ألزمت ابن سينا بتقليد إخوان الصفاء، و السير على دربهم ... فكان موسوعيا مثلهم، و جاء نصير الدين ليكمل المسيرة.

و لو أن نصير الدين الطوسي كان ينحدر من أسرة سنيّة لذهب إلى بغداد و أقام فيها في ظل خلفاء بني العباس، بعد اجتياح المغول لنيسابور، و لو كان شيعيّا اثني عشريّا لما تردد في الذهاب إلى الحلة أو النجف الأشرف، أو الكوفة حيث الأئمة و الأسياد و المجتهدون من هذه الجماعة، و لكن نصير الدين لجأ إلى الإسماعيلية، لأن هذا اللجوء يحقق رغباته و أمانه، و يقربه إلى خدمة العقيدة التي رضع لبانها صغيرا، و رعاها كبيرا.

أجل ... لم تطب له الإقامة في طوس بل ظل قلقا تصطرع في رأسه الأفكار و يشكو من العزلة و الفرقة، و هذا ما جعله يهرع إلى قهستان حيث تطيب له الإقامة في ربوع العقيدة التي اعتنقها و نهل منها.

##PAGE=170##

و لا بد من التساؤل أخيرا كيف أن حاكم قهستان طلبه، و رحّب به، و أكرمه دون سابق معرفة، و كيف بادر إلى ذلك، ما دام يعلم أن الزائر الكريم يختلف عنه في المذهب، و لا يمكن الاستفادة من علمه و نشاطاته الأدبية، ثم لما ذا خصّه ناصر الدين دون سائر العلماء في ذلك العصر بهذا التقدير، طالما أنه بعيد عنه في أفكاره و عقيدته ...

ففي مثل هذه الحالة لا يمكن للدعوة الإسماعيلية جنى أية مكاسب منه.

إننا لا ندري كيف نفسّر هذه الرموز؟! كما إننا نقف عاجزين عن إعطاء أى تفسير لعملية الخطف التي أقدم عليها اللصوص الإسماعيليون عند ما أقدموا على خطفه من أحد البساتين، و جاءوا به إلى حا كم قهستان؟ و لماذا خصوا نصير الدين الطوسي بهذا الخطف، و لم يفكروا بخطفه غيره من العلماء العباقره، و هم أكثر من واحد، و هل تمّت هذه العملية بناء على حاجتهم إلى رجال فكر يتولون التدريس في مدارسهم، أو تأليف الكتب عن عقيدتهم و فلسفتهم، و هل حققوا بهذه القرصنة انتصارات و فتوحات كانوا يحلمون بها؟ فنحن لم نسمع و لم نقرأ عنهم أنهم كانوا يخطفون العلماء، و يقودونهم إلى السجن، أو كانوا يجبرونهم على اعتناق مذهبهم، أو الكتابة عن عقيدتهم.

إن النظام الفكرى الإسماعيلي قام على العقل، و المنطق، و حرية الفكر، و قد مرّ معنا أن انتصاراتهم الفكرية التي حققوها في الأقطار الإسلامية لم تكن تتم إلّا عن طريق استيعابهم للعلوم السائدة في عصرهم، و لتفوقهم على أقرانهم، أو بناء على مبدأ الإيمان و الإقناع.

إذن فمثل هذه المزاعم لا تستحق التوقف عندها، أو إعارتها أى اهتمام، لأنها ليست سوى خرافة نضعها على بساط البحث لكى ندلل و نشير إلى هذا التردى الفكرى الذى وصلنا إليه، و من الواضح أن كتاب نصير الدين الطوسي القيم «أخلاق ناصرى» الذى كتبه باللغة الفارسية، ثم ترجم فيما بعد إلى العربية يفسّر لنا أموراً كثيرة . فهذا الكتاب الفلسفى كتبه نصير الدين عند ما أراد أن يلبي طلب حاكمها الإسماعيلي «ناصر الدين»، و من المؤكد أن نصير الدين سجل فيه آراء إسماعيلية أصيلة، و لكن النسخة الأصلية لهذا الكتاب لم يعثر عليها حتى الآن و لو أنها وصلت إلينا لعرفنا الكثير الكثير عن نصير الدين،

##PAGE=171##

و كنا وقفنا على مدى اطلاع هذا الفيلسوف على العقائد الإسماعيلية، و هو فى هذه السن المبكرة.

و من الغريب جدا أن لا يظهر من هذا الكتاب إلّا النسخة المحرّفة التي ذكروا أن نصير الدين قد غير مقدمتها و فصولها، بعد أن هجر الإسماعيلية، و التزم بمبدأ الاثنى عشرية الشيعة، و هذا يدفعنا تا نية إلى رفض مثل هذه القصة، و نحن نجلّ الفيلسوف نصير الدين الطوسي عن الانحدار إلى مثل هذه المواقف المذهلة، و هو الوزير و المستشار لأكبر قادة دول العالم

فى تلك الفترة .. أو أن يجعل من فلسفته و علمه سلعةً تباع و تشتري فى أسواق المزاد، أو مادةً تتغير و تتبدل بطفرة عين حسب رغبة العلماء و أهواء رجال الدين.

إن بعض المصادر التاريخية تذكر:

أن نصير الدين وضع فى كتابه «أخلاق ناصرى» زبدة الآراء الإسماعيلية الفلسفية، و ذلك وفاء لسيدته، و المنعم عليه «ناصر الدين» ... و هذا ما يحملنا على القول مرة ثانية بأن استيعابه لهذه العلة و هو فى هذه السن يعنى أن دراسة الإسماعيلية قد تيسرت له و هو فى سن الفتوة . فمن هو المعلم الذى لقنه أصول هذه الفلسفة و فروعها و مبادئها؟ إننا أمام احتمالات ثلاث. فإما أن يكون والده «و هذا ما نرجحه» أو خاله، أو استاذة الثالث «معين الدين المصرى».

إن دراسة التعاليم الإسماعيلية، أو الكتابة عنها ليست مهمة سهلة، و لا تتم بطفرة عين . فلا بد لكل راغب فى تعلمها، من اللجوء إلى أحد الأساتذة الضالعين بشرح النصوص، و تأويل الآيات، و دراسة الفروع و الأصول للعلوم الطبيعية، و لما يعرف بالماورائيات، و غير ذلك . من هنا كان على الباحثين المعاصرين أن يعطوا هذه الناحية ما تستحقه من اهتمام ... إذ أن فى الوصول إلى معرفتها جلاء الواقع، و إظهار حقيقة هذا الفيلسوف الكبير، و مذهبه و انتمائه .

إننى لا أدرى ... كيف أن النسخة الأصلية لكتاب «أخلاق ناصرى» قد فقدت، و كيف أن الأيدى لم تبق لنا إلا النسخة المحرقة التى زعموا أن نصير الدين قد عدلها، و أزال منها كل ما يمت إلى الإسماعيلية بصلة.

فيا لها من كارثة كبرى أصابت الفكر العربى و الإسلامى فى

##PAGE=172##

الصميم ... بل يا لها من مصيبة طغت على العقول فحرمتها لذة التطلع إلى الخير و الحياة و الجمال، و قادتها فى المنعطفات الوعرة المليئة بالحقد، و الجهل، و التعصب . إننا نشعر بأننا فى وضع أقل ما يقال فيه أنه متجرد عن كل ما يسمّى فضيلة، أو محبة، أو سلام.

فعلى رسلكم أيها الناس ... قليلا من المنطق و العقل . فنحن فى عصر الحضارات و الاكتشافات و حرى بنا أن نرجع إلى ضمائرنا و نناشدها العمل للتألف و المحبة، و الوئام، و قد يكون أن الأوان للخروج من مستنقع الرواسب العقلية القديمة، و القرون السالفة التى خلفتها الأيدى الغريبة لتجعل منّا أمة متنابهة متناحرة .. تخوض المعارك، و تفتعل الوقائع، و تضع الخطأ مكان الصواب، و التحريف مكان الصدق فى سبيل قضايا تافهة، و كأننا لا نعلم بأن عملنا هذا يسىء إلى أعلامنا و مفكرينا فى قبورهم، و خاصة عند ما نحرف أقوالهم، و نخترع المزاعم و الأساطير عنهم، مبتعدين عن القضية الإنسانية الكبرى التى ندعى زورا و بهتاناً بأننا من دعائها و بناها.

إن علماء الإسماعيلية لم يكونوا يوماً من الأيام دعاءً هدم و تخريب و هذا هو التاريخ يشهد بأن هذه المجموعة لم تكن سوى فئة صالحة مجتهدة وضعت نصب أعينها إصلاح المجتمع و إخراجة إلى حيز النور على أسس نبيلة و خيرة لا تسيء إلى تعاليم الإسلام، و لا تخرج عن نطاق قواعده و أصوله، فلماذا هذا الجحود و النكران؟، و لماذا اعتبار هؤلاء العباقرة من اللصوص الدائبين على أعمال خطف العلماء و الإتيان بهم إلى السجون لإجبارهم على اعتناق مذهبها و الكتابة عنها.

فالمؤرخون الذين كتبوا عن نصير الدين ذكروا:

إنه خلال إقامته في «ألموت» وضع أقوم الكتب الفلسفية، والعلمية، والفلكية، أو بالأحرى موسوعته الفكرية التي جاء تصنيفها وترتيبها موافقا لموسوعة «ابن سينا» فهل قابلنا، أو كلفنا أنفسنا مقارنة موسوعة نصير الدين بموسوعة ابن سينا، و هل رجعنا بعد هذا إلى موسوعة «إخوان الصفاء» و درسنا ما تحتويه من علوم، و فلسفة و فنون؟ إن شيئا من هذا لم يخطر ببال أحد منا، و لا أدري متى تكون هذه الموضوعات موضع تفكيرنا و اهتمامنا.

##PAGE=173##

أجل ... لقد عاش نصير الدين الطوسي مدة تقارب الثلاثين عاما في ألموت عاصمة الدولة الإسماعيلية النزارية في بلاد فارس، فرافق نهضتها الفكرية، و ساهم في بناء هذه النهضة العلمية التي عمّت الآفاق . أما بالنسبة للسياسة. فإن نصير الدين عايشها إبان قوتها، و امتدادها و علو مكانتها، و هيبتها أى يوم كانت شوكة في عين الدولة العباسية، و السلجوقية و غيرهما من الإمارات و الدول الكبرى، و من الواضح أن هذه الدولة لم تتخذ أى موقف معاد لأحد، و لا خطر في بال قادتها في يوم من الأيام الاعتداء على أية دولة إسلامية، أو التدخل في شؤونها .. و لكنها اكتفت برد الهجمات، و الدفاع عن وجودها ... إنها فترة شباب تلك الدولة الفتية ذات المكتبة التي ضمت مليون ا و نصف مليون مجلدا في مختلف العلوم و الفنون، هذا فضلا عن المراصد، و الاسطرلابات الفلكية و التقاويم.

لقد شهد نصير الدين الطوسي سقوط هذه الدولة على أيدي المغول ...

شهد موآمرة العباسيين، و تشجيعهم للمغول، و وضع الإمكانات المادية و المعنوية بتصرفهم للقضاء على دولة اعتبرتها أخطر من المغول. و شهد أيضا مقتل «إمام» هذه الدولة، و قائدها الروحي «ركن الدين خبير شاه» و إبادة بعض افراد أسرته. فماذا ترك هذا المشهد في نفس هذا الفيلسوف العبقري؟ هذا ما سنجيب عنه في الصفحات التالية .

رحمك اللهم ... فالدنيا تكاد تضييق علينا رغم سعتهما نحن أبناء هذه الطبقة من الناس و خاصة عند ما نذكر هذه المأساة الإنسانية ...

مأساة ألموت .. و ما تلاها من مآس على مسرح بغداد.

سقوط دولة ألموت

ليس جديدا، و لا غريبا إقدام الطاغية هولاءكو على قتل الإمام ركن الدين و بعض أفراد أسرته . فهذا الظالم المجرم عريق في الغدر، و اقتتراف الجرائم ... و لكن الجديد إقدام العباسيين على تقديم العون للطاغية الذي لم يكن يتجرأ على فعلته الشنعاء إلّا بعد أن وثق من تمزق الصف الإسلامي.

إنها مأساة ما زالت تتكرر، و يذهب ضحيتها الأبرياء من هذه الأسرة العريقة التي تنحدر من بيت النبوة الكريم، لا لشيء إلّا لأنها عملت و تعمل في سبيل الخير و إصلاح المجتمع، و إخراجهم من عالم الظلام إلى حيث النور و الحرية و الانطلاق.

##PAGE=174##

إن نصير الدين الطوسي الذين شهد مأساة ألموت، ومقتل إمامه ركن الدين، وسقوط الدولة التي ساهم بخدمتها، وعلى رفع مستواها ... لم يكن بالرجل المغفل الجاهل الذي تفوته معرفة الأسباب والدوافع، ومن حرص، وشجع، وبارك، وساهم ... وهم من غير المغول طبعاً .. إنهم أولئك الذين ساءهم قيام هذه الدولة الفتية في هذه الجبال الشاهقة ذات الحصون، والقلاع المنيفة، وكأني بهم لم يقدموا على ذلك إلا بعد أن عجزوا عن تدمير هذه الدولة، وفاتهم أن هذا السلاح ذو حدين ولا يلبث أن ينحرف ليحز رقابهم.

لقد بذل نصير الدين الطوسي كل ما يمكنه لمنع هبوب العاصفة الهوجاء، وحاول أكثر من مرة تهدأ عواطف المغول النائرة، وكانت خطته تقضى بعقد هدنة ثم معاهدة سلام، ولكن طموح المغول، وبعض الأخطاء التي وقعت، فرضت الحرب في نهاية المطاف .. وكان ما كان.

فالمغول ... كانوا يتطلعون إلى أبعد من ألموت، لأنهم كانوا يخشون من قوة هذه الدولة المنظمة المحاربة التي كانت تقف في وجههم، وتشكل الخط الدفاعي الأول في وجه أي اندفاع نحو بغداد، والبلاد الإسلامية الأخرى، ولم يكشفوا القناع عن وجوههم، أو يتقدموا إلى المجال، إلا بعد أن تأكدوا من ترحيب العباسيين، واستعدادهم للمساهمة وبذل كل ما يملكونه في سبيل إسقاط هذه الدولة الإسماعيلية.

لم تتم جهود نصير الدين التي بذلها لإنقاذ الوضع، فوقع ما كان يخشاه، وسقطت الدولة التي كان يعيش في كنفها، وقتل الإمام الذي رعاها، وعطف عليه كما قتل الأبرياء من الأطفال، والنساء، والشيوخ، وذهبت المكتبة ذات المليون والنصف مجلد طعاماً للنيران. فاتخذ من كل هذا مبدءاً عاماً اضطره إلى الاستجابة لطلب هولاء الذي دعاه إلى التعاون معه. فهولاء في تلك الفترة كان بحاجة إلى مستشار تكون له الخبرة بالشؤون السياسية ويكون له سعة اطلاع ومعرفة.

وتذكر المصادر أن موافقته جاءت مشروطة، وتقضى بإعادة الإسماعيليين الذين شردوا من قلاعهم وحصونهم، وذهبوا في طول البلاد وعرضها كلاجئين لا يملكون من حطام الدنيا ما يسد رمقهم أو يستر أبدانهم.

##PAGE=175##

إنها صورة استدرت دموع هذا الفيلسوف، وحركت عواطفه، وجعلته لا يفكر إلا بالانتقام لقد كانت صورة حزينة متوهجة بنار العاطفة لا تغيب عنه، ومشهد يعكس الفاجعة التاريخية المؤلمة، وتجعل الإنسان مهما امتلك من روية واتزان وكأنه في عالم من الضياع، وفقدان الإدراك.

ويستجيب نصير الدين بعد فترة من التفكير لطلب هولاء، واضعاً نصب عينيه باديء ذي بدء إنقاذ من يمكن إنقاذه من الإسماعيليين الأحياء الذين شردوا من مواطنهم، وقد ذكرت بعض المصادر أنهم تطوعوا في جيش هولاء الذي اندفع إلى بغداد، حاملين فكرة النار والانتقام وهذا لم يتحقق، ونستبعد حصوله.

لقد بلغت بعض المصادر التاريخية باتهام نصير الدين بالخيانة، واعتبرت قبوله منصب الوزارة لهولاء خيانة كبرى، ونحن نقف من هذا موقفاً مختلفاً ونقول:

إن نصير الدين هدف من وراء وزارته لهولاكو إلى إنقاذ من يمكن إنقاذه من الإسماعيليين أما المشاركةً باجتياح بغداد، و تدمير مكتبتها، و قتل الخليفة العباسي «المستعصم» فقد كان خارجا عن نطاق إرادته.

لقد كان حلم المغول بالإستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية و استباحتها راود جفونهم منذ عهد جنكيز خان، و لكن تحقيق هذا الحلم كان يتطلب إزالة الخط الدفاعي الأول، و هو من قلاع الإسماعيلية التي تولى دولة الموت، و كانت تقف بوجههم، و منعهم من التقدم، و هذا ما عملوا له، و تفادوه.

إن تفريق الصفوف، و ضرب كل دولة على حدة ... خطة اعتمدها هولاكو لتحقيق رغباته و بالفعل فقد نجحت الخطة، و وجدت التربة الصالحة لزرع الأفكار، و خاصة لدى العباسيين الذين شجعوهم على مهاجمة القلاع الإسماعيلية، و وضعوا تحت تصرفهم الأسلحة و الإمكانيات و المدربين و المتطوعين و الأموال ... و أنه لمن المؤسف حقا أن لا يسجل التاريخ على صفحاته هذه الأفعال، بل و من الظلم و التجنى أن تمر هذه الوقائع دون تعليق أو توبيخ أو تنديد.

إن مأساة الموت لم يشهد التاريخ مثلها، و لم يعرف أقسى، و لا أعنف منها، سوى مأساة بغداد التي لم تكن لتقع، لو أن العباسيين

##PAGE=176##

اتحدوا مع دولة الموت، أو على الأقل لو انهم وقفوا موقف الحياد.

جاءت المصادر الإسماعيلية عن تلك الفترة قليلة و نادرة، و أعتقد أن القارىء الكريم يذكر بأننا أشرنا إلى تدمير المكتبة الإسماعيلية في الموت، و هي المرجع الوحيد لكل تاريخ عن تلك الفترة الغامضة ..

فهنالك مؤلفات نصير الدين، و هناك غيرها من المؤلفات القديمة القيمة، و بالتأكيد لم يسلم من تلك الآثار إلا النسخ التي كان يمتلكها أفراد يسكنون في مناطق بعيدة، و هذه النسخ شاعت أخيرا، و تداولتها الأيدي، و أصبحت فيما بعد عرضة للنسخ و التحريف و التلاعب، و هكذا ضاعت الحقيقة في طياتها.

هناك مصدر ذكرناه في أحد كتبنا «أربع رسائل إسماعيلية» و قد جاء على لسان الداعي الإسماعيلي «شمس الدين بن أحمد الطيبي» الذي كان معاصرا لنصير الدين، فقد ذكر في رسالته الإسماعيلية «الدستور» بأنه سمع كل ما ورد فيها من أقوال من الداعي الإسماعيلي الكبير «نصير الدين الطوسي» و الداعي «شمس الدين الطيبي» و كان شاعرا و تلميذا لنصير الدين ... و هناك كتاب إسماعيلي مخطوط يسمّى «فصول و أخبار» لمؤلفه «نور الدين أحمد» من القرن السابع للهجرة يذكر فيه ما خلاصته:

« نصير الدين بن محمد ... الحكيم الصادق ... داعي الدعوة ... ثقة الإمام ... علم الدين . و في مكان آخر يذكر هذه الأبيات و يقول: إنها من نظم نصير الدين بن محمد داعي دعاء مولانا علاء الدين ... تاج الحكماء .. فخر الأمة ... كبير الوزراء ... و هذه هي الأبيات كما وردت:

وودّ كل نبيّ مرسل و ولي

لو أنّ عبداً أتى بالصالحات غدا

و صام ما صام صوام بلا ملل
و صار ما قام قوام بلا كسل
و طار في الجوّ لا يأوى إلى أحد
و غاص في البحر لا يخشى من البلبل
و عاش في الأرض آلافا مؤلفة
و معفى من الذنب معصوما من الزلل
ما كان في الحشر يوم البعث منتف
عا إلّا بحبّ أمير المؤمنين على

و جاء في مكان آخر:

«نصير الدين بن محمد» ... خدم الدعوة في عهد الإمامين: علاء الدين - و ركن الدين، و أتقذ علم الإمامة و نورها و وريثها
«شمس الدين بن ركن الدين» من نيران «المغل» و ذلك كما فعل «الحسن بن الصباح» بإتقاده

##PAGE=177##

الإمام «علي الهادي»، و شمس الدين هو الذي اختتم عهد الظهور، و استأنف عهد الستر، و من المعلوم أن نصير الدين كان
له خادما و داعيا و كفيلا ... ينهل من معينه، و يستمد منه القوة، و يهوى له السبيل للاستتار عن العيون و الأرصاد و الأعداء.

و جاء أيضا في هذا الكتاب:

قيس بن منصور الدادخي ... شاعر، و داع إسماعيلي من قرية «دادخ» القريبة من حلب .. التحق بقلعة «الموت» و أنشد
الإمام علاء الدين قصيدته المشهورة : [قدر الإمام الفاطمي معظّم]. درس في الموت على داعي الدعاء «نصير الدين بن
محمد» و عند ما اجتاحت «المغل» القلاع الإسماعيلية هلكت مع من هلكت من المحاربين الإسماعيليين. رحمه الله.

أترك التعليق على هذه المصادر التاريخية الإسماعيلية للباحثين و للمنصفين الذين يهتمهم الوصول إلى الحقيقة من جهة، و
للقرء الكرام، و قد وضعنا أمام أعينهم الصورة الواضحة لحياة نصير الدين ... هذه الصورة التي جاء فيها ما يؤكد بأن هذا
الفيلسوف لم يتخلّ عن إسماعيليته رغم النكبة الكبرى، بل ظلّ على عهده و ولائه للإمام «شمس الدين بن ركن الدين»
الذي تذكر المصادر الإسماعيلية أنه أنقذه، و انتشله من برائن المغول، و وفرّ له كل أسباب الحياة، و الاستمرار في دعوته
السريّة حتى آخر يوم من حياته . و من المعلوم أن الإمام شمس الدين استقرّ في «قونية» و قام بعدة رحلات إلى قلاع
الدعوة في بلاد الشام للإشراف على أتباعه الذين ظلّوا صامدين في ديارهم، و كل هذا كان محاطا بسياج كثيف من الكتمان
و السرية المطلقة.

إنه عهد بعيد و هي فترة تاريخية غامضة، تخللتها حروب و اجتياحات و غزوات و انقلابات غيرت جغرافية البلدان
الإسلامية، و أزلت عروشها و خلفاء و أمراء ... من هنا فإن كل ما كتب و يكتب عن هذه الفترة يجب أن يكون مستندا إلى
الوعيّ و العقل، و الضمير، و إلى ما يتطلبه الواقع و الحقيقة المنشودة.

إننا لا نستطيع إحصاء كل ما كتب عن نصير الدين الطوسي من مقالات، و بحوث، و كتب، و لا أدرى بعد هذا ما إذا كنا ملزمين بإقرار كل ما كتب، أو إننا نطمئن إلى نزاهة القصد، و قد تبدو أمامنا المتناقضات و الانحرافات. و من جهة أخرى .. فإنه من الصعوبة

##PAGE=178##

بمكان مناقشة كل ما كتب عن نصير الدين، كما إنه من العسير جدا أن نصل إلى حقيقة هذا الفيلسوف إلّا على ضوء المصادر الإسماعيلية، ما دمنا غير متجردين بأفكارنا ... و غير ملتزمين بمبدأ الخروج من القيود التي تكبلنا، و تجربنا على الرجوع إلى عهود الظلام ... عهود الرواسب الكامنة في نفوسنا من بقايا الأزمنة البعيدة، و ما دام الوضع سيستمر، فنحن سنبقى ندور في الحلقة المفرغة.

و نحن لا يهمننا أن يقول البعض إن نصير الدين الطوسي قد اختطفه الإسماعيليون من أحد البساتين، أو إنهم سجنوه في قلعة «الموت» و أجبروه على تأليف الكتب الفلسفية التي تنحو نحو الإسماعيلية، و ذلك تحت الضغط و الإرهاب، و إنه بعد سقوط دولة الموت الإسماعيلية التي عاش في ظلها قرابة ثلاثين عاما، أعلن عن توبته، و فاء إلى رشده، و غير كل ما كتبه، و إنه انحاز إلى عقيدته الأساسية التي هي الشيعة الإثنا عشرية.

أجل ... إن كل هذا لا يهمننا، بقدر ما يهمننا اتهام هذا الفيلسوف الكبير بالخيانة و الزندقة و الانحطاط الخلقى في وقت اعتبره الغرب و الشرق من عظماء الفلاسفة، و الرياضيين، و الفلكيين الموسوعيين العرب بعد ابن سينا . أمّا محاولة إبعاده عن دائرة العلم، و الفلسفة، و السياسة، و القول بأنه من المشائخ المتمزتين، فهذه مسألة فيها نظر، أو هي اسطورة من الأساطير التي نرى كثيرا عنها على صفحات التاريخ.

فكيف نصدق أن هذا الفيلسوف قد عدم رشده، و وصل إلى هذا الحد من الانحطاط، الخلقى و التنكر لأصله، و لعقيدته ... و على الفرض ... أنه وصل إلى هذه المرحلة بعد ذلك العمر الطويل . فأين مؤلفاته و رسائله التي تثبت تنكره للمبدأ الإسماعيلي، و للدولة التي عاش في ظلها هذه المدة الطويلة من حياته ... فنحن حتى الآن لم نعر على أي نص لنصير الدين في نقد الفلسفة الإسماعيلية أو الرد عليها، و كل ما نراه في أق واله هو الالتزام التام بالمبدأ و النهج و الأسلوب الذي تبناه، و قرره، و سار عليه أستاذه الكبير ابن سينا، و هذا المبدأ الفلسفي، و العلمي، و الموسوعي هو ما التزم به و مهّد له إخوان الصفاء الإسماعيليون.

##PAGE=179##

إن «التقية» مبدأ عام طبّقه الإسماعيليون في كافة ظهوراتهم و جولاتهم، و قد سار عليه دعواتهم، أيضا في جميع مراحل حياتهم و عهودهم، كما أن «الستر» مبدأ اختصّ به أئمة الإسماعيليين منذ قيام دعوتهم، و نحن نرى نصير الدين الطوسي، يلتزم بهذا المبدأ بعد سقوط دولة الموت الإسماعيلية.

فهل في هذا التدبير السياسي رجوع عن الدين، و هبوط في الأخلاق، و خروج عن المبادئ؟ أم أنه تدبير اقتضته سياسة هولاء العلياء، و مبدأ المغول الفاتحين الذين طبقوا خطتهم السياسية القائلة: «فرّق تسد».

و تنتقل إلى قصة الوزير العباسي «مؤيد الدين بن أحمد العلقمي» الذي تسلّم الوزارة بعد عامين من مجيء الخليفة «المستعصم» للخلافة أي سنة ٦٤٢ هـ. و المستعصم كما هو معلوم هو ابن المستنصر بالله العباسي الذي جرى في عهده اندفاع «جنكيزخان» و جيوشه المغولية نحو بلاد فارس ... و من المؤكد أن هذا الفاتح لم يتمكن من تحقيق الأحلام المغولية كلها ... فجاء حفيده هولاكو و أكمل كل ما بدأه . و لا بد من مناقشة الأقوال التي تزعم بأن نصير الدين كان على اتصال مباشر بابن العلقمي قبل اجتياح هولاكو للقلاع الإسماعيلية، و أنه في تلك الفترة أرسل قصيدة في مدح الخليفة العباسي المستعصم معلنا فيها رغبته في الذهاب إلى بغداد، و العيش فيها في ظل الدولة العباسية ... إن هذا القول مرفوض من أساسه، و لا يمكن تصديقه، و لا يتفق مع مبدأ نصير الدين و عقيدته الإسماعيلية، حتى و لا مع اثني عشريته إن صحت و كانت حقيقة واقعة.

و تظهر القصة في الحالتين و كأنها ترتدى ثياب الخيال و الأساطير ...

قد يكون نصير الدين قد قام باتصال مع العلقمي بعد سقوط الدولة الإسماعيلية في «الموت» و قد يكون في هذا الاتصال خلال تلك الفترة مصلحة لهولاكو، و ما رافق ذلك من إغراءات، و أموال، و مواعيد، و قد يكون أيضا للإبقاء عليه في منصبه لقاء تعاونه و استعداده لتقديم الخدمات.

أمّا مقتل «ابن العلقمي» فلا أجد له تفسيراً، و قد يكون وراء إخفاء الأسرار و دفن المومرات، و الوثائق، و الرسائل التي حصل عليها من

##PAGE=180##

نصير الدين بالإبقاء عليه في منصبه لدى المغول، و قد يكون وراءه صورة عن عملية مقتل الخليفة العباسي المستعصم التي ذكروها بصور مختلفة. أمّا القول بأن ابن العلقمي كان إسماعيلياً، أو جاسوساً يعمل لمصلحتهم في البلاط العباسي فهذا لا يوجد ما يؤيده.

ظلّ نصير الدين بعد اجتياح بغداد سنة ٦٥٦ هـ. وزيراً لهولاكو - و لكنه خصص القسم الأكبر من حياته للأعمال العلمية.

فأقام الحلقات الفكرية، و أسس المجامع، و سهر على العلماء، و قرّبهم، و منحهم المساعدات التي تكفل الأستمرار و البقاء، كما عكف على تأسيس المكتبة الكبرى في «مراغة» و زوّدها بالكتب التي سلمت من مكتبة بغداد، و أقام المرصد المعروف باسمه بالإضافة إلى أعمال أخرى مفيدة.

و بعد موت هولاكو تسلّم ابنه «أباقاجان»، فأبقى نصير الدين قريباً منه، و يروى أن تأثيره عليه كان أكثر من تأثيره على والده هولاكو، و قد أمضى في خدمته تسعة أعوام عمل فيها على الإصلاح، و إعادة الثقة و الأمان إلى الناس، و إيجاد جو من الهدوء و الاستقرار، ممّا هبّاً لنصير الدين مناخاً ملائماً للعودة إلى أجواء العلم و الدرس و التأليف . و الإشراف على مكتبة «مراغة» و تزويدها بالكتب الإسلامية، خوفاً من إتلافها و ضياعها، و قد ظلّ قائماً بأعماله، جادا في طلب العلم حتى أدركته الوفاة في بغداد سنة ٦٧٣ هـ. و كان له من العمر خمسة و سبعون عاماً.

و ذكر التاريخ:

أن جثمانه شيع في موكب كبير وسط جلال الناس و احترامهم و تقديرهم فكانت جنازته مظاهره كبرى دلت على ما كان يتمتع به من مكانة، و تقدير، و احترام.

هذا ... و يحدثنا القمي نقلا عن ابن المطهر:

أن نصير الدين كان أشرف من شاهدناه في الأخلاق، و قد يكون للدور السياسي الكبير الذي كان يضطلع به بعد فتح المغول لبغداد أكبر الأثر في ترك الآثار للناس عن شخصيته الكبرى، و سلوكه مع أعدائه و أصدقائه.

##PAGE=181##

و ذكره مؤيد الدين العرضي في مقدمته لكتابه «شرح آلات مرصد مراغة و أدواته» بقوله:

بإشارة من مولانا المعظم، و الإمام الأعظم، العالم، الفاضل، المحقق الكامل، قدوة العلماء، و سيد الحكماء، و أفضل علماء الإسلاميين بل و المتقدمين، و هو من جمع الله سبحانه فيه في كافة أهل زماننا الفضائل و المناقب الحميدة، و حسن السيرة، و غزارة العلم، و جزالة الرأي، و جودة البديهة، و الإحاطة بسائر العلوم . فجمع العلماء إليه، و ضمّ شملهم بوافر عطائه، و كان بهم أرف من الوالد على ولده ... فكنا في ظله آمنين، و برؤيته فرحين، و هو المولى نصير الملّة و الدين «محمد بن محمد الطوسي» أدام الله أيامه، فلله أيام جمعتنا في خدمته، و أبهجتنا بفوائده و إن كانت قد أبعدتنا عن الأوطان و العشيرة و الولدان . فإن في وجوده عوضا عن غيره، و من وجده فما فاتته شيء، و من فاتته فقد عدم كل شيء، فلا أخلانا الله منه، و أمتعنا بطول بقائه». و شهادة العرضي هذه ليست وحيدة، و إنما جاءت متفقة و شهادات أخرى، و منها ما ذهب إليه «ابن كثير» الذي وصفه بالعقل و الفضل، و كرم الأخلاق، و هكذا فعل «ابن الفوطي» ... و ممّا يدل على سمو أخلاقه و فضله، و عطفه، أنه بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم أخذ أحد أولاده المسمّى «مبارك» و وضعه في كنفه ثم أخذه فيما بعد إلى «مراغة» حيث آمن له الحياة، و زوجه بعد ذلك حتى أنه أنجب ولدين و عاش حياة سعيدة في ظله و تحت وصايته . و هكذا فعل بعد مقتل الإمام الإسماعيلي «ركن الدين» فإنه بادر إلى إنقاذ أحد أولاده «شمس الدين» و هو الوحيد الذي نجا من المذبحة، فسهل له الذهاب و الإقامة في قونية فترة طويلة ثم نقله بع ذلك إلى «أنجدان» حيث ظل قائما بمهمته كإمام للإسماعيليين، و عند اجتياح المغول لبغداد لم يقف مكتوف الأيدي، بل بادر إلى الاستحصال على أمر من هولاكو باستثناء المسيحيين و الشيعة، و الفئات الغريبة عن الاستباحة، و هكذا بالنسبة للعلماء، و لرجال الفكر و الدين، و من هم في بغداد من الوافدين الأجانب».

و عند ما نستعرض أسماء الأساتذة الذين درس عليهم في صغره، و في كبره يجب أن نضع في مقدمتهم والده الذي ذكر بأنه لم يحتضنه ابنا بل تلميذا . فدرس عليه المبادئ العامة للفكر الإسلامي، و قد شاركه في هذه المهمة خاله «فاضل بابا المعروف بأفضل الكاشي» الذي أجمعت المصادر على القول بأنه كان من الفلاسفة الكبار الذين ضربوا بسهم وافر في مختلف العلوم في ذلك العصر و خاصة الفلسفة كما ذكرنا ذلك قبلا.

و قد ذكر: أن من بين أساتذته الذين درس عليهم «سالم بن بدران

##PAGE=182##

المازنى المصرى» و «محمد بن أبى بكر إبراهيم النيسابور المعروف بالشيخ العطار» و «أبو السعادات الأصفهاني» و «كمال الدين بن يونس الموصلى» و غيرهم. و ذكر أيضا:

أنه درس الفقه بعد وصوله إلى بغداد على أساتذة آخرين، و كان له من العمر آنذاك سبعون عاما. و هذا الحديث يحتاج إلى أكثر من برهان و دليل .. لأن نصير الدين الطوسى بعد هذا السن لم يكن بحاجة إلى معلمين، و لا إلى الاستزادة من العلوم . أمّا أستاذه الذى طبعه بطابعه فهو الشيخ الرئيس ابن سينا، و من قبله إخوان الصفاء و خلّان الوفاء، فلهؤلاء الفضل عليه فى كل ما اغترفه من علوم و معارف و فلسفة، و حكمة، و أدب.

و نعود إلى تلاميذه لنقول : بأنهم أكثر من أن يحصّيهم عدد، و جميعهم لازموا فى «الموت» و أخذوا عنه العلوم الإسماعيلية، و قد يكون بعضهم سقطوا شهداء على أرض المعركة إبان اجتياح المغول لدولتهم الإسماعيلية، و يدخل فى عدارهم: شمس الدين الطيبى، و قيس الدادىخى و غيرهما ... أمّا الذين أخذوا عنه العلوم، و لم تستطع المصادر تحديد انتمائهم ... فمنهم: ميثم البحرانى، و ابن المطهر الحلى، و عبد الكريم بن أحمد بن طاووس، و قطب الدين الشيرازى، و نجم الدين على «ديبران» و غيرهم ... و فى الحقيقة فإن أبرز تلاميذه هم أولاده : صدر الدين، و أصيل الدين، و فخر الدين، و قد ذكر أنه أدبهم و استخلفهم فيما بعد على أوقاف العراق.

إننا لا نذهب بعيدا عند ما نقول: بأن خدمات نصير الدين الطوسى للفكر تجلّت فى إقدامه على إنشاء مكتبة «مراغة» و قد كان هدفه من ذلك حفظ التراث العربى و الإسلامى خاصة بعد تدمير مكتبتى «الموت» و بغداد، و قد ذكر أنه استحصل لها على العديد من الكتب و المجلدات من بلاد الشام و فارس، و قد كان قد أوكل «ابن الفوطى» بالإشراف عليها و تنظيمها. أمّا المجمع العلمى الذى أقامه، و ضمّ إليه أساطين العلماء و الفلاسفة فى ذلك العصر، فقد كان أول مجمع يقام فى البلاد الإسلامية فى ذلك العصر، و عند ما نعدّد أعضائه و نستعرضهم يتجلّى لنا أهمية هذا المجمع ... و هم:

شمس الدين بن محى الدين «ابن عربى»، و كمال الدين (ابن

##PAGE=183##

الفوطى)، و ركن الدين (الاستربادى)، و نجم الدين (الأسطربادى)، و كمال الدين (الايجى)، و نجم الدين (البغدادى)، و فخر الدين (اخلاطى)، و حسام الدين (الشامى)، و شمس الدين (الشيروانى)، و أصيل الدين بن نصير الدين (الطوسى)، و شقيقه صدر الدين، و مؤيد الدين (العرضى)، و نجم الدين (القزوينى)، و فخر الدين (المراغى)، و محى الدين (المغربى).

إن انحياز نصير الدين الطوسى إلى هولوكو، و قبوله وظيفة الوزارة بعد تدمير دولة الموت النزارية الإسماعيلية كانت خطوة يخفى وراءها أخذ الثأر من العباسيين، و تحقيق إنجازات كبيرة، و خدمات جلّى للفكر و للإنسانية، و من المهمات التى صمّم على تنفيذها، و تتلخص بإتقاد من يمكن إتقاده من فلول الإسماعيلية يضاف إلى ذلك الحفاظ على رجال الفكر فى بغداد من خطر المغول.

سنان راشد الدين

ولد سنان راشد الدين فى البصرة، و هناك من يقول إنه ولد فى قلعة لامستر فى بلاد فارس و درس فى «ألموت» بمدرسة الدعوة على الحسن ابن الصباح و توفى فى قلعة الكهف الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا إلى الجنوب الغربى من بلدة القدموس ثم نقل جثمانه إلى «مصيف» بناء على وصيته حيث دفن فى جبل «مشهد» الواقع على بعد خمسة أميال غربى مدينة مصيف.

وصفه الصاحب كمال الدين فقال:

«كان رجلا عظيما ... بعيد الهممة ... له القدرة و التأثير على الناس، و السيطرة على القلوب و كتمان السر و اتقاء الأعداء و استخدام كل ما يملكه فى سبيل أغراضه، و كان بارعا و متفوقا فى الفلسفة و المنطق و التأويل، و علم الكلام، و الفلك، و الأدب، فضلا عن علم الجبر و الحساب و الهندسة و الهيئة.

أمّا رجولته و إقدامه و عزة نفسه فكانت حديث الناس فى عصره، و هكذا كانت فصاحته فإنه كان أخطب الناس فى ذلك العصر، و أكثرهم تأثيرا فى السامعين».

و ذكر أنه كان من العاكفين على دراسة رسائل إخوان الصفاء، و كتب ابن سينا الفلسفية، و الكرمانى. و إضافة إلى ما ذكرناه فإنه كان شاعرا رقيقا،

##PAGE=184##

و لكن مع كل أسف لم يعثر إلّا على بعض أبيات و مقاطع من شعره، و هكذا بالنسبة لمؤلفاته العديدة:

و من أشعاره:

و ما أقل فى القليل النجبا

ما أكثر الناس و ما أقلهم

مهذبين صحبوا مهذبًا

ليتهم إذ لم يكونوا خلقوا

و له أيضا:

ما فيهم للخير مستمتع

أجأنى الدهر إلى معشر

أو حدثوا مجوا و لم يسمعوا

إن حدثوا لم يصدقوا سامعا

من ذنبه الإحسان ما يصنع؟

تقدّمى آخرنى فيهم

وله أيضا:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى
لكن جهلت فرصت تحسب أن
فاستحى إن الحق أصبح ظاهرا
طرا لكنت صديق كل العالم
من يهوى خلاف هواك ليس بعالم
عما تقول و أنت شبه النايم

و كتب إلى صلاح الدين الأيوبي:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى
بيوتك فيها و اشمخر عمودها
مغارسها فينا و فينا حديدها

يعتبر سنان راشد الدين من القواد المؤسسين للدول . و قد لعب دورا بارزا فى التاريخ، و كان له أثر بالغ فى السياستين السورية و المصرية و خاصة فى الحروب الصليبية، و كان يحمل مسؤولية شعبه الكبير، و يحميه بنجاح من المآمرات، و من غارات الصليبيين و الأيوبيين ...

فقيادته الحكيمه، و عبقريته الفريده و شجاعته الهادئه، و بعد نظره، و عفته و إباؤه كانت مضرب المثل فى عصره . و جاء أيضا فى كتاب «فصول و أخبار» عنه أنه:

«كان جميل الصورة، معتدل القامة، ذا عينين واسعتين سوداوين ...

أبيض البشرة مع ميل إلى السمرة، و حاد البصر، و سريع البديهة ...

و كان يقضى أيام الأسبوع متنقلا و متفقدا شوؤن أتباعه فى القلاع و فى المدن، ثم يذهب بعد ذلك إلى «صومعته» فى جبل «مشهد» حيث

##PAGE=185##

ينقطع للتأليف و رصد النجوم، و كان يسير نحو القلاع و الحصون فى طرق سرية، و معابر خاصة مشيا على الأقدام حتى لا يعرفه أحد. أما ذهابه إلى مدن حلب و دمشق و حمص و حماه فكان يتم وفق سرية تامة و بعد إخفاء الشخصية.

«الشاعر الأمير مزيد الحلبي الأسدی»

يتميز شعر الأمير مزيد الحلبي الأسدي بالرقّة و العذوبة و الوجدانية . أصله من «الحلّة» العراقية، و إسمها في التاريخ القديم «بابل» و «الجامعين». أمّا نسبه فيتصل بأمرء «بنى مزيد الأسديين» المعروفين بتشيعهم و انحيازهم للفاطميين، يؤيد ذلك المواقف العديدة التي وقفها هذه القبيلة الكبيرة مع الفاطميين، بالرغم من أنهم كانوا يعيشون في ظل الدولة العباسية، و قد كانت مواطنهم و مخيماتهم قائمة على ضفاف نهر الفرات.

عرف سنان هذا الشاعر عند ما خرج من بلاد فارس، و اتجه إلى بلاد الشام للالتحاق بقلاع الدعوة الإسماعيلية، و تذكر المصادر الإسماعيلية التاريخية أنه عند ما وصل إلى «الحلّة» التقى فجأةً بالشاعر الأمير مزيد، و يبدو أنهما تذاكرا بالشعر و الأدب و أعجبا ببعضهما، فدعاه مزيد إلى النزول في ضيافته، فاستجاب لطلبه، و بعد أن أمضى سنان فترة استراحة لديه غادر الحلّة دون أن يكشف له عن شخصيته الكاملة، و كل ما عرفه مزيد عنه أنه شاعر من بلاد الشام و أن اسمه «محمد بن علي الحلبي» و أنه كان في رحلة إلى قلعة ألموت لمقابلة إمام الإسماعيليين النزاريين . و كان مزيد من الإسماعيليين النزاريين فلهذا أكرم وفادته غاية الإكرام، و زوّده بكل ما يحتاج إليه في رحلته.

و مضت أيام و شهور و تبعثها أعوام، و مزيد لم يسمع عن صاحبه أى خبر، و فى أحد الأيام طرق باب منزله فى الحلّة رسول سنان حاملا رسالته تتضمن تعريفًا بصديقه الشاعر الذى حلّ بالأمس ضيفا عليه، مع دعوة له للحضور إلى «مصياف». فردّ مزيد بالإيجاب، و لم يلبث أن توجه إلى مصياف، فأقام فيها ضيفا على سنان لمدة قصيرة، ثم اعتذر للمغادرة و عاد إلى العراق رغم إلحاح سنان عليه بالبقاء

##PAGE=186##

فترة أطول، و لكنه مع كل أسف لم يكد يصل إلى موطنه الحلّة حتى وجد نفسه أمام مأساة كبرى، و تضيف المصادر الإسماعيلية نفسها بأن زوجته و بناته و أولاده ماتوا جميعا تحت ركام منزلهم الذى انهار فى إحدى الليالى، و هذا ما جعله يهجر العراق و يعود إلى مصياف ثانية ليقيم فيها ، و هناك تزوج و أنجب أولادا و ظلّ قريبا من سنان حتى وقت وفاته، و ممّا يجدر ذكره أن له قصيدة اسمها «الرحلة» يصف فيها ما لاقاه إبان رحلته من الحلّة إلى مصياف مع ذكر المدن و القرى التى مرّ فيها، و ما تعرض له فى رحلته ... و سنذكر بعض مقاطع منها.

لهذا الشاعر ديوان شعر لم يطبع، و من المرجح أن هناك قصائد أخرى لم يعثر عليها . و ممّا تجدر الإشارة إليه أن سنان قد مات قبل مزيد، لهذا فإن الأمير الشاعر أوصى بأن يدفن إلى جانبه فى جبل «القاهر» على مقربة من بلدة «مصياف»، و قد نفذت الوصية.

من أشعاره:

و قد شقّه كأس من البين علقم

أيحظى بقرب الدار صب متيم

و حتام أخفى ما ألقى و اكنتم

إلى كم ألوم النفس عند إذكاركم

و حولى ذئاب للحوادث حوم

و فى كبدى للبين ناب و مخلب

أعانق ربّات الخدور و ألتم
و هل يشتفى من لاعج الشوق مغرم

و كم ليلة قضيت فيها مآربي
فيا دهر هل بعد التغيّر رجعة

وله:

لما هجرت لكنما وجدها وجدى
لأبسط ذلا تحت أقدامها خدى

أما و الهوى لو عندها بعض ما عندى
و حق الهوى لو استطيع إذا مشت

وله:

علّى فى حكم الهوى يعتدى
و قلبه أقسى من الجلمد
و ثغره كالأفحوان الندى
و قدّه كالغصن الأملد
ثلاثة كنا على موعد
كالماء يشتاق إليه الصدى

و شادن أفديه لو يفتدى
أرق من مسمومه قدّه
فالورد من وجنتيه اجتنى
و وجهه كالشمس شمس الضحى
حلفت بالابن و الآب معا
إنى لأشتاقتك يا سيدى

##PAGE=187##

و من شعره:

لا أرى لى مخيما فى قباب
عمدا مشرفا على أطناب
أو دعا الحرب كنتم أسد غاب

يا لقومى من آل ظبية مالى
أنتم خير من أقيم عليها
إن سطا الخطب كنتم ماء مزن

رمت صبرا عنكم فأعوزنى الصبر

لا و من أنشأ البرية خلقا

ما تباعدت عنكم لملال

غير أن الحسام لا يستطيع

فهل لى إليكم من إياب!

ذا انتقال من نطفة لتراب

ليس لى رغبة إلى الاغتراب

القطع إلا مفارقا للقراب

وله:

هب لى الكرى فلقد أودى بى السهد

إسأله فهو مجيب حين تسأله

يا واحدا بين أرباب الجمال و من

السلسيل لنا من فيك أم عسل

أجلد القلب لم ألق له جلد

هل كان غيرك فيه نازل أحد

أضحى بذلك فيهم و هو منفرد

و لؤلؤ سلكه المرجان أم برد

وله:

سرى الركب فازدادوا على همهم همًا

عن الجبل الفرد الذى شاع ذكره

و ركب سروا فى ليلهم يسهرونه

فلمّا أنار الصبح و افاهم الكرى

رأوا بعض أتراب لسلمى و قد بدت

و من لم ير الشمس المنيرة فى الضحى

بوادى الغضا عمّا تسائلهم عمّا

فمهما يسيروا لم يروا ذلك المهما

و قد ركبت فيه عساكرهم دهما

و أرمتهم الأحلام فاستحسنوا الحلما

إليهم فقال القوم قد برزت سلمى

و لا البدر يستعظم لرؤيته النجما

و هذه مقاطع من قصيدة «الرحلة».

على ما مضى من عمرى المتقدم
إليك ذرينى و الجوى لا تقدمى

ندمت و لكن ليس يعنى تندمى
فقلت لدنيايا إلى كم تحمحمى
فما أنت لى دار المقام فأعلمى

و منها:

و يصلح أمرا كان بالأمس مفسدا
يوالى ولاء الأمر آل محمد

سيرشد قلبى طالما كان يرشدا
و يعرض عن سبل الضلالة للهدى
فحبهم فرض على كل مسلم

###PAGE=188###

و فاقوا على أهل المكارم و النهى
هم شجرة الطوبا هم سدره النها

هم معشر طالوا على النجم و السهى
و حازوا المدى بالحلم و العلم و النهى
هم جنة المأوى هم بئر زمزم

و منها:

و منذ دعا الداعى المَلح تركتها
من «الحلة» الفيحاء حين صرفتها
و سارت بنا سير الرياح و بادرت
و راحت كمذعور النعام تنافرت

رحلت و عيسى للنوى قد نهرتها
و لما دنا التعريس منها فركتها
و بغداد خلفى لم أطأها بمنسم
وحوش الفلا فى جدها و توافرت

و ظَلَّت بنا تطوى الفجاج و جاورت
و بتنا بها عند الرئيس فمدنا
و لمّا بدا الفجر المنير أمدنا
مسيل من العاصى شديد التهجم
بشط الفرا من كل جرم مسنّم
بأنعامه بل للرحيل أعدنا
إلى أن وصلنا أرض «شيزر» صدنا

و منها:

فقلت له ما زلت مذ كنت مسلما
فيهدى و يجلى ناظرى من العمى
مجيبا و ها أنت المحكّم فاحكم.^٥
أجوب على من يعرف الأرض و السما
إليك حطت الآن رحلى مسلما

##PAGE=189##

العادات و التقاليد الفاطمية

يعتبر «القصر الزمردى» الكبير الكائن فى القاهرة «المعزّية» من أقدم القصور الفاطمية. فبناؤه تمّ بعهد «جواهر الصقلى» ثم أصبح بعد مجىء الخليفة الإمام المعز لدين الله كعبة القضاة، و ملجأ المعوزين، و ندوة لأهل العلم و الفضل تتجلى فيه عظمة الخلفاء الفاطميين و أخلاقهم و نبههم و شرف محتدهم. فالحفلات العامة كانت تقام للفقراء فى أرجائه، و المآدب تعد للمعوزين فى فسحاته، و الندوات العلمية تزخر برجال العلم و الأدب و الشعراء، و المجالس الأدبية أبدا زاهية زاهرة بفضل ما خلعه عليها هؤلاء الأئمة من حيوية و نشاط، و كل هذا كان حديث الناس، و مثار إعجابهم و دهشتهم، و شاركت القاهرة القصر الفاطمى بهذه النهضة الثقافية الكبرى، فسارت تتبع خطاهم متأثرة بتعاليمهم حتى أصبحت هى أيضا منتدى عاما يجتمع فيه مختلف الأجناس، و متباين الشعوب من كافة الأقطار.

فاختلطت ثقافتهم بالثقافة الفاطمية الزاهرة، و حضارتهم بتلك الحضارة الإسلامية الأصيلة التى عمل «الفواطم» على نشرها و تعميمها، فهم كما عرف عنهم من أعرق بيوت العرب و أشرفهم حسبا و أقدمهم فى اعتناق الأدب و العلم.

كان للقاهرة «المعزّية» سور منيع له عدة أبواب ضخمة تغلق كل يوم عقب غروب الشمس، فلا يستطيع أحد أن يدخل إليها، أو يخرج منها إلا بأمر خاص، و ما زالت هذه الأبواب إلى يومنا هذا، كما أن آثار السور باقية حتى اليوم، و كان

^٥ (*) المقصود «بالحكّم فاحكم» الامام محمد بن الحسن بن نزار بن المستنصر و هو سنان و نرى مزيد هنا يقلده رتبة الإمامة.

للقاهرة أيضاً ضواح اشتهرت بروعتها وفتنتها، تضم منازل الأغنياء والموسرين والطبقة العالية من الشعب، وما جاوره و كان أكثرها جمالا، و سكانا، و روادا، و مظاهر، الحى الكائن فى منطقة «الجمالية» من «الغورية» و «خان الخليلي» حيث تقوم مختلف المتاجر و قصور الأغنياء. أما قصر «الأمير نزار بن الخليفة الإمام المستنصر بالله» فكان يسمّى قصر «المظفر» و هذا القصر بناه الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، و جعله فى شرقى القاهرة بالقرب من القصور الملكية الأخرى، و قد كان يمتاز عن بقية القصور بارتفاع شرفاته، و تعدد حجراته، و تناسق أروقته و مقاصيره.

##PAGE=190##

أمّا هندسة بنائه فكانت على الطريقة الرومانية العريقة بالإضافة إلى الفن الإسلامى المائل فى كل الجوانب و كان يطل على ساحة القصور الملكية العامة الرفيعة الذرى، و على الخليج الفضى، و على بستان كافور، و على مسافات بعيدة من القاهرة، و كلن قصر المظفر من أغنى القصور الملكية زخرفة و نقشا و زينة، اختلطت فيه الفضة و العاج باللالى ء و الأحجار الكريمة، و عند ما كان يسرّح الناظر الطرف فى أرجائه، و يتمتع بروائعه، يدرك أن مفاتن العالم كلها اجتمعت فى هذا الصرح العجيب الرفيع المنار، الذى أنشأه الفاطميون لسكانهم و سكنى أحفادهم.

و من المتنزّهات الجميلة فى القاهرة «البستان الكافورى» و هذه المتنزّهات كانت فى الجهة الغربية من المدينة حيث يقع وراءها خليج القاهرة الذى أسست خلفه بحيرة كبيرة من الحجارة الجميلة الملونة لسحب المياه من النيل، و إرواء الورد الناضرة، و الأشجار الجميلة المورقة التى غرست فى البستان، و قد كان منظرها من أمتع المناظر و مشهدها من أجمل المشاهد و أدعاه إلى السحر و الفنون و إثارة الشعور، و كانت فيه القاعات الجميلة، و المقصورات الغنية التى زينت بأجمل الرياش الثمينة، و فيه مئات الطيور الداجنة الجميلة، و الحيوانات الأهلية على اختلاف أنواعها، و بعضها فى الأقفاص و البعض الآخر طليق، و كان على ضفة الخليج مجالس من الخشب كالشرفات و قد فرشت كلها بالسجاد الفاخر، و عليها المساند الحريرية المزركشة، و فوقها مظلات من الخشب يعرّش عليها النبات الأخضر و يتدلى على قضبانها الورد الجميل، فكل ما فى هذه المتنزّهات ثمين يسترعى النظر، و يحمل الناظر على تسييح الله لهذا الجمال الرائع الذى خلعه على هذه الحدائق الناضرة التى رعاها الفاطميون إرضاء لميولهم الشعاعية و حبههم للطبيعة و للجمال، و إرواء لرغبتهم بالعزلة و الابتعاد و الانقطاع للتأمل.

و نعود إلى قصر «الزمرّد» لنقول:

إنه أحد قصور الفواطم الذى تمّ بناؤه و زخرفته فى عهد الخليفة الفاطمى الإمام المعز لدين الله : فقد جعل طلاؤه بلون الزمرّد تمييزا و حبا بهذا اللون الرائع الجميل. و أمّا موقعه فكان فى شرقى مدينة

191 ##PAGE=##

القاهرة القديمة إلى الشمال ما بين الأزهر و باب الفتوح، و يدخل فى ذلك خان الخليلي، و بيت القاضى، و الجمالية، و النحاسين.

و هذا القصر تمّ بناؤه فى عهد الفاتح الكبير «جوهر الصقلى» و كان يضمّ قسمين أحدهما : قصر الخليفة الخاص، و يضم جملة قصور أيضا، و كان الآخر بمنزلة متنزه يطل منه على بستان كافور، و كان بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم

«ما بين القصرين» و يتسع لعشرة آلاف جندي ما بين فارس و راجل، و كان الخليفة يمر من أحد القصرين إلى الآخر من تحت الأرض بطريق أعده لذلك حتى لا تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به.

و كان القصر فى وسط مدينة القاهرة و بينه و بين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها، و كان له عشر بوابات فوق الأرض، و باب يقود إلى ممر أرضى يعبره الخليفة راكبا ليصل إلى قصر آخر، و قد كان من الفخامة بحيث اعتقد بعضهم أنه فاق قصر «لابيرانيت»، و قصر التيه الذى اتخذه «أمنحتيب» الثالث سنة ألف و ثمانمائة و واحد قبل المسيح، و هو أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، و قد جعله مقرا لحكمه بالقيوم، و الذى بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف، على أن شهرة هذا القصر قد تضاءلت أمام قصر الزمرد، الذى بلغ عدد حجراته أربعة آلاف، و قد ظل قصر الزمرد دارا للخلافة الفاطمية منذ أقام فيه الخليفة الإمام المعز لدين الله سنة ٣٦٣ هـ إلى أن زالت الدولة الفاطمية من مصر سنة ٥٦٧ هـ.

و من مميزات هذا القصر كثرة أبوابه . فمنها باب الذهب، و كانت تعلوه منظره يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات، و باب العيد و أمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود فى يومى العيدين و تعرف برحبة باب العيد ... و باب الديلم و موضعه الآن مسجد الحسين، و يصل إلى باب الزعفران حيث مقبرة الخلفاء و سائر أفراد الأسرة الفاطمية المالكة، و موضعه الآن خان الخليلي، و قد دفن فيه الإمام المعز لدين الله، و جىء من المغرب برفاءة : عبد الله المهدي، و القائم بأمر الله، و المنصور بالله، و كانت موضوعة فى توابيت من ذهب، و دفنت فى هذا المكان.

... و من الجدير بالذكر أن هذه المقبرة ظلت مدفنا للخلفاء و أولادهم

##PAGE=192##

حتى أنشأ فيها «ركن الدين جهاركس الخليلي» أحد أمراء المماليك خانه المعروف باسمه، و عندئذ أخرج منها رفاء الفاطميين و ألقاها على تلال «البرقيّة» بين باب الديلم و باب تربة الزعفران التى كان يصل منها الخليفة إلى الجامع لمشاهدة الناس و الصلاة، و يقابل باب الديلم الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر و كان الخليفة يصلى فيه صلاة الجمعة، و بجوار رحبة باب العيد كانت دار الضيافة و يطلق عليها «دار سعيد السعداء» و يقابلها دار الوزارة، و كان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران و باب الزهومة و محلها الآن شارع الصاغة، و تقع خزائن القصر بين هذا الباب، و الجامع الأزهر، و من هذه الخزائن خزائن الكتب و الأسلحة و الفرش، و قد بنى أيضا فى موضع القصر الصغير «المارستان المنصورى الكبير» و يعرف اليوم بسوق النحاسين و بجواره إلى الشمال الميدان و البستان الكافورى، و دار الضيافة القديمة و رحبة الإقبال.

أما القصر الشرقى الكبير، و هو المكان المعد لسكن الخليفة، و الموضع المخصص لجلوسه، و فيه تقيم أسرته، و حاشيته، و رجال بلاطه، و الدواوين، و الخزائن، و كان مؤلفا من عدة قصور منها قصر الزمرد الذى جاء ذكره، و قصر المظفر، و قصر الإقبال، و قصر البحر، و قصر الحريم، و قصر الشوك، و دار الوزارة، و الضيافة، و الضرب، و خزائن البنود، و الكتب . أما القصر الصغير الغربى، فقد كان يتحول إليه الخليفة فى أيام التنزه على الخليج و يقال لهذين القصرين معا:

القصور الزاهرة، و تؤلف دارا للخليفة، و قصرا للجنود، و مركزا للإدارة.

كان قصر الزمرد آيةً في الإبداع، ومثالا في البناء، فأرضه كانت مرصوفة بأنواع الرخام المتعددة الألوان . وفيها تذهيب بهيج بنضارته و بهائه، وفي السقوف ألواح تزينها الزخارف الذهبية الجميلة و النوافير التي تجرى فيها المياه الصافية في أنابيب من الفضة و الذهب، و أراضي و قنوات مرصوفة بالرخام ، و أسلحة و دروع تلمع بالفضة و الذهب، و كان في القصر دور واسعة و قباب و أروقة طليت جدرانها و سقوفها بالفسيفساء المذهبة، و الرسوم الملونة، و حيطانها بالوشى و الديباج، و بساتين مطللة بالأشجار و الرياحين، و كانت هذه مضرب المثل بحسن بهائها و رونقها، كما أنها امتازت بفخامة بنائها و اتساعها، و بما يحيط بها من حدائق غناء و أشجار متكاثفة، كما ازدانت بالمناضد

##PAGE=193##

الثمينة و الزهريات الخزفية و التريعات المرصعة التي بلغت حد الإتقان، مضافا إلى كل ذلك الفرش الفاخر و المتاع الثمين، و غير ذلك من آيات الروعة و الجمال.

إن حركة بناء القصور و المساجد و المشاهد و المناظر، و غيرها من المنشآت في القاهرة «المعزية» و الفسطاط تؤلف جزءا متمما لمنهاج الفاطميين في الفن و العمران و الإنشاء . و لا تزال ناطقة بالعظمة، و ضخامة السلطان، و سعة العلم، و دقة الصنع، و التطلع إلى البعيد.

فالفاطيون في هذا المجال نقلوا فن البناء عن البيزنطيين و الفرس، و لكنهم أدخلوا عليه، و غيروا الكثير من أجزائه مما زاد في جمال بنينهم و روعته فترى : الأبواب العالية مع صغر المدخل، و القباب الشامخة المزينة، و المنارات الشاهقة، و الأعمدة الصغيرة، و كل هذا يدل دلالة واضحة على النبوغ و التقدم و الازدهار . أما مواكب الخلفاء التقليدية في مصر، فيمكن اختصار وصفها و القول:

بأن مواكب الخليفة عند ما كان يسير في كل يوم جمعة إلى الجامع الأزهر .. فكان يسلك شوارع القاهرة الرئيسية، خارجا من باب الفتوح يحيط به حرس من الفتيان يتألق على أجسادهم الناعمة الذهب و الحرير، و تخطف أشعة الشمس على حراهم و سيوفهم، و هذا مشهد من أروع المشاهد . أما الأعلام فكانت تخفق فوق رؤوسهم، و الخيول تصل، و الرماح تتلألأ، و السيوف تلمع، و الطرقات تموج بمن فيها كالنيل في فيضانه . أما الهتافات فكانت تتعالى في الإنشاد، و المستقبلون ينثرون على مواكب الخليفة أنضر زهرات وادى الكنانة، العابق، ثم لا تلبث أن تغص الشوارع الفسيحة بالناس المتدافعة على رحبها و امتدادها من جميع النواحي، ثم تنحدر كالسيل العرم، و تنتشر في أرجاء الشوارع و هي تهتف و تصفق متمنية أن تحظى من الخليفة المحبوب بنظرة أو بتحية أو بابتسامة، و إذا تساءل سائل عن ذلك الراكب على الفرس الأشهب، و هو يرتدى الثياب القصبية؟

فيكون الجواب ... إنه من رجال أمير المؤمنين، لأن أمير المؤمنين لا يلبس القصب . إنه مقدم الفرسان من الجنود أرباب القصب و أرباب الأطواق الوردية . لقد كانت البستهم تخطف الأبصار، و هكذا سروج خيولهم المفضضة، و من يسير في ركبهم من الخدم، و هذا كله ليس شيئا بالنسبة إلى مواكب الخليفة ... فالخليفة كان يسير متهاديا تحت

##PAGE=194##

المظلة فلا يرى جيدا، وإنما ترى فرسه و ما يحديق بها من أعلام الفرسان فالفرس التي كان يمتطيها، كان سرجهما من الديداج الأحمر المصنوع من الذهب الخالص، و في مقدمة السرج الأحجار الكريمة و في عنق الفرس قلائد من الذهب، و حول قوائمهما سلاسل من الذهب الخالص أيضا، و يسمع رنينها إلى مسافات بعيدة، و كان الخليفة الفاطمي عند ركوبه في أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان يلبس الثياب البيضاء الكاملة و المنديل، و الطيلسان. و في صلاة عيد الفطر كان يرتدى الثياب البيضاء أيضا، و يوم فتح الخليج يلبس ثوبا يسمّى «البدنة» من حرير مرقوم بالذهب، و في المواكب المختصرة كان يخصص لنفسه الثياب المذهبة من البياض، و في صلاة عيد الأضحى ثيابا من الحرير الموشح، و في قصره كانت له ثياب خاصة تتميز بأن أكامها على النصف من أكام ثيابه التي يلبسها في المواكب، و هي قفطان من الكساء، و جبة و قباء و عباءة يتشح بها و قلنسوة طويلة مزينة بجوهره غالية يضعها على رأسه.

و كان الخليفة الفاطمي يتميز عن غيره بكثير من شارات الملك التي تقتضيها الأبهة و العظمة فكان إذا خرج في موكبته تقلد السيف العربي المجوهر الذي كانت له حمائل يعلق بها على الكتف الأيمن، و هو مدلى إلى الجانب الأيسر. و تؤكد المصادر التاريخية أن هذا السيف كان «ذو الفقار» و هو سيف الإمام على بن أبي طالب الذي غنمه النبي محمد (ص) في موقعة بدر من المشرك «منبه بن الحجّاج».

و كان يضع على رأسه أيضا تاجا عظيما ينعت بالتاج الشريف، و هو تاج الخلافة، و فيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانه خليفة آخر، و كانت الدرّة البيّمة و زنتها سبعة دراهم تعلو عمامته و حولها جواهر أخرى دونها على جبهته مكان العمامة . أمّا المظلة الموروثة من عهد الإمام المعز لدين الله الفاطمي فهي تشبه الهرم بشكلها و كانت من الديداج الأزرق السماوى، و ثوب الخليفة تحتها من هذا اللون أيضا، و لو كانت حمراء لكان ثوبه أيضا، و أمّا الأهله فمن الذهب، و في قمته رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب صغيرة أيضا مرصعة بالجواهر ذات لمعان يخطف الأبصار، و قد كان حاملها يركب فرسه بجانب فرس الخليفة، و للمظلة قنّاء يركزها ذلك في قربوس فرسه، و همه في

##PAGE=195##

أثناء الركوب أن يراقب موقف الخليفة من جهة الشمس حيث لا تقع أشعتها عليه، و لعل أحسن وصف ما قاله الشاعر الفاطمي ابن هانئ الأندلسي:

و على أمير المؤمنين غمامة	نشأت تظلل تاجه تظليلا
نهضت بتقل الدرّ ضوعف نسجها	فجرت عليه عسجدا محلولا
قد ضمّ قطريها العجاج فما ترى	بين السنان و كعبه تحليلا
أيكية الذهب المرصع رفرفت	فيها حمام ما دعون هديلا
و تباشر الفلك الأثير كأنما	تبغى بهنّ إلى السماء رحبلا

و يظهر موكب أمير المؤمنين، و العمامة البيضاء على رأسه بشكلها الإهليلجى و فى أعلاها فوق الجبهة تماما حلية بشكل الهلال من ياقوت أحمر، و فى وسط الهلال جوهره عظيمه مشهوره يقال لها «اليتيمة» قيل إن الخليفة الفاطمى الثانى الإمام القائم بأمر الله قد جاء بها من ديار المشرق، و يقال إن وزنها يبلغ سبعة دراهم، و وزن الهلال كله أحد عشر مثقالا، و بدائرة اليتيمة قصبه زمرد رباييه لها قدر عظيم و ترى فى الجانب الآخر من الموكب فارسا يحمل سيفا حليته من الذهب المرصع بالجواهر و هو مغمدا لا يظهر إلا رأسه، و يقال لحامله «حامل السيف». و أما فرس الخليفة فتجد عشرات الصبيان، و عليهم المناديل البيض، و فى أواسطهم السيوف، و أواسطهم مشدودة بمناديل حمراء و فى أيديهم الحراب مشهوره و هم بجانبى الخليفة كالجنحين . و يظهر والى القاهرة على رأسه يأمر و ينهى و يحافظ على ترتيب الموكب ليسهل المرور و يمنع الازدحام.

.. جاء الفاطميون إلى مصر، فوجدوا فيها تربة صالحة للبذر و الغرس، و لذلك وجهوا اهتمامهم لنشر تعاليمهم، و تعميم أفكارهم العلمية، و إحداث انقلاب فكرى يشمل جميع النواحي الأخلاقية و السياسية و الاجتماعية، و قد استجاب لهم أهل تلك البلاد، و سعدوا بهذه الحياة الرغيدة يخلعها «الفواطم» على وادى الكنانة ليسير فى طريقه السوى نحو الهدف الأسمى و الغاية المثلى تقوده الأماهى و الآمال.

لقد كانت القاهرة فى عهد «الأئمة الفاطميين» وطن العجائب و الغرائب، فهى بحق مدينة العلم، و الفلسفة، و الحب، و الفن،

##PAGE=196##

و الشعر، و الغناء، و الفرح . و لا نعتبرها عاصمة العالم الإسلامى فحسب بل عاصمة العالم المتمدن المستنير كله، لأن أوروبا فى ذلك الوقت كانت تسبح فى غمرة بربرية قاسية من الجهل و الانحطاط.

فشعوبها كانت فى سكرة طويلة لا تعرف صحوا و لا استفاقة . لقد كانت القاهرة تعج آتذ بدور العلم، و المكتبات، و النوادى، و الجمعيات، و المؤسسات الأدبية، و كانت حضارتها العمرانية تدل على عظمتها و عراققتها بالفنون. فهى زاخرة أبدا بالحصون و الأبراج و الشرفات التى يفوح منها عبير الشرق، و أريج المعطر. مضافا إلى القصور الشاهقة و الساحات العامة و الحدائق ذات الزخارف و التماثيل العجيبة، و الأعمدة المرمرية التى لم يكن يوجد ما يعادلها فى الشرق و الغرب على السواء.

كان للفاطميين مواسم رسمية و أعياد هى:

موسم رأس السنة، و موسم أول العام، و يوم عاشوراء، و مولد النبى محمد (ص)، و مولد الإمام على بن أبى طالب، و مولد الحسين بن على، و فاطمة الزهراء، و الإمام الحاضر «خليفة المسلمين»، و ليلة أول رجب، و ليلة نصفه، و أول شعبان، و نصفه أيضا، و موسم ليلة رمضان، و غرة رمضان، و سماط رمضان، و ليلة الختم، و موسم عيد الفطر، و عيد النحر، و عيد الغدير، و كسوة الشتاء، و كسوة الصيف، و موسم فتح الخليج، و يوم النوروز.

و كان الخليفة يوم وفاء النيل يركب فى هيئة عظيمه من الثياب الفاخرة و الموكب العظيم، و يضع التاج، و عليه الدرر اليتيمة، و لا يترك المظلة على رأسه فى ذلك اليوم، و يركب الوزير الأول وراءه فى جمع عظيم على ترتيب الموكب، و يخرج من القصر شاقا القاهرة إلى باب «زويلة» و منه يسلك الشارع إلى أن يجاور البستان المعروف ب «عبّاس» فيعطف

سالكاً على الجامع الطولوني، والجسر الأعظم حتى يأتي مصر، ويدخل من «الصناعة» وهي يومئذ في غاية العمارة و فيها دهليز ممتد بمصاطب مفروشة بالحصر العبداني، ويخرج من بابها مخترقاً مصر حتى يأتي المنطرة المعروفة برواق الملك على القرب من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجه له، والوزير الأول معه ماشياً إلى المكان المعد له، ويكون العشارى واقفاً على شاطئ النيل، وقد حمل إليه من القصر بيت ثمين من العاج والأبنوس كل جانب منه ثلاثة أذرع و طول

##PAGE=197##

٤

قائمة رجل تام، فيركب في العشارى المذكور، و عليه قبة من خشب محكم الصنعة، و هو وقبته ملبس بصفائح الفضة المذهبة ثم يخرج من دار الملك المذكورة، و معه من الرجال و الوزراء من يختاره من ثلاثة إلى أربعة، ثم يطلع خواص الخليفة إلى العشارى و الوزير و معه من خواصه اثنا عشر أو ثلاثة لا غير، فيجلس الخليفة برواق بظاهر البيت المذكور بفوانيس من خشب مخروط مدهونة و مذهبة بستور مسدلة عليها، و يسير العشارى من باب المنطرة إلى باب المقياس العالى على الدرج فيطلع العشارى، ثم يدخل إلى الفسقية التي فيها المقياس، و الوزير و من معه بين يديه، فيصلى هو و الوزير كل منهما ركعتين بمفرده، ثم يؤتى بالمسك و الزعفران فيديفه في إناء بيده بآلة يحملها و يتناوله صاحب بيت المال و قراء الحضرة من الجانب الآخر يقرأون القرآن الكريم، و بعد ذلك يخرج من فوره راكباً في العشارى المذكور، ثم يعود إلى دار الملك و يركب منها عائداً إلى القاهرة، و يكون في النهر في ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس للتنزه و إعلان الفرح.

و أمّا فى اليومين الثالث و الرابع من يوم التخليق، و هو يوم يأخذ النيل بالزيادة، فقد كانت تصنع فى بيت المال موائد من التماثيل المختلفة من الغزلان و السباع و الفيلة و الزرافات، و منها ما يكون ملبسا بالعنبر أو الصندل، و قد تكون مفسرة العيون و الأعضاء بالذهب، و كذلك يعمل على أشكال التفاح و الأترج، و غير ذلك من الفواكه، و تخرج الخيمة العظيمة المعروفة «بالقاتول» فتنصب للخليفة فى بر الخليج الغربى على حافته عن دمنطرة يقال لها «السكرة» على القرب من فم الخليج و يلف عمود الخيمة بديباج أحمر أو أبيض، أو أصفر من أعلاه إلى أسفله، و ينصب فيها سرير الخليفة مسنداً إليه، و تكون عرانيسه ذهب ظاهرة، و يوضع على مرتبة عظيمة من العرش للخليفة، و يضرب لأرباب الرتب من الأمراء بقرب الخيمة خيم كثيرة على قدر مراتبهم فى المقدار و القرب من خيمة الخليفة، ثم يركب الخليفة على عادته فى المواقب العظيمة بالمظلة و توابعها من السيف و الرمح و الألوية، و يزداد أربعون بوقاً، عشرة من الذهب و ثلاثون من الفضة يكون المنقرون بها راكبين، و المنقرون بالأبواق النحاسية مشاة و من الطبول العظام عشرة، و عند الركوب يحضر الوزير الأول من دار

##PAGE=198##

^٦ تامر، عارف، تاريخ الاسماعيلية، 4 جلد، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

الوزارة راكبا في هيئة عظيمة، و يركب حينئذ إلى باب القصر الذى يخرج منه الخليفة، و يخرج الخليفة من باب القصر راكبا، و بعض رجال الحاشية مشاة من حوله و عليه ثوب يسمّى البدنة و هو حرير مرقوم بذهب لا يلبسه فى غير ذلك اليوم، و المظلة بنسبة، و يسير الموكب على الترتيب المتقدم فى ركوب أول العام حتى يأتى الجامع الطولونى، و يكون قاضى القضاة و أعيان الشهود جلوسا بين يديه من هذه الجهة فيقف لهم الخليفة وقفه عظيمة، و يسلم على القاضى فيتقدم القاضى و يسلم عليه ثم يركبون، و يسير الموكب حتى يأتى ساحل الخليج فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة فيتقدمه الوزير الأول على العادة، فيترجل على باب الخيمة، و يجلس على المرتبة الموضوعه له فوقه، و يحيط به رجال الحاشية و الأمراء، و يوضع للوزير كرسيه ال معتاده فيجلس عليها و رجلاه تحكان الأرض، و يقف أرباب الرتب صفين من سرير الخليفة إلى باب الخيمة، و قراء الحضرة يقرأون القرآن ساعة زمانية، فإذا فرغوا من القراءة، استأذن صاحب القصر حضور الشعراء للخدمة، فيؤذن لهم، و يتقدمون واحدا بعد واحد، على مقدار منازلهم الم قرردهم، و ينشد كل منهم ما نظمه، فإذا فرغ أتى غيره، و الحاضرون ينتقدون كل شاعر و ما يقوله، و يحسنون منه ما حسن، فإذا انقضى هذا المجلس نهض الخليفة من السرير، فركب إلى المنطرة المعروفة بالسكرة بقرب الخيمة، و الوزير الأول بين يديه، و قد فرشت بالفرش المعدة لها فيجلس الخليفة بمكان معد له منها، و يجلس الوزير بمكان منها بمفرده، و يجلس القاضى و الشهود فى الخيمة البيضاء، و عند ما يطل منها أحد الشيوخ يشير بفتح السد، فيفتح بالمعاول، و تضرب الطبول و الأبواق من البرين، و فى أثناء ذلك يصل السماط من القصر بصحبة صاحب المائة، و عدتها مئة شدة فى الطيافير الواسعة، و فى القوارير الحريرية، و فوقها الطراحات النفيسة و ريح المسك تفوح منها فتوضع فى خيمة واسعة معدة لذلك، و يحمل منها الوزير للأمراء من التماثيل على قدر مراتبهم . أما القاضى و الشهود فلا يكون فى موائدهم تماثيل، فإذا اعت دل الماء فى الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف، و وراءها العشاريات الكبار و هى سبعة : الذهبى المختص بالخليفة، و الفضى و الأحمر، و الأصفر، و الأخضر، و اللازوردى،

##PAGE=199##

و الصقلي، و هو عشارى النشأة و من بحار صقلية، و كان عليها الستور، و فى أعناقها الأهلة ، و قلائد العنبر، و الخرز الأزرق، و تسيير حتى ترسو على بر المنطرة التى فيها الخليفة، و إذا صلى الخليفة العصر ركب لابسا غير الثياب التى كانت عليه فى أول النهار، و مظلمته تكون مناسبة لثيابه التى لبسها، و باقى الموكب على حاله، و يسير فى البر الغربى من الخليج شارقا البساتين حتى يصل إلى باب القنطرة، فيعطف على يمينه، و يسير إلى القصر، بينما الوزير يتابع طريقه إلى داره كالمعتاد.

ألموت

ذكر القزوينى ألموت فقال محمدا، موقعها : «ألموت قلعة حصينة .. بين قزوين و بحر الخزر، على قلّة جبل و حولها و هاد، لا يمكن نصب المنجنيق عليها و لا النشاب يبلغها و هى كرسى ملك الإسماعيلية».

و قيل فى اسم ألموت الكثير: فمن قائل بأن أصل الاسم فى لغة أهل الديلم «آلة الموت» أى «تعليم العقاب» فالآلة عندهم هى العقاب و الموت هى لفظ آموخت أى التعليم، مخففاً، و من قائل بحساب الحروف و إن مجموع حروف ال اسم يطابق سنة استيلاء الحسن عليها، و من قائل، كما فى كتاب «فصول و أخبار»، إن الاسم عربى أصلا و هو الموت و من ذا لا يعرف ما هو الموت؟

و لكن سواء كان الأسم ديلميما أم عربيا فإن ألموت تعنى المنعة و العزة و الموت و الزوال لكل مقتحم لها و متطفل عليها.

الحشاشون

بعض الأساطير عصى على الموت و لا سبيل للحقيقة التاريخية إلى دحضه، كتفاحة حواء الشهيرة على رغم أن التوراة لم تذكر التفاح بحرف، و كجنة قلعة الموت التي وعد «شيخ الجبل» بها أعوانه و أنصاره المخلصين.

و الحكاية، بإيجاز، تقول إن «شيخ الجبل» أى حاكم ألموت، كان قد أنشأ بستانا سوّره و أجرى فيه أنهارا من خمر و عسل و لبن، و كان يدخل إليه أعوانه الفتيان بعد أن يسقيهم شرابا يذهلهم عن أنفسهم حتى إذا أفاقوا وجدوا أنفسهم وسط اللذائذ الحمر الثلاثة، فإذا تمتعوا بكل ذلك مدة ما، سقاهم الشيخ من رحيقه العجيب ثانية فإذا

##PAGE=200##

أفاقوا قال لهم إنهم قد عاينوا الجنة و لا سبيل إليها إلّا بالطاعة ثم يسلمهم خناجر من ذهب و يمضى كل لاغتيال عدو من أعداء الشيخ.

و من هنا صار اسم هؤلاء الحشاشين و نقله الصليبيون فصار:

«أساسين SNISSASSA» و تعنى القتل و مرتكبي الغيلة. و لكن لنا رأينا وها نحن نبسطه و نقول:

بعث القيصر الألماني فردريك بربروس (١١٢١-١١٩٠ م) و كان مع الحملة الصليبية الثالثة، مجموعة كلفها برصد العدو (أى الصف الإسلامي) و استطلاع أحواله، فلما عادت المجموعة عام ١١٧٥ م رفعت له تقريرا تحدثت فيه عن جماعة شديدة البأس لا تعرف القانون و تأكل الخنزير و تبيع الفروج بما فى ذلك المحارم كالألم و الأخت و الابنة، و تعيش فى قلاع جبلية شاهقة، و أرضها غير خصبة و شيخها رهيب يخافه المسلمون و المسيحيون على حد سواء، و الشيخ يملك قصورا أحاطها بأسوار عالية و لم يترك منفذا غير باب صغير جدا، و فى تلك القصور يعيش أولاد أكاريه، يعلمهم و يربهم منذ صغرهم حتى يشبوا، على طاعته و خدمته و يعدهم بالجنة جزاء و لا ئهم و بالموت إن سولت لهم أنفسهم العصيان أو الخروج على أوامره.

و ولاء فتيان الشيخ للشيخ صار من الش هرة بمكان، حتى إن التروبادرو صار يناجى خليلته مغنيا لها : «و كما يأتمر الحشاشون بأوامر سيدهم دون نكوص، فإننى أنا أيضا خدمت الحب و وفيت له و لم أتقاعس».

و قريبا مما ذكرنا ما يرويه أرنولد الليبيكى، الألماني (توفى ١٢١٢ م) و كان رئيسا لدير رهبان يوحنا فى ليبىك، و خلاصته أن شيخ الجبل يوزع الخناجر على الفتيان و يسقيهم شرابا و يربهم بقوة سحره أحلاما كاذبة كلها لذة و غبطة و نيل مراد، حتى إذا أفاقوا الخ الخ ..

و لكن الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤ م) هو الذى رسخ هذه الأسطورة بشكل نهائى، فهو فى الكتاب الأول من رحلته يعقد فصولا يتحدث فيها عن «الملاحدة» و شيخ الجبل «علاء الدين» و يفصل من أمر الشيخ ما ذكرنا.

و فى العام ١٨٠٩ م ألقى سلفستر دى ساسى محاضرة فى الأكاديمية

##PAGE=201##

الفرنسية، تضمّنت بحثاً ائيمولوجياً فى أصل لفظ «الأساسين» و ينتهى إلى الربط بين الحشيش و نزارية الموت، و قد نشر دى ساسى بحثه هذا عام ١٨١٨ م تحت عنوان: «sed citsamyd al ruS eriomeM snissassa» .

قد يكون من نافل القول إن فى تلك الروايات القديمة، الصليبية و غير الصليبية، شنشنة معروفة طالما تعرضنا لها فيما مضى من فصول هذا الكتاب، فوصف الإسم اعيلية بالإلحاد و هم الذين يقرون بألوهية و وحدانية الله و نبوة محمد (ص)، صار رسالة معروفة المصدر كما نعتقد . و أمّا حديث الجنة فهو عندى تفسير لتلك الجسارة النادرة، و لروح الشهادة العالية لدى فدائية الموت؛ و ما دام الإسلام السلطوى قد حرم الجنة على الشيعة و الإسماعيلية، فإن القوم لم يجدوا تفسيراً غير جنة أرضية، و ساعدهم على هذا التفسير ما أنجزه حسن بن الصباح فى الموت و وعرها حتى استحالت بستانا و ارفا، و تمّ لهم كل ما تطلبه أسطورتهم من عناصر، فالفدائي إذن لا يقتل ملك أو شليم الصليبي و غيره من أعداء الأمة لإيمان يشحنه عزيمة بل لنيل الجزاء و الفوز بالجنة، لا جنة الله فهى وقف على الخليفة و فقهاه و شرطه، بل جنة حسن بن الصباح و هى ثمرة السيمياء و العقاقير المخدرة.

لا أعلم أن أحدا رعى الإسماعيلية بشيوعية النساء و الزنا بالمحارم، و قد يكون المقصود جماعة أخرى و لكن القصة تشبه مضمون ما جاء على لسان ماركو بولو، و هذا يدعم ما ذهبنا إليه و هو تفسير ما يجرى بكل شائن و معيب دون الالتفات إلى الحقيقة الأولى و هى الغيرة على الدين و على الأمة.

و يفسّر البعض اللفظ فيرده إلى واحد من خمسة:

١- حساسان، نسبة إلى الحسن بن الصباح شيخ الجبل و خالق المنظمات الفدائية، و هو برأينا بعيد فالنسبة ان صحت لا تصاغ هكذا.

٢- حساسون، نسبة إلى الحس و العاطفة، و هذا أيضاً بعيد، فما أنا بالذى يصدّق بأن صليبياً جلفاً فى موقع حياة أو موت يصف رجلاً أقبل عليه يريد اغتياله بمثل هذه الرومنطقية الزائفة.

##PAGE=202##

٣- أساسين SNISSASSA و هى كما هى الآن و كما تعنى الآن وصف بها الصليبيون الإسماعيليين ثم جاء المستشرقون فاستشرقوا و صار القوم حشاشين، و هذا تفسير الماء بالماء بعد جهد شهير.

٤- اساسيون، أى نسبة إلى الأساس الذى تقول به الإسماعيلية، و نحن نرد هذا القول، لأن المصطلح المذكور لا سبيل لأهل البلاد من المسلمين إليه إلّا بعد قبول و علم، فما بالك بالصليبيين؟

٥- عساسون، و هو عندنا الأصوب و الأرجح، ففدائية الجبل عرفوا بخفة حركتهم و أنهم يعسّون أى يطوفون فى الليل مراقبين و مدافعين و مهاجمين.

فهرس الاعلام

أ

أغا خان ١٢٥

الامر بأحكام الله ٣٧، ١٦٥

ابراهيم بن الحسين بن ٧١ الوليد

ابراهيم، محمد بن ابى ١٨٢ بكر

ابراهيم وجيه الدين ٧٣

ابن ابى جرارة، الحسن ٥٣ بن على بن عبد الله

ابن ابى جمرة، محمد ١٦٣

ابن ابى الشحاء ٢٣

ابن ابى الصلت، امية ٢٢-٢٥

ابن إسعاف ٣٥

ابن بطوطة ١٥٢

ابن الحباب ٥٣، ٥٤

ابن الخلال ٢٢

ابن خلدون ١٦٣

ابن خلكان ٤٥، ٤٦

ابن سينا ١٤٧، ١٥١، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٢، ١٨٢

ابن الصياد ٥٤

ابن الصيرفي ٢٢

ابن العبري ٩٨

ابن عربي ١٨٣

ابن العساف ٣٥

ابن العلاني، علي بن ٢٤ ابراهيم.

ابن العلقمي ١٨٠

ابن الفوطي ١٨٣

ابن قرفة النصراني ٣٦

ابن القطاع، علي بن جعفر ٢١ بن علي السعدي

ابن المطهر الحلبي ١٨٠، ١٨٢

ابن معصوم ٥٠

ابن مكنسة، اسماعيل بن ٢٢ محمد

ابن ميسر ٣٦، ٣٨

ابن نجاح ٣٠، ٣١

ابن نجاح بن قنا ٢٦

ابو الثريا نجم ٣٥

ابو الحسن علي ١١١

ابو الذر علي ١٠٦

ابو منصور اليهودي ٣٦

ابو النجم السراج ١١، ٨٢

احمد سلام شاه ١٠٣

احمد بن الافضل الجمالى ٣٣، ٣٧، ٣٩

احمد بن المبارك ٧١

احمد السلجوقى ٩٨

احمد، نور الدين ١٠٠

ادريس عماد الدين بن ٧٢ حسن

ادوارد السابع (الملك) ١٢٠، ١٢٢

الأديب، على بن النضر ٢٥

الأرمنى، بدر الجمالى ٢١، ٢٣

اسامة بن منقذ ٤٥

الاستربادى، ركن الدين ١٨٣

أسد الدين ٦٤

أسد الغازى ٦٣

الاسطرلابى، نجم الدين ١٨٣

الاسفرازى، ابو مظفر ١٥٨

اسماعيل الصفوى ١٠٥

اسماعيل بن هبة الله ٧٤

الأصفهانى، عماد الدين ٢٦، ٥٤، ٥٥

افرايم بن الزفان ٢٦

الأفضل بن بدر الجمالى ١١، ٢٤، ٢٦، ٣١، ٤٩، ٦٦

أفلاطون ١٥١

افلوطين ١٥١

اقليدس ١٥٢

##PAGE=204##

ألب ارسلان ٧٨، ٨٨

الانصارى، حسن بن ٢٤ الزيد

الأوحد بن تميم ٥٢

الايجى، كمال الدين ١٨٣

إيفانوف ١٣٣، ١٣٥، ١٦٥

الايوبى، صلاح الدين ١٤ - ٢٠، ٣٢، ٥٥، ٦٦، ٦٩، ١٦٠، ١٨٤

ب

بتريساما غيانو ١٢١

البحرانى، ميثم ١٨٢

بدر بن رافع ٤٤

بدر الدين، اسماعيل ٧٣

بدر الجمالى ٨٣

براون ١٦٥

برلهار ١٠٤

برهان الدين بن طاهر ٦٩، ٧٣ سيف الدين

برهان الدين نظام شاه ١٢٩ الدكنى

بروكلمان، كارل ١٦٥

البساسيرى، ابو الحارث ١٤٤ ارسلان

البغدادى، نجم الدين ١٨٣

بهرام الارمنى ١٦، ٣٨، ٣٩

بولو، ماركو ٢٠٠، ٢٠١

البويهى، فخر الدين ٩٩

بى بى سيركار ١١٢

بىر تاج الدين بن صدر ١٠٣ الدين

بىرخان شجاع الدين ٧٣

بىر محمد شاه ١١٣

بىر محمد نور نجش ١٠٤

البىضاوى ١٣٣

البىهقى ١٥٣

ت

التنيسى، محمد بن ٤١ معصوم

توران شاه ٥٩

تيمورلنك ١٠٣

ج

جاكسن (السير) ١١٤

جعفر بن سليمان ٧٤

جعفر بن عبد المنعم ٣٠

جعفر بن المستعلي ٢٧

جلال الدين حسن ٩٤

جلال الدين خوارزمشاه ٩٤

جلال الدين الرومي ١٥٣، ١٥٤-١٥٧

جلال الدين محمد ٣٤

جلال شمس الدين بن ٧٢ الحسن

جنكيز خان ١٤٨

ح

الحافظ لدين الله ٣٢، ٣٣، ٣٥-٤١

الحامدي، ابراهيم بن ٧٠ الحسين

الحامدي، حادق بن ٧٠ ابراهيم

الحجاز ٢٠

حسام الدين، عبد الحسين ٧٣

حسن بدر الدين بن عبد ٧٢ الله

الحسن بن الزبير ٥٣

الحسن بن الصباح ١١-١٣، ١٤، ٣٦، ٧٧، ٧٩، ٨٢-٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ١٤٤، ٢٠١

حسن بن محمد بن ٩٤ كيابزرك اميد

حسن بن نامور ٩٥

حسن بن هبة الله ٧٤

حسن الداعى المحق ١٢

حسن على الأول ١١٠

حسين بن أحمد ٧٤

حسين حسام الدين بن ٧٢ ادريس

##PAGE=205##

الحسينى، محمد بن هبة ٢٥ الله

الحسينى، اسعد بن على ٥٤

حيدر بن طاهر ١٣٥

حيدر بن محمد ١٣٩

حيفا ١٧

خ

خاتون، زليخا ٨٨

الخشاب، يحيى ١٤٧، ١٤٨

الخلاطى، فخر الدين ١٨٣

خليلة بى بى ١٠٣

الخوارزمى، اتسذ بن اوق ١٤٤

د

داعى عبد الغنى ١٠٩

داؤد برهان الدين ٧٣

داؤد بن قطب شاه ٦٩

داؤد بن عجب شاه ۶۹، ۷۲

الدمياطى، أبو الفتح ۲۲

دى ساسى، سلفستر ۲۰۰، ۲۰۱

ذ

ذو الفقار على ۱۰۶

ذؤيب بن موسى ۷۰

ر

الرازى، امين ۱۳۴

الرازى، نجم الدين ۱۵۳

الرازيان ۱۵۱

راشد الدين سنان ۱۲

رزىك بن طلائع ۵۶، ۶۰، ۶۱

رشيد الدين ۹۹

رضوان ۱۶

رضوان بن ولخشى ۳۳، ۳۴، ۳۹

رضى الدين بن طاهر ۱۲۸

روز نشتال ۱۶۵

روسكا ۱۶۵

ز

زكى الدين، عبد اللطيف ۷۳

زين الدين، طيب ٧٤

زين الدين، قاسم ٧٣

س

سارتون ١٦٥

السجستاني ١٥١

سردار محمد ابو الحسن خان ١١٣

سردار محمد باقر خان ١١٣

سردار محمد تقى خان ١١٣

السعدى، على بن جعفر بن ٢٤ الأغب

السعدى، شاور بن مجير ٥٦

السعيدى، محمد بن ٢١ بركات

سليم بن محمد بن مصال ٤٣

سليمان بن الحسن ٧٤

سنان راشد الدين ١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ٩٥، ١٨٥

سنجار ٨٧

ش

الشافعى، صدر الدين بن ٥٩ درباس

الشمى، حسام الدين ١٨٣

شاه حسن على ١١٣

شاه خليل الله ١١٢

شاه سيد على ١٠٩

شاوور بن مجير بن نزار ٦١-٦٣

شتر و طمان ١٦٥

الشستري، نور الله ١٣٤

شمس الدين بن صلاح ١٠١ الدين

شمس الدين، على ٧٣

شمس الدين، محمد ١٠٠، ١٢٤

شهاب الدين ابو فراس ١٢٧

شيخ آدام صفى الدين ٧٣

##PAGE=206##

الشيخ العطار ١٨٢

الشيرازى، حافظ ١١٠، ١٨٢

الشيرازى، قطب الدين ١٨٢

شيركوه ٥٧، ٦٣، ٦٦

ص

صابرة خاتون ١٠٦

صيح بن شاهنشاه ٦٣

صدر الدين بن حيدر ١٣٦

الصقلى، جوهر ١٨٩، ١٩١

صلاح الدين بن يوسف ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٥ بن أيوب

الصليحي، اروى ٣٣، ٧٠

الصنهاجي، عباس بن ٤٨ باديس

ض

ضرغام ٥٧، ٤١-٤٣ ضياء الدين بن خاقان

ط

طاهر بن رضى الدين ١٢٧

طاهر سيف الدين ٧٣

طاهر شاه الحسينى ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤

الطباطبائى، على السامانى ١٣٤

طغرل ٨٨، ١٤٤

طلّاح بن رزيك ٤٣، ٤٨، ٥٠-٥٦

طى بن شاور ٤١، ٤٢

الطبيى، شمس الدين ١٨٢

ظ

الظافر بأمر الله ٤٢-٤٤، ٤٨

الظهير مرتقع ٤٣

ع

العاقد لدين الله ٥٦، ٥٨، ٤٠، ٤٤، ٤٦، ٤٩

عالية شمس الملوك ١١٦

عباس بن تميم ٤٢

عباس بن محمد ٧٢

عباس ركن الدين ٤٥

عبد الله بن بدر الدين ٧٣

عبد الله بن علي ٧٤

عبد الله فخر الدين ٧٢

عبد الحميد (السلطان) ١٢٠

عبد السلام شاه ١٠٥

عبد الطيب زكي الدين ٧٣

عبد القادر بن شاه ١٣٥

عبد الكريم بن احمد بن ١٨٢ طاووس

عبد المطلب نجم الدين ٧٢

عبد الملك بن عطاش ٨٣

العرضي، مؤيد الدين ١٨١، ١٨٣

عزيز بن عطية ١٣٧

العسقلاني، مفضل بن ٢٤ حسن

عطية بن معين الدين ١٣٧

العقيلي، حسام بن مبارك ٥٤

علاء الدين بن حسن بن ٩٧ محمد

العلقمي، مؤيد الدين بن ١٧٩ احمد

علي بن ابي طالب ٥٠، ٥١، ١٢٩

علي بن اسحاق السلّار ٤٤، ٤٥ - ٤٨

علي بن حاتم ٧٠

علي بن الحسن بن حنظلة ٧١

علي بن الحسين ٦٩، ٧٤

علي بن الزبير ٥٤، ٦٣

علي بن سليمان ٧٤

علي خان ١٢١

علي شاه آغا خان ١١٥

علي شمس الدين بن ٧١ ابراهيم

علي شمس الدين بن ٧٢ الحسن

علي شمس الدين بن عبد الله ٧٢

علي الهادي بن نزار بن ٨٥ المستنصر

العليمي، علقمة بن عبد ٢٣

الرزاق

عمارة اليمين ٥٣ - ٥٥، ٦٠

##PAGE=207##

عمر الخيام، أبو حفص بن ١٥٠، ١٥١، ١٥٣ ابراهيم

عين الزمان ٦٣

غ

غريب ميرزا ١٠٥

غريغوريوس ٩٨

الغزالي ١٥١

غلام حسين ٧٤

ف

فاضل بابا ١٨٢

الفارابي ١٤٧، ١٥١

الفائز بنصر الله ٥٠، ٥١

فتح على شاه القاجاري ١٢٠

فخر الملك ٨٧

فيثاغورس ١٥١

ق

قاروت ٧٩

قاسم اميري ١٠٩

قاسم شاه ١٠١، ١٠٢، ١١١، ١٢٣

القاضي الفاضل ٢٢

قطب خان قطب الدين ٧٣

ك

الكاشي، فاضل بابا أفضل ١٦٦، ١٨٢

الكتامي، معلى بن حيدرة ١٤٦

الكرماني ١٥١، ١٥٩

كريم خان ١١٢

كمشلكين ٤٠

كوربان، هنري ١٠٠، ١٤٨

كيا بزرک أميد ٩٣، ٩٤

كيا شاه ١٠١

ل

لابروس، بايغيت ١٢١

لمك بن مالك ٦٩

الليبيكي، ارنولد ٢٠٠

م

المأمون البطائحي ٢٨

المجسطي ١٣٣

محمد الأول ٨٦

محمد بن اسلام ١٠٣، ١٠٤

محمد بن الانصاري ٤١

محمد بن جعفر المغربي ٢١

محمد بن حاتم بن ٧١ الحسين

محمد بن حيدر ١٣٩

محمد بن شرف الدولة ٨٨

محمد بن قادوس ٥٣

محمد بن معين الدين ١٣٨

محمد بن مؤمن ١٢٦

محمد حسين خان ١١٢

محمد العراقي ١٦

محمد عز الدين بن ٧٢ الحسن

محمد على جناح ١١٨

محمد كيا بزرگ ٩٣

محمود بن نور الدين ٥٩

محمود ركن الدين ٩٨

محمود شاه ١٠٥

المراغى، فخر الدين ١٨٣

المراغى، مصطفى ١٢١

المستنصر بالله ١١، ٢١، ٢٧، ٦٦، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ١٠٤، ١٠٥، ١٢٣، ١٤٥، ١٧٩

المستضىء بالله ٥٦

المصرى، ابو داؤد ٨٢

المصرى، سالم بن بدران المازنى ١٨٢

المصمودى، عبد الله ٢٩

المظفر على بن السلار ٤٢

معين الدين بن صدر ١٣٦ الدين

معين الدين الثانى بن ١٣٧ عزيز شاه

معين الدين المصرى ١٧١

معين، محمد ١٠٠، ١٤٨

##PAGE=208##

٧

المقريزى ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١

الملتانى، بهاء الدين زكريا ١٠٢

منبه بن الحجاج ١٩٤

منكو خان ١٠٠

موسى كلیم الدين ٧٣

الموصلى، أبو الحسن ١٤٦ الهروى

الموصلى، كمال الدين بن ١٨٢ يونس

الموفق بن الخلال ٥٣

مؤمن شاه ١٠١، ١٢٥

المؤيد فى الدين، هبة الله ٧٣، ٨٣، ١٤٤

ميكائيل ٨٧

ميمون الواسطى ١٥٢

مينورسكى ١٦٥

ن

ناصر خسرو ١٤٣، ١٤٧

ناصر الدولة ياقوت ٥٢

ناصر الدين نصر بن عباس ٤٢

نجم الدين ايوب ٦٤

نجم الدين سليم بن ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤ مصال

نجم الدين، عبد القادر ٧٣

النحوى، مسعود الدولة ٢٥

النرسى، حسام الملك ٢٩

نزار بن المستنصر بالله ١١، ١٢، ٢٧

نسيب بن مصال ٤٥

نصر بن ربيعة عباس ٤٩، ٥١

نصر بن عبد الرحمن ٥٤

النصرانى، ابو الكرام ٤١ الأخرم

نصير الدين الطوسى ٩٨، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢

نظام الملك ٨٦، ٨٨

نفيسى، سعيد ١٤٨

النميرى، منيع بن شبيب ١٤٥

نواب ميرزا جعفر ١١٢، ١١٣

نور الدين محمود بن ٥٨ زنكى

نور الدين الشهيد ٤٦

نور الدين، محمد نور ٧٣ الدين

هاشم بن فلتية ٥٤

هبة الله بن ابراهيم ٧٤

هبة الله الشيرازي ١٢

هزار الملوك ٣٣، ٣٦، ٣٩

الهمداني، الخطاب بن ٧٠ الحسن

هورتن ١٦٥

هوفكين ١١٩

هولاكو ٩٨، ٩٩، ١٢٥، ١٣١، ١٥٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠

هيوارث

ريتا ١٢٢

و

الوداعي، علي بن حنظلة ٥١

الوليد، الحسين بن علي بن ٧١ محمد

الوليد، علي بن محمد ٧١

ي

يانس، الأرمني ٣٤، ٣٨

يحيى بن لمك ٧٠

يوسف نجم الدين بن ٧٢ سليمان

فهرس الاماكن

أ

آسيا الصغرى ١٥٤

آسيا الوسطى ١٠٢

ارمينيا ١٤٤

الاسكندرية ٥٧، ٥٨

اصفهان ٧٩، ٨٢، ٨٩، ١٣١، ١٥٣

أفريقيا الشرقية ١١٧، ١١٨

افغانستان ١٠٢

المانيا ١٢٠

ألموت ١٢، ١٣، ٢٠، ٧٧، ٨٤، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١١٠، ١٣٠، ١٣١، ١٥٤، ١٤٨، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢،
١٨٥، ٢٠١

أنكلترا ١١٩

ايران ١١، ١١٠، ١١٤، ١١٥، ١٢١، ١٣٦

إيله ٥٩

ب

باكستان ١١٨، ١٢١

بانياس ١٧، ٣١

برقة ٤٤

بلاد الشام ١٣، ١٥، ١٦، ٣٤، ٤٧، ٥٧، ٥٨، ٩٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٣، ١٧٧

بلاد فارس ١٢، ١٥، ٢٠، ٧٧، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩٥، ١٠٢، ١٠٧، ١١٩، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٦، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٥

بلاد النوبة ١٣

ج

جبال البرز ١٢

جبال البهرة ١٣، ١٦، ٩٣

خ

خراسان ٧٨ خوارزم ٩٨

ز

زنجبار ١٢٠

س

سلمية ١٢٢

السودان ٥٣

سورية ١٢٢، ١٣٤، ١٣٩

ش

شمال افريقية ١٤٤

ص

صقلية ٢٠، ٢٤

ط

طبريا ١٧

ع

العراق ٥٠، ١٢٢، ١٨٥

عسقلان ١٧، ٢٠، ٤٦، ٤٧

عكا ١٧، ٤٧

غ

غزنة ٧٨

غزة ٤٨

##PAGE=210##

ف

فارس ٩٩، ١٠٠

فرنسا ١١٩

فلسطين ١٧، ٢٠، ١٤٦

ق

القاهرة المعزية ١١، ٢٠، ٥٧، ٥٨، ٨٢، ٩٥، ١٨٩

القدس ١٧، ١٨

قراقورم ١٠٠

قزوين ١٢، ٧٩، ٨٣، ١٨٣

ك

كابول ٧٨

الكرک ١٧

الكوفة ٧٧، ١٦٩

كينيا ١١٨

ل

لبنان ١٢٢

م

مصر ١٥، ٢٣، ٢٧، ٣١، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٤، ١٢١، ١٤٦

مصياف ١٤، ٢٠، ١٣٥، ١٣٩، ١٨٥

معرفة النعمان ١٤٦

المغرب ٢٠، ٤٨، ١٤٣

ن

نجران ٦٩

ه

همذان ٩٩

الهند ١٠٤، ١٠٧، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١٢١، ١٣٠، ١٣١، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٨

ى

يافا ٤٧

اليمن ٢٠، ٧٧، ١٤٣

##PAGE=211##

فهرس القبائل و العائلات و الفرق

أ

الاتراك ٧٩، ٨٧، ١١٠

الأرمن ٣٤

الأسرة الخداونديّة ١٢٩، ١٣٠

الاسماعيلية ١٣، ١٨، ٣٧، ٦٦، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥-١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٩، ١٢٥، ١٢٩،
١٣٥، ١٣٨، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ٢٠١

الأشمونيون ٤٣، ٥٠

الافرنج ٥٨، ٥٩

الأفغانيون ١١٠

الأكراد ٥٩

الايوبيون ١٥، ٩٨، ١٥٩، ١٨٤

ب

بنو سليم ١٤٥

بنو هلال ١٤٥

البويهيون ٩٢، ٩٥، ١٤٤

ت

التتر ٩٥

خ

الخوازميون ٩٤

ز

الزنكيون ١٥

س

السلجوقيون ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ٩٤، ١٤٤، ١٤٥

السنة ٤٩، ٥٣، ٥٩، ٦٥، ١٧٩

ش

الشيعة ٤٩، ٥٣، ٥٩، ٦٥، ٢٠١

ص

الصفويون ١٠٦، ١٠٧

الصليبيون ١٣-١٥، ١٨، ١٩، ٢٣، ٢٩-٣١، ٤٦-٤٨، ٥١، ٥٣، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ١٨٤، ٢٠٢

الصفويون ١٠٢

ع

العباسيون ١٥، ٨٢، ١٧٣، ١٧٩

غ

الغزنوية ٨٨

الغوريون ٩٤

ف

الفاطميون ٣١، ٥٢، ٥٦، ٦٥، ١٩٠، ١٩٦

الفرقة الحافظية ٣٣

الفرقة الداودية ٦٩

الفرقة السليمانية ٦٩

الفرقة الطيبية ٣٣

ق

الفاجاريون ١٢٠

قبيلة الزندية ١٢٠

م

المستعليه - البهرة ٦٩، ٧٠

##PAGE=212##

المصريون ٦٦

المغاربة ٢٩

المغول ٩٩

ن

النزارية الاسماعيلية ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٧، ٢٠، ٣٠، ٣٣، ٦٦، ٧٧، ٨٥، ٩٧، ١٠٣، ١٢٥، ١٦٨

ه

الهندوس ١١٨، ١١٩

الهنود ١٠٩

ي

اليمنيون ٦٩

##PAGE=213##

المصادر

المصادر العربية

ابن سينا في موانع اخوان الصفاء - عارف تامر.

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - المقرئ.

اثبات التبوأت - السجستاني - عارف تامر.

أخبار مصر - المسبحي.

أخبار ملوك بنو عبيد و سيرتهم - ابن حمّاء القاضي.

أخبار ملوك بنو عبيد و سيرتهم - فوندر.

أروى بنت اليمن - عارف تامر.

أساس التأويل - النعمان بن حيّون - تحقيق عارف تامر.

استتار الأمن - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.

أعيان الشيعة - محسن الأمين العاملي.

افتتاح الدعوة «النعمان بن حيّون» تحقيق وداد القاضي.

الإمام المستنصر بالله الفاطمي - عبد المنعم ماجد.

البيان المغرب في أخبار المغرب - ابن عذارى.

تاج العقائد (على بن الوليد) تحقيق عارف تامر.

تاريخ أخبار القرامطة - ثابت بن سنان و ابن العديم.

تاريخ الاسلام السياسي و الديني - حسن ابراهيم حسن.

تاريخ الإسماعيلية السياسية حتى سقوط بغداد - طه أحمد شرف.

تاريخ جوهر الصقلي - على ابراهيم حسن.

تاريخ الرسل و الملوك - الطبري.

تقويم البلدان - أبو الفداء.

تميم بن المعز لدين الله - عارف تامر.

ثورة القرامطة الاشتراكية - عارف تامر.

جواهر الصقلي «الفائد» - عارف تامر.

الحاكم بأمر الله - عارف تامر.

الحاكم بأمر الله المفترى عليه - عبد المنعم ماجد.

الحاكم بأمر الله و أسرار الدعوة الفاطمية - محمد عبد الله عنان.

حركات الشيعة المنتظرين - محمد جابر عبد العال.

حضارات الاسلام - جوستاف فون جرونوم.

دراسات فى العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدورى.

دعائم الاسلام (النعمان بن حيون) تحقيق آصف فيضى.

دولة النزاريه - طه أحمد شرف.

راحة العقل و الكرمانى - محمد مصطفى حلمى و محمد كامل حسين.

##PAGE=214##

الرياض - (الكرمانى) - تحقيق عارف تامر.

سيرة الاستاذ جوزر الكاتب - محمد كامل حسين و محمد عبد الهادى شعيرة.

سيرة جعفر الحاجب - (اليمانى) مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.

شرح ديوان ابن هانىء الأندلسى - عارف تامر.

صلة تاريخ الطبرى - غريب بن سعد.

الصليحيون فى اليمن - حسين همدانى.

عبقريه الفاطميين - محمد حسن الأعظمى.

عبيد الله المهدي - إمام الشيعة الإسماعيلية و مؤسس الدولة الفاطمية - حسن ابراهيم حسن.

العزيز بالله - عارف تامر.

العصر العباسى الأول - شوقى ضيف.

العصر العباسى الأول - عبد العزيز الدورى.

عيون الأخبار - ادريس عماد الدين.

الغزالي بين الفلسفة و الدين - عارف تامر.

الغلو و الفرق الغالية في الحضارة الاسلامية - عبد الله سلوم السامرائي.

الفاطيون في مصر - حسن ابراهيم حسن.

الفرق بين الفرق - الإمام أبو منصور البغدادي.

فرق الشيعة - النوبختي.

فصول و أخبار (مخطوط - نور الدين أحمد).

في أدب مصر الفاطمية - محمد كامل حسين.

القرامطة - عارف تامر.

كتاب البلدان - يعقوبي.

كشف أسرار الباطنية و أخبار القرامطة - الحمادي اليماني.

كنوز الفاطميين - زكي محمد حسن.

لمعة من أخبار المعز - مؤلف مجهول.

المجالس المستنصرية - الداعي ثقة الإمام.

المجالس و المسائرات - النعمان بن حيّون.

المجلة الذهبية - علي محمد جبارة.

مروج الذهب - المسعودي.

معجم البلدان - ياقوت الحموي.

المعز لدين الله - حسن ابراهيم حسن و طه أحمد شرف.

المعز لدين الله - عارف تامر.

الملل و النحل - الشهرستاني.

الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين - عارف تامر.

المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي - محمد كامل حسين.

الناصر لدين الله - سيمون حايك.

##PAGE=215##

نزهة الأفكار - ادريس عماد الدين.

النظم السياسية - حسن ابراهيم حسن و علي ابراهيم حسن.

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام و العراق - محمد جمال سرور.

نور مبين قبل الله المتين - علي محمد جبارة.

الهمة في آداب اتباع الأئمة - محمد كامل حسين.

وفيات الاعيان - ابن خلكان.

المصادر الأجنبية

##PAGE=216##

٨